مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية
الجزء العاشر

مجمـوع

رسائل موحدية

من إنشـاء

كتاب الدولة المؤمنية

اعتنى بإصدارهـا

الاستـاذ

إ. لافي پروڤانصال



رباط الفتح 1941
المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله — شارع بواتي بالرباط (المغرب الاقصى)

مجموع

رسائل موحدية

مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية
الجزء العاشر

مجموع

رسائل موحدية

من إنشاء

كتاب الدولة المؤمنية

اعتنى بإصدارها

الاستاذ

إ. لاڤي پروڤانصال



رباط الفتح 1941
المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله — شارع بواتيي بالرباط (المغرب الاقصى)

بيان أهمّ مطبوعات المصدر

إدارة النشرة الافرنسية لدائرة المعارف الاسلامية المطبوعة بليدن (هولاندا) من سنة ١٩٢٦ لغاية إتمامها (١٩٣٩) ومجلة «هيسبيريس» من ١٩٢٦ الى ١٩٣٥ .

مؤلفات موضوعية باللغة الافرنسية :

— مؤرخو الشرفاء أي بحث في الاداب التأريخية والترجمية بالمغرب الاقصى من القرن السادس عشر (م) الى القرن العشرين - في مجلد - باريس ١٩٢٢
— المخطوطات العربية بمكتبة الرباط - في مجلد - باريس ١٩٢١
— المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال ، الجزء الثالث - في مجلد - باريس ١٩٢٨
— زاوية شالة وروضة سلاطين بني مرين (مع هـ. باسي) - في مجلد - باريس ١٩٢٣
— تأريخ مسلمي اسبانيا لدوزي - نشرة جديدة منقحة - في ٣ مجلدات - ليدن ١٩٣٢
— النقوش العربية التأريخية في إسبانيا - في مجلدين - ليدن ١٩٣١
— إسبانيا الاسلامية في القرن العاشر الميلادي : مؤسساتها وحياتها الاجتماعية - في مجلد - باريس ١٩٣٢
— المدنية العربيّة في إسبانيا ، نظرة عامة - في مجلد - القاهرة ١٩٣٨
— مواد لتاريخ الغرب الاسلامي من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية - في مجلد - القاهرة (تحت الطبع)
— دراسات إسبانية إسلامية - في مجلد - باريس (تحت الطبع)

منشورات ومترجمات :

— صحيح الامام البخاري ، نسخة ابن سعادة ، الجزء الاول - نشرة فوتوغرافية في مجلد - باريس ١٩٢٨
— نبذ تأريخية جامعة لاخبار المغرب الاقصى - في مجلد - باريس ١٩٢٩
— المسند لابن مرزوق - اقتباس وترجمة وتعليقات - في مجلد - باريس ١٩٢٥
— وثائق موحدية جديدة منها كتاب اخبار المهدي للبيذق - نص عربي وترجمة وتعليقات - في مجلد - باريس ١٩٢٨
— كتاب السقطي في آداب الحسبة (مع ج. س. كولان)- في مجلد - باريس ١٩٣١
— كتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول - في مجلد - الرباط ١٩٣٤
— رسالة ابن عبدون في الحسبة - في مجلد - باريس ١٩٣٤
— كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب - تاريخ الاندلس - في مجلد - الرباط ١٩٣٤
— ذكريات الملك عبد الله صاحب غرناطة - نص عربي وترجمة - مجريط ١٩٣٦
— شبه الجزيرة الايبرية عن كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى - نص عربي وترجمة وتعليقات - في مجلد - ليدن ١٩٣٨
— صلة الصلة لابن الزبير (القسم الاخر) - في مجلد - الرباط ١٩٣٨
— مجموع رسائل موحدية - في مجلد - الرباط ١٩٤١
— كتاب الذخيرة لابن بسام - المجلد الاول - اشتراك في النشر مع الاساتذة طه حسين واحمد امين وعبد الوهاب عزام ومصطفى عبد الرازق وعبد الحميد العبادي - في مجلد - القاهرة ١٩٤٠



اتفقت كلمة الباحثين المعتنين بماضي الغرب الاسلامي على المكان الذي يشغله العهد الموحّدي في تأريخ القرون الوسطى. ولا يستطيع أَحدٌ أَن ينكر الآن أَهمّيَّة الانقلاب المشاهد بشماليّ إِفريقيا والاندلس حينما قام المهديُّ ابن تومرت بدعوة التوحيد ونجحت حركته الدينيَّة السياسيَّة الاجتماعيَّة وأُسّست دولةٌ مستقلَّة على يدي خليفته عبد المؤمن. وقد لبث تأْريخ هذه الفترة الخطيرة معروفاً معرفةً إِجماليَّة حسبما عرضَتْه المصادر العربيَّة العادية المستفاد منها من زمان مثل «الرُّوض القرطاس» لابن أَبي زَرْع و «الحُلَل الموشية» لمؤَرّخ مجهول و «كتاب العِبَر» لابن خلدون و «تأْريخ الدولتَيْن» المنسوب الى الزَّرْكَشي وغيرها من التواريخ المتأَخّرة. أَمَّا المصادر المعاصرة للدولة نفسها فقد كانت تلفَتْ بجميعها ما عدا كتاب وحيد وهو «المُعجِب» لعبد الواحد المرَّاكشي، إِلَّا أَنَّه تأْليف أَدبي أَكثر من تأْريخي. ولا حاجة هنا الى التبسُّط فيما كان يتلقَّاه النقد من المصاعب كلّما حاول الفرق بين الحقيقي والخُرافي في مختلف تلك المصادر المختصرة.

ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت ـ لحسن الحظّ ـ وثائق جديدة معاصرة للعهد الموحّدي . فمنها «كتاب أَخبار المهدي» لصاحبه البَيْذق الذي عثرنا عليه في مكتبة الاسكوريال بإسبانيا ونشرناه وترجمناه الى اللُّغة الافرنسيَّة . ومنها جزء من «كتاب نَظْم الجُمان» لابن القطَّان مشتمل على تأْريخ ابتداء الموحّدين وسيطبع عن قريب . ومنها سلسلة الوثائق المؤْمنيَّة التي نقدّمها اليوم الى الجمهور المثقَّف وبالخصوص الى غواة ماضي المغرب التأْريخي الادبي .

***

تتركّب هذه المجموعة من سبعة وثلاثين رسالة رسميَّة من إنشاء مهمّي كُتَّاب الخليفة عبد المؤْمن وبنيه ، اقتبسنا جلَّها من مجلَّد خطّي مغربي مبتور الطرفَيْن قد كان اكتسبه منذ سنوات صديقنا وزميلنا المستشرق ج . س . كولان . وتفضَّل حينذاك بإعارته إيَّانا ؛ فنسدي اليه الثناء اللائق بهذا التجمُّل .

لا يكاد من طالع هذه السلسلة يستصغر قيمتها من الوجهتَيْن التأْريخيَّة والادبيَّة . أَمَّا من الوجهة التأْريخيَّة ، فإنَّها تعرض لنا بياناً مباشراً دقيقاً منظَّماً لأَهمّ الحوادث التي وقعت في أَيَّام الموحّدين من تدابير سياسيَّة وإصلاحات اجتماعيَّة وغزوات وانتصارات حربيَّة . وأَمَّا من الوجهة الأُخرى ، فإنَّها ستمكّن كلّ من يدرس تطوُّر الآداب بالديار الغربيَّة الاسلاميَّة من نماذج شتَّى عن فنّ الكتابة الرسميَّة في العهد الموحّدي ؛ كما ستأْذن له مقارنةً تحليليَّة بينها وبين سائر المُنْتَجات النثريَّة المسجوعة

التي أنشئت في هذا المعنى ، لا سيّما في دواوين البلاطات الاندلسيّة والمغربيّة قبل الموحّدين وبعد سقوط دولتهم .

وليس من شأننا أن نطنب هنا في الكلام على متضمّن المجموعة من ناحيتي النقد التأريخي والنقد الادبي ؛ على أنّنا معوّلون على نشر درس خصوصيّ باللّغة الافرنسيّة على الموادّ الجديدة المتحصّل عليها عَبْرَ هذه الرسائل . فمن راجع درسنا سيجد فيه برهاناً عمّا قدّمناه من قيمتها ؛ وكذلك بعض الاشارات على أُسلوبها الاصطلاحي ومميّزاتها التعبيريّة والضوابط الشكليّة التي كان يراعيها الكُتّاب في المكاتبة الرسميّة .

سيرى القاريء انّنا أَضفنا الى المجموعة رسالةً (وهي العاشرة) لم يقع نصُّها في المخطوط وإنّما نقلناها من « كتاب صُبح الاعشى » للقَلْقَشَنْدي . فلا بأس ان ننتسخ هنا ما ذكره هذا المؤلّف عن الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحّدين . قال إِنّها على أُسلوبَيْن ؛ الأُسلوب الاوّل أَن تفتتح المكاتبة بلفظ « من فلان الى فلان » ؛ والأُسلوب الثاني أَن تفتتح المكاتبة بلفظ « أَمّا بعد » . أَمّا الأُسلوب الاوّل ـ وهو المستعمل بالاكثر في السلسلة التي ننشرها ـ فقال فيه : « وكان الرسم في المكاتبة أَن يقال : « من أَمير المؤمنين الى فلان » ويُدعى له بما يناسبه « الى فلان » ويُدعى له بما يليق به ؛ ثمّ يؤْتَى بالسلام ؛ ثمّ يؤْتَى بالبعديّة والتحميد والصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والترضية على الصحابة ؛ ثمّ عن إِمامهم المهديّ ؛ ثمّ

يؤتَى على المقصود ؛ ويختم بالسلام . والخطاب فيه بِنُون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب اليه[1] . »

لا يحتاج المطّلع على الرسائل الى طويل بحث ليتعرّف حقيقة هذا الرسم الذي حدّده القلقشندي ويلاحظ أَنَّ الكُتّاب كانوا يحافظون عليه كلَّ المحافظة .

ولعلَّ من الفائدة أَن نقول الآن كلمة في شخصيّة كلّ واحد من أُولئك الكُتّاب ؛ وهم حسب الترتيب الزمني أَبو جعفر بن عطيّة ، وأَخوه أَبو عَقِيل ، وأَبو الحسن بن عيّاش ، وأَبو الحَكَم بن المُرْخي ، وأَبو القاسم القالَمي ، وأَبو الفضل بن مَحْشَرة ، وأَبو عبد الله بن عيّاش .

أَمّا الأَوّلان ، فهما أَبو جعفر أَحمد وأَبو عَقِيل عطيّة ابنا جعفر بن محمّد بن عطيّة القُضاعيّان المرّاكشيّان . وكان أَصلهما القديم من قرية بناحية طُرطوشة بشرق الاندلس . وقد ترجم لأَبي جعفر بن عطيّة عددٌ من المؤلّفين كعبد الواحد المرّاكشي في « المُعْجِب »[2] وابن الأبّار في « الحُلّة السّيَراء »[3] وابن الخطيب في « الاحاطة »[4] والمَقّري في « نَفْح الطيب »[5] . ولد بمرّاكش في سنة ٥١٧ وكتب للسلطانَين المرابطيّين علي ابن يوسف وابنه تاشفين . وكان ، على ما ذكره ابن الخطيب ، أَحظى كُتّابهم . ثمّ لمّا انقطعت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأَخفى نفسه الى أَن

(١) راجع « صبح الاعشى » (ط المطبعة الاميرية بالقاهرة) : ج ٦ ص ٤٤٣ . — (٢) راجع طبعة دوزي ص ١٤٣ـ ١٤٤ . — (٣) راجع طبعة دوزي ص ١٩٨ ، ٢١٥ ـ ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ . — (٤) راجع « مركز الاحاطة » طبعة القاهرة ج ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٩ . — (٥) راجع طبعة بولاق ج ٣ ص ١٠١ ـ ١٠٤ .

استكتبه واستوزره بعد حين الخليفة عبد المؤمن في ظروف نبّه عليها مترجموه . وتصفه « الاحاطة » ككاتب « بليغ سهل المأخذ منقاد القريحة سيّال الطبع رائق الخطّ » . وبعد أن أدرك المحلّ الابرز عند مولاه جرت له محنة وقُتل هو وأخوه أبو عَقيل في أواخر سنة ٥٥٣ .

وأمّا أبو الحسن بن عيّاش ، فهو عبد الملك بن عيّاش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأَزدي القرطبي وأصله من مدينة يابُرة من غرب الاندلس . وذكر ابن الابّار في « تكملة الصلة »(١) أنّه صحب بني حمدين بقرطبة وكتب لهم أيّام قضائهم . ثمّ استخدمه الموحّدون بعد ذلك في الكتابة . قال ابن الابّار : « وكان عبد الملك ، مع تقدّمه في الآداب وتصرّفه في النثر ، مشاركاً في النظم من أبرع الناس خطًّا وأحسنهم وراقة . وكانت له من الولاة منزلة جليلة . » وكانت وفاته سنة ٥٦٨ .

وأمّا أبو الحكم بن المُرخي ، فهو علي بن محمّد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الاشبيلي ، وشهر بمعرفته ابن المُرخي ؛ ولي خطّة الكتابة للموحّدين . وقد ترجم له ابن الزُّبَير في « صلة الصلة »(٢) وابن الابّار في « التكملة »(٣) ترجمةً مختصرة ؛ ولم يذكرا تأريخي ميلاده ووفاته .

وأمّا ابو القاسم بن عبد الرحمن القالَمي ، فلم نعثر على ترجمته في معاجم أُدباء هذا العصر . إلّا أنّ عبد الواحد المرّاكشيّ أشار اليه في « المُعجِب »(٤)

(١) راجع طبعة قديرة بمجريط ، رقم ١٧٢١ . — (٢) راجع طبعتنا (الرباط ، ١٩٣٨) رقم ٢١٦ . — (٣) راجع طبعة قديرة رقم ١٨٧٢ . — (٤) راجع طبعة سلا (١٣٥٧ - ١٩٣٨) ص ١١٩ ، ١٢١ ، ١٤٨ .

وعدّه من كُتّاب عبد المؤمن وابنه الامير أبي يعقوب يوسف . قال : « استوزر عبد المؤمن أَبا جعفر أَحمد بن عطيّة ؛ فجمع بين الوزارة والكتابة وهو معدود في الكُتّاب والوزراء ؛ فلم يزل عبد المؤمن يجمعها له الى أَن افتتحوا بجاية ؛ فاستكتب عبد المؤمن من أَهلها رجلًا من نبهاء الكُتّاب يقال له أَبو القاسم القالمي . » ثمّ قال إنّه « من أَهل مدينة بجاية ، من ضيعة من أَعمالها تُعرف بقالم . »

وأَمّا ابن مَخْشَرة ، فهو أَبو الفضل جعفر بن محمّد بن علي بن طاهر ابن تميم القَيْسي من أَهل بجاية . وأَصل بيته من قلعة بني حمّاد . وقد ترجمه الغُبْريني في كتابه « عنوان الدراية »(١) وذكر أَنّ الخليفة ابن عبد المؤمن استدعاه الى حضرته مرّاكش واستكتبه ، وأَنّه ولد سنة ٥٤١ أَو قبلها بيسير وتوفّي سنة ٥٩٨ .

وأَمّا الاخير من أُولئك الكُتّاب ، فهو أَبو عبد الله محمّد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عُبَيْد الله بن عيّاش التجيبي ؛ أَصله من قرية بُرْشانة من عمل المريّة بجنوبيّ الاندلس ، ولد بها سنة ٥٥٠ . وقد ترجم له صفوان بن إدريس في « زاد المُسافِر »(٢) وابن الابّار في « التكملة »(٣) وفي « إعتاب الكُتّاب »(٤) وابن الخطيب في « الاحاطة »(٥) . فذكر ابن الابّار أَنّه « كان عالماً بالآداب ، رئيساً في صنعة الكتابة ، خطيباً مِصْقَعاً بليغاً

(١) راجع طبعة ابن ابي شنب (الجزائر ، ١٣٦٨ - ١٩١٠) ص ٣٠ - ٣٢ . — (٢) راجع طبعة محداد (بيروت ، ١٣٥٨ - ١٩٣٩) رقم ٤٦ ص ٩٤ - ٩٥ . — (٣) راجع طبعة قديرة رقم ٩٥٢ . — (٤) راجع مخطوط المكتبة الشريفية بالرباط رقم ٤٠٩ - ، الترجمة السبعون . — (٥) راجع مخطوط المكتبة الاسكوريالية رقم ١٦٧٣ ص ٥٠ - ٥٢ .

مفوّهاً ، ذا حظّ صالح من قرض الشعر ، وأَنَّ السلطان بالمغرب استكتبه في سنة ٥٨٦ ؛ فنال دُنيا عريضة .» وتوفّي بمرّاكش في العشر الاواخر من جمادى الآخرة سنة ٦١٨ . أَمّا ابن الخطيب ، فقال في حاله ، ناقلًا عن ابن عبد الملك المرّاكشي : «كان كاتباً بارعاً فصيحاً ، مُشْرِفاً على علوم اللسان ، حافظاً للُّغات والآداب ، جزلاً ، سريّ الهمّة ، كبير المقدار ، حسن الخلق ، كريم الطباع ، نفّاعاً بجاهه وماله ، كثير الاعتناء بطَلَبة العلم والسعي الجميل لهم وإفاضة المعروف على قُصّاده ، مستعيناً على ذلك بما نال من الثروة والحظوة والجاه عند الأُمراء من بني عبد المؤْمن ، إذ كان صاحب القلم الاعلى على عهد المنصور وابنه ، رفيعَ المنزلة والمكانة لديهم ، قاصداً الاعراب في كلامه لا يخاطب أَحداً من الناس على تفاريق أَحوالهم إلّا بكلام مُعْرَب ؛ وربّما استعمل في مخاطبة خَدَمته وأَمته من حُوشيّ الالفاظ ما لا يكاد يستعمله ويفهمه إلّا حُفّاظ اللُّغة من أَهل العلم : عادةً أَلِفها واستمرّت حاله عليها .»

***

لا يسعنا أَن نختتم هذه الكلمات التمهيديّة دون أَن نقضي واجباً . وهو أَن نتقدّم الشكر إلى أَصدقائنا وزملائنا الشرقيّين وبعض الغربيّين الناطقين بالضاد[1] ، لما تفضّلوا منذ سنوات ــ ولا يزالون ــ من الاعتراف بسعينا المواصل لدرس المدنيّة الاسلاميّة في العصور الوسطى ، وبجهدنا لاستكشاف بعض نواحيها المبهَمة ونشر مصادرها التي أُتيح لنا

(١) ممن لا يمتثل كلمة الحديث المشهور : «خالفوهم !»

إخراجها من زوايا النسيان ؛ وبقيامنا بالدفاع عن تلك المدنيَّة ، والتقدير لمجدها ، والرفع لمنارها ، والانتصاف لدَوْرها البارز وتأثيرها المكين في نهضة الفكر الانساني واشتراكها في ازدهار الآداب والفنون الجميلة في أورُبّا . فنتمنّى أَن يساعدنا الدهر في المستقبل ، ولا يخيّب أولئك الأَصدقاء في مأمولهم منّا ، وأَن لا تزال الأَيّام تؤهّلنا لعطفهم وتشجيعهم وتحبيذهم ، وتمكّننا من تتبُّع نشاطنا الدرسي العادي ، بحسب ميلنا اليه وعنايتنا بمختلف مظاهرات الثقافة العربيّة وتجديدها الحالي المُعجب .

ا . ل . ب .

الرباط في ٨ مارس ١٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الاولى

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطيّة :

من أمير المؤمنين - أيّده الله بنَصره ، وأمدّه بمَعونته - إلى الطَّلَبة الذين بسَبْتة وجميع من فيها من الموحّدين خاصّةً وعامّة - وفّقهم الله وسدّدهم - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أمّا بعد فالحمد لله مولي الرغائب ، ومسنّي الآمال والمطالب ، وقابل توبة النائب ، نحمده بما يتعيّن من حمده الواجب ، ونصلّي على محمّد نبيّه العاقب ؛ وعلى آله وصحبه أُولي المفاخر السنيّة والمناقب . ونصل الرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، المحرز شرف المبادئ والعواقب ، المجلي بنوره الثاقب ، حجب الظلام الواقب . وكتبناهُ إليكم - كتب اللهُ لكم شكراً مُوالىً مُعادا ، وتوبةً تجعلونها قاعدةً لأعمالكم وعمادا ، وصلاحاً لا يفارق بحمد الله نماءً او ازديادا - من حضرة مرّاكش - حرسها الله - وقد وَصَلْنا بحمد الله على أتمّ أحوال الظفر واليمن ، وعُدنا إليها تحت ظلّ السلامة التامّة والأمن ؛ بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، وإطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها ، وإلصاقِ أُنوف الكفرة المرتدّين

برغامها، وقطع دابر القوم المجرمين في هذه الجهة وما انتظم في نظامها؛ ونال الغزاةُ في هذه الحركة الميمونة من الأجور، والمغنم الموفور، والفضل الذي ينشر عليهم أَجنحتَه يَوْمَ النشور، ما لا يتمكّن لأحد من البشر وصفُه على حال، ولا يتأَتّى لمخلوق نَعْتُه على استيفاء وإكمال. فطوبى ثمَّ طوبى لمن حضر في سبيل الله فأَحضر، وأَخلص نيَّته في غزوه الميمون بمبلغ ما استطاع وقدر، وتساعدتْ جوارحُه في تخليص ما اكتسب من هذه الفضائل واذَّخر.

وإنَّ النعمة ـ وفَّقكم الله ـ بهذه الفتوح العميمة العامَّة شاملةٌ على من أَخذ بهذا الأمر العزيز ودان، وتَزَيَّا بحُلَّته البهيّة فازدان؛ فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهديّ ـ رضي الله عنه ـ العجبُ العُجاب، وفاض فيها من بركاته الفيضُ المنساب، ودرَّتْ بها الأرزاق وانتشر الأمن وكُرم المآب. وكان أَمْرُها مخصوصاً بالمرتدّين الخاسرين؛ فمحقهم وطيسُها الشديد الغلّاب، وليس لله على ذلك إلّا الحمد والشكر والمتاب.

فاشكروا الله، عبادَ الله، شكراً دائماً مستمرًّا مع الاحيان، وأَحسنوا ضمائركم، وطهّروا سرائركم، في مقابلة هذا الاحسان، وتوبوا إلى الله جميعاً توبَةً نَصوحاً غاسلةً للقلوب من الادران؛ فالتوبةُ أَصلٌ للاعمال الراجحة، والمتاجر الرابحة؛ ونعوذ بالله من الخسران. وقد آن لكم، أَيُّها المؤْمنون، أن تجدّدوا توبتكم تجديداً وكيدا، وتغتنموا من هذه النصائح التي تتداولكم حظًّا مُفيدا، وتشهدوا الله على التمسُّك بعصم الايمان، وكفى

به شهيدا . فبادروا ـ رحمكم الله ـ إلى طاعة الله تعالى في العلانية والنجوى ، وشدّوا أَيديكم على هذا الحبل الامتن الاقوى ، واعلموا أَنّكم راحلون ، فتَزَوّدوا ، فإنّ خَيرَ الزّادِ التّقوَى ؛ وحافِظوا ـ أَصلحكم الله ـ على إخلاص النيّات ، والتزام الصلوات ، وسائر أَعمال الطاعات ، وتلاوة القرآن والتوحيد فهي أَكرم التلاوات . واصفحوا ، واصلحوا ، وتعاملوا بالخير تفلحوا ، واقرعوا أَبواب الرحمة بإيمان الايمان تستفتحوا ؛ وواظبوا على تغيير المنكر وأْتَمِروا بَيْنكم بِمَعروف تنجحوا . واشتغلوا بدينكم اشتغالاً يُخلّصكم ، والتزموه التزاماً يخصُّكم على الدوام ويُحرّصكم ؛ وتزيّدوا من الاعمال الصالحة في هذه الاعمار التي لا تزال مع اللحظات تُنقّصكم . ورحم الله إمرَءًا سمع النصيحة فابتدرها ، وجاهد نفسه على طاعة الله فقهرها ، وأَخذ عليها مآخذ الشهوات فنهاها بالحقّ وأَمرها . أَعاننا الله وإيّاكم على شكر نعماه ، وطلب رحماه ؛ بعزّته . والسلام .

الرسالة الثانية

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ إلى الشيخ الفقيه القاضي أَبي القاسم محمّد بن الحاجّ ـ أَدام الله كرامته بطاعته وتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أَمَّا بعد حمد الله الذي عمَّتْ برحمته نِعَمُه، والصلاة على محمَّد نبيّه الذي انجابت بنوره حنادسُ الكفر وظُلَمُه، وعلى آله وصحبه الذين عُرِفت في هديهم أَخلاقُه العظيمة وشِيَمُه؛ والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأَمر الله ثابتاً في بسطه قدَمُه، ظاهراً في تمشيته في البسيطة سبقُه وتقدُّمُه؛ فإِنّا كتبناهُ إِليكم - كتب الله لكم عقد الايمان وربطَه، ونظم لكم بطاعته سلك العمل وسمطَه - من حضرة مرَّاكش - حرسها الله - ونحنُ نشكره سبحانه على إفاضة الخير ونشره، وصلة تيسيره لأَوليائه ويسره.

وقد وصلَنا أَخوكم الشيخ الجليل أَبو محمَّد، وابنكم أَبو الحسن، وصاحبُكم الشيخ الكاتب أَبو عبد الله بن زَرْقون - أَكرمهم الله بتقواه - فأَدوا من حقّ هجرتهم البرّة ما قلّدوه، ونالوا من خير الزيارة والبيعة ما اعتمدوه؛ ثمَّ انصرفوا مبرورين مسرورين بما أَلقوه من بركة هذا الامر الكريم ووجدوه. وقام عذرُكم - وفَّقكم الله - على ساقه فقُبِل، ومَثَلَ وَلاؤُكم نائباً عن الوصول فوصِل. ولكم عندنا - وفَّقكم الله وأَكرمكم - من حظوظ التقريب والايثار، وموالاة التنبيه على سبيل الدوام لكم والاستمرار، فوق ما تؤَمّلونه، وخير ما تستقبلونه. فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم، وتقرَّبوا إليه بالاعمال الصالحة يضاعف قربكم، والله يحفظ إِيمانكم وأَمانتكم منَّا لكم ورتبكم؛ بمنّه. والسلام.

الرسالة الثالثة

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أمير المؤمنين ـ أيّده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته ـ إلى الطّلبة الذين بصنهاجة تاسغرت والمشيخة والاعيان والكافّة ـ وفّقهم الله وأعانهم على ما يرضاه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أمّا بعد حمد الله على أَنْعُمه التي أضفاها ، ورحمته التي نرجو أن تُقرّبنا زُلفاها ؛ والصلاة على محمّد نبيّه الذي قضى حقوق الامانة ووفاها ؛ ومحا بأمر الله آثار الكفر وعفاها ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، وليّه الذي تقبّل سُبُل الهداية واقتفاها ، وأقام رسوم الشريعة على رغم من جحدها ونفاها ؛ فإنّا كتبناهُ إليكم ـ كتب الله لكم أَجْرَ مَن جاهد واجتهد ، وتوكّل على صادق وعده واعتمد ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ في السابع والعشرين من ربيع الاوّل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكلمةُ الحقّ بفضل الله لا تفارق سموّاً وعلوّا ، وأمرُ الله يكبت أعداءَه عدوّاً فعدوّا ، وبركاتُ إمامنا المهديّ ـ رضي الله عنه ـ تتزيّد على مرّ الزمان رواحاً وغُدُوّا .

وقد صدرْنا ـ وفّقكم الله ـ على الحضرة العليّة تينمّلل ـ كرّمها الله ـ بعد أن قضينا بحمد الله أوطارَنا ، واقتضى النظرُ في المصالح صرفَنا وإصدارَنا ؛ واجتمعنا بالجماعة الواصلة من قِبَلكم على أحسن حال ، ووعينا

جميع ما تحمّلوه من مقال ؛ ومن قِبَلهم تقفون إن شاء الله على مقتضى نظرنا ومعناه ، وينتهي إليكم بحول الله ما رأَيناه . وتصلكم طيَّ كتابنا هذا نسخةُ كتابٍ خاطَبْنا بمثلها كلَّ جهة من جهات الموحّدين ـ وفّقهم الله ـ فيما قرب وبعُد ، وحملناها من الوصايا ما نرجو أَن يعين على أَمر الله ويمضُد ، ورأَينا إنفاذها إليكم لتنالوا من بركاتها ما تجدون إثره قريبا ، وتحوزون من خيره حظًّا وافراً ونصيبا . فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم من فضله ، وخصّكم به من عميم طَوْله ؛ واعلموا مقدار ما نلتموه من الاجر في صبركم وجهادكم ، وإخلاصكم لهذا الامر ـ أَعلاه الله ـ بجميل اعتقادكم ؛ وسترون من بركات ما تحمدون به آراءكم ، وتجنون ثمرته لكم ولمن وراءكم ـ يسّركم الله للخير ، وجعلكم ممّن سار في مرضاته أَكرمَ السير ـ والسلام الكريم عليكم ورحمة الله .

الرسالة الرابعة

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ إلى الشيخ الأَجلّ أَبي زكرياء يحي بن عليّ ـ وفّقه الله ويسّره لما يرضاه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

أَمّا بعدُ فالحمدُ لله الذي ظهرَتْ قدرتُه ، وختمَتْ بالسعادة لأَهليها فطرتُه ، وأَقامت أَوَدَ الدين معونتُه الغالبة ونصرتُه ؛ والصلاة على محمّد

نبيّه صلاةً تكتنفه بها ذاتُه الطاهرة وآلُه وعترتُه، وعليهم أجمعين من السلام الطيب ما ينعمهم نعيمُه ونضرتُه؛ والرضا عن الامام المعصوم، المهديّ المعلوم، الذي تهلّلت به قسمات الدين وأسرتُه، وانفرجت بهدايته أزمات الامر وعسرتُه. وكتابُنا إليكم - كتب الله لكم أسعد الاعمار عاقبةً وتماما، وأقرب الاقدار اتّصالاً بمنازل الابرار وإلماما، وأعْوَدَ الاقطار بجوامع الاختيار ربطاً لها ونظاما - من حضرة مرّاكش - حرسها الله - ونحن نسأل الله عوناً على ذكر أياديه التي لا يحصرها حاصر، ونعَمه التي كلُّ لسان في وصفها قاصر، ونستنصره على القيام بحقوقها فهو وليٌّ وناصر؛ ونقبل بولاء الايمان وإخلاصه على كلّ من أَقبل وأَخلص، ونُبادر بكرم الاجابة إلى كلّ من جنح نحونا وحرص؛ ونَصل في ذات الله كلَّ وليّ وصل ووالى، وتتلقّاه من قبولنا بما يستمرُّ نماؤُه ويتوالى. وما غرضُنا - والله يوفّقكم - إلّا خيرٌ بجميع المسلمين شامل، ورشدٌ لا يخيب عن أَمله آمل، وصفاءٌ للمصافي آخذٌ بآداب الله عامل.

وقد تواردَتْ علينا كُتُبُ الطّلَبة الذين بالاندلس - وفّقهم الله - يعلموننا بما أَنتم عليه لهذا الامر - كرَّمه الله - من الميل والنزوح، وبما بينكم وبينهم من الاتّصال الصريح، والتعاون في ذات الله القائم على الولاء الصحيح؛ وذكروا من تحقُّقهم لمحبّتكم وصفائكم، واختبارهم لصدق عهدكم ووفائكم، ما عقده الرأي الموفق وسدّده، وأوصله التحقيق موصله وأشدّه. ثمّ وصل الشيخ أبو فلان فشافهَ من ذلك بأغراض جميلة مستحسنة، وآراء

ظاهرة في الصلاح بيّنة ، ووصف جانبكم الاثير ، في إرادة الخير ، بأَوصاف مُفصحة بكرمه مُعلنة . فتلقَّينا ذلك كلَّه تلقّي الرضا والاستحسان ، واستقربنا غاية عهدكم بما استقربناه من ذلك العنوان ، وسرَرْنا أَن تكونَ لهذه الطائفة العـزيزة من أَخلص الاخوة في ذات الله والاخوان .

وهذا الامر ـ وفَّقكم الله ـ هو أَمر المهديّ ـ رضي الله عنه ـ حقٌّ فتأَمُّل ، ومع معالمه الجلاء فلا ظنٌّ ولا تخيُّل ؛ والمهديُّ ـ رضي الله عنه ـ قد بشَّر به النبيُّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ في غير ما حديث ، وظهرت علاماتُه وآياتُه في قديم مزامره وحديث ؛ ودلَّ على اسمه وزمانه ، وفعله ومكانه ، بأَدلّة رفعت الاشكال والتعسُّف ؛ فأَتى ـ رضي الله عنه ـ كما نعت النبيُّ ـ عليه السلام ـ ووصف ؛ وقال ـ صلّى الله عليه وسلَّم ـ فيه وفي طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الاشاعة والاذاعة ، وقضى بوجوب الايتمار والايتمام والطاعة ، وأَخبر في جملة ما أَخبر به عنهم أَنَّهم يقاتلون على الحقّ إلى قيام الساعة . والامر في ذلك كلّه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بيان ، ولا يفتقر إلى إقامة برهان ، فهو معلوم كما أَنبأَ به الخبر الصحيح في العرب والعجم والبدو والحضر في كلّ ديوان وإوان . وقد تبيَّن الصبح لذي عينَين ، وجدع الحقُّ أَنف الكذب والمَيْن ، وجلت الهداية ضدَّ الضلال والرَّيْن .

وأَنتم ـ وفَّقكم الله ـ أَولى من شدَّ على هذا الامر ـ كرَّمه الله ـ يد المتمسّك ، وأَحلَّ نفسه بحبوحة هذا المنسك ، وأَقام دينه على هذه

القاعدة التي هي نجاة المؤمن ومهواة المشرك. والذي لكم عندنا ـ وفّقكم الله ـ من إرادة الخير واعتقاده، وإسعاف أملكم فيه وإسعاده، ما تميل إليه الافئدة، وتجنح نحوه النفوس المسترشدة. فاعلموا ذلك علم اليقين، واعقدوا عليه عقد المغتبط الضنين. وإنّما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكّن، ويتخلّل جذله جوانحكم تخلّل المبالغ الممعن، ما خصّ الله به مَسُّوفة ـ أكرمهم الله ـ الذين هم من قبيلتكم وفصيلتكم، فإنّ حبّهم ثبت لهذا الامر على تحقّقه وتثبّته، وقام ودُّهم له في مواطن الصفاء وقبلته، وهاجروا اليه وهجروا سواه، وكانوا إلفاً على من أراده بسوء ونواه؛ وظهر ولاؤهم ظهوراً أغنى عن وصفه اشتهارُه، وصفا أديمه فاتّضح نهارُه؛ واشتمل عليهم منه بفضل الله أكرم مشتَمل، وعاد عليهم بكل متمنًّى ومتأمَّل.

وكذلك الشيخ أبو زكرياء يحيي بن إسحاق بن إبراهيم ـ أعزّه الله ـ وبنوه وقرابته ـ رعاهم الله ـ قد تمكّنوا من محبّته في أعلى الرُّتَب؛ واعتقدوه لما وجدوه كما قصدوه غاية المطلَب؛ فاتّسعت لهم ولسواهم من أعيان القبائل المذكورين كافّةً أكنافُه، واستقرّ بهم إلى منازل البرّ والترفيع استدناؤُه واستعطافُه، فهو آلِفُهُمْ بفضل الله عليهم وهم أُلّافُه. وإنّ كُتُبَ جماعتهم لترِدُ من صحرائهم، وتقرّر ما لديهم، من حسن أغراضهم وسداد آرائهم.

ومثلكم ـ وفّقكم الله ـ اقتطع لنفسه من هذه الحظوظ المباركة بأوفاها،

وأَخذها عن أَحفل وجوهها وأَحفاها ، فَدَنا ببركتها وقرب زُلفاها . جعلنا الله وإيّاكم ممّن نوّرت الحكمة قلبه بنورها ، وملأت المحبّة جوانحه ببشراها وسرورها ، وأَتته آمال الصلاح بمنقادها وميسورها ، بمنّ الله وعونه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتب في التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وأَربعين وخمسمائة .

الرسالة الخامسة

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ إلى الطَّلَبة الذين بسَبْتة ـ وفّقهم الله وأَدام كرامتهم بتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمّا بعد حمد الله فاتح الفتوح ، وواهب الخير الممنوح ؛ والصلاة على محمّد نبيّه الأمين النصيح ، وعلى آله وصحبه الآخذين بأَخذه المحض وقصده الصريح ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القاطع بأَمر الله آثار الكفرة من الاقطار المعمورة والمهامِه الفيح ؛ فإنّا كتبناهُ إليكم ـ كتب الله لكم في طاعته سعياً متقبّلا ، وجعل الصلاح متّبعاً لكم ومتقيّلا ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ ونحن نوالي بشكره سبحانه على ما يواليه سبحانه بأَمره المظيم من إظهارٍ دائم ، وعضدٍ بنصر أَوليائه قائم ، وإرداف حزب ظافر بحزب غانم .

وقد وُصّلنا ـ أَكرمكم الله ـ بمخاطبتكم الاثيرة . فوقفنا على ماسنى

الله تعالى لصاحبكم أبي محمّد عبد الله بن سليمان وأصحابه النافذين معه في القطائع ـ عمّرها الله ـ حين ركبوا ثبج البحر غزاةً في سبيل الله، مستمطرين من ماء الرحمة على متون تلك الأمواه. فكان من تسهيل الله لهم ما كان، وظهر صنعه الكريم لأوليائه وبان؛ واجتازوا بأهل مالَقة والمُنَكَّب فأظهروا لهم من أحوال الامتناع، والاستعداد للدفاع، ما أظهروا، وأبدوا سلاحهم مجاهدين وشمّروا. ثمّ استخاروا الله على قصد المَريّة فألفوها قد أخذت باشمار أولئك الاشقياء حذرها، وجمعت على دفع ما لا يدافع من أمر الله أمرها. فصبحها أولياء الله بكرّةٍ باكرتها بحتفها، وقطعَتْ دون المدافعة ما قطعته من سيوفها وأكفّها؛ والكفرة الذين بها يرون ما لم يستطيعوا من ضمّ شخاتيرهم وتحصيلها، وتفريقها من وسقها ومحمولها. فلما أظلّت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعةً برومهم، قارعةً لقلوبهم الخبيثة بهول صباحهم ذلك ويومهم، راموا التحصّن بالشخاتير المذكورة فملؤوها سلاحاً ورجالا، وتخيّلوا من ردّ أمر الله خيالاً فاسداً وضلالا. فبادر من بادر من الموحّدين ـ أعانهم الله ـ إلى الحبال التي وثقوا بها شخاتيرهم المذكورة في البرّ، واعتقدوا الاسناد اليه بها جُنّة من ذلك الامر؛ فقطعوها قطعاً بتّا، وفتّوا بصرمها عن البرّ أعضاد الكافرين فتّا. فلما عاين أعداء الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون شفار الموحّدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتنموا الفرار طمعاً في الابقاء على ذلك الذماء. فاقتفى الموحّدون بالقتل آثارَهم، ووصلوا

باللحاق المستأصل فرارَهم ؛ ودخلوا عليهم الباب آمنين ، وتخلَّلوا أَثناء القطر المذكور ـ أَعاده الله ـ لاستنفاذهم طالبين . فلما اخترقوا من أَقطاره ما اخترقوا ، وحرقوا من منشيئات الكافرين ما حرقوا ، استأْصلوا بالقتل كلّ ما أَدركوا منهم ولحقوا ، ورأَوا أَنّ وصولهم إلى المسجد الجامع هناك مدركُ ما ابتدروا واستبقوا . ثمَّ أَخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم ، والعود إلى مواضعهم واحتشُّوا على ما كان بالمرسى المذكور من الغُراب والشخاتير وحرقوا ما لم يمكنهم جلبُه ، ولا توجَّه لدَيْهم طلبُه ؛ وغنموا من تلك الآلات الحربيَّات ما أَتى الوصف على ذكره ، وأَحاط الاعلام بقدره . وعادوا بفضل الله ظافرين بأَربح تجارة ، ظاهرين بأَوضح علامة للنصر وإمارة . فالحمد لله الذي أَيَّد وأَسعد ، ومهَّد لأَوليائه من أَكناف أَعدائه ما مهَّد .

ووقَفْنا على سائر ما ذكرتموه وأَعلمتم به من سؤَال ذلك الوعد ، والخروج به عن سبيل القصد ، إلى غير ذلك مما يتبيّن من ذلك المضمر الفاسد والعقد ، والله كفيل بقهر من خادع ، وقاطع .

ووقَفْنا على ما ذكرتموه من وصول ابن مِقدام إلى ما ذكر لكم من التعاون معكم في تلك الغزوة المباركة فألفاكم بحمد الله قد فُزْتُمْ بربحها ، واختصصتُمْ بمنحها ، إلى سائر ما يشتمل عليه كتابُكم من الانباء ، الجامعة لفصول السراء . فاشكروا الله تعالى على ذلك شكراً يكون لفضله

مستزيدا ، وردّدوا ذكر آلائه ترديدا ، واستديموا ببركة المهديّ ـ رضي الله عنه ـ حظّاً من التوفيق سعيدا .

وأَمَّا ما ذكرتموه ـ أَكرمكم الله ـ من أَمر أُولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأَمثالها فلْتنظروا نظراً أَكيداً في قطعهم ، وردعهم ؛ ولا سبيل لاحَدٍ من خلق الله أَن يمدَّ أَحدا من تلك الاصناف بمادَّة حتى يتَّضح وجه ما ادَّعوه وتعرّفونا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه . وكلٌّ من أُخذ حاملًا إِليهم مادَّة ، فالسيف جزاؤُه ، والقتل من تلك العادة ، دواؤُه . فاعتمدوا ـ وفَّقكم الله ـ على ما ذكرناه ، واجتهدوا فيما أَمرناكم به قبل هذا وأَلزمناه ؛ وكونوا على قدم الاستعداد ؛ والمستعانُ الله . والسلام .

الرسالة السادسة

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إلى الشيخ أَبي فلان وجماعة المشيخة بقرطبة ـ حرسها الله وأَدام كرامتهم بتقواه . سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

أَمَّا بعد فإِنَّا نحمد إِليكم الله الذي يصل الفتوح لأَوليائه بفتوح ، ويلهم الراشدين من عباده إلى كلّ رأْي نجيح ، ويقرّب للمتقرّبين بالتوبة النصوح ، كلَّ آمٍ شاسعٍ ومأْمول نزوح ، ويشفي بدواء الاقالة ، من مرض

البطالة ، كلَّ كبِد ذات كبَد ، وقريحة ذات قروح ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً من علم وحدانيَّته على جلاء من آياته ووضوح ، واستنفذ جهده في شكر مآله من خير موهوب وفضل ممنوح ؛ ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى صلاةً يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح ؛ ونستنزل ببركتها على جنابه الانضر كلَّ سحاب سفوح ، وعلى آله الاكرمين وأَصحابه الظافرين من هداه بحظّ ربيح ، الجائلين في ميادين حقائقه ، وأَتباع طرائقه ، مدىً أَجلّ فسيح ؛ ونصل الرضوان المستدام ، على من وجب الله الاقتداء به والائتمام . الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأَمر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافّة المؤمنين خير نصيح ؛ والداعي إلى ما أَمر الله بالدعاء إليه على ما جبله عليه من صحَّة بالهداية وتصحيح .

وهذا كتابُنا اليكم ـ كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة ، وأدام لكم نصرة ما استقبلتموه ، ونصرة ما أَملتموه ، أَكرمَ إدامة ، وأَقام لكم في العالمين من شواهد الاخلاص أَبين إمارة وأَوضح علامة ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ وبفضله ـ جلَّت قدرتُه ـ ما استفاض ببركة هذا الامر المبارك من نور قدسيّ ، وخير معنويّ وحيّ ، وما قرَّبه بيمنه من أَمل قصيّ ، وليَّنه من شديد قسيّ ، وأَسمعه أَولياءَه من نبأ إنسيّ ، حتى انتشرَتْ في الآفاق مطارح أَشعَّته ، وابتدرَتْ عشائر الايمان ما ابتدرته من تعزُّزٍ بعزَّته الابديَّة ومنعته ، واستنار شرف

سنَّته الطاهرة وشرعته ، وأَقبل كلّ موفق إلى ما وفق له من فيئته إلى الله تعالى ورجعته ؛ واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم ، واعتصموا بما لا ينجي من دعوته الربَّانيَّة ويعصم ، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكصُ المتأَخّر والألدُّ الخصم .

وقد وافانا ـ أَدام الله كرامتكم ـ كتابُكم الاثير ؛ فكان عن عقيدتكم لساناً مبينا ، وأَخذ في وصف انقطاعكم إلى هذا الامر العظيم ، واعتلاقكم بجانبه الرحيم ، مأْخذاً سهلًا بيّنا ، ونبَّأَنا بما تطوَّقتموه من رفقته حين فرض التوفيق عليكم منها واجباً متعيّنا . وانتهت إلينا بيعتُكم التي ضمَّنتموها بما اشتملت عليه من عهودها ومواثيقها ، والتزامكم لما أَوجبه الله تعالى من شرائطها والقيام بحقوقها ؛ والله يمنُّ عليكم بتثبُّتها في مواطن الخلد وتحقيقها ، ويوجدكم بركة ما أَشمتموه من بروقها . وليس لكم ـ وفَّقكم الله ـ عن هذه الطائفة العزيزة إلَّا ما يطابق أَملكم من إسعاف وإجابة ، واحتلال قرار من لديها ومتابة ، وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإطلاء مطالبكم أَكرم إنابة ، ووصلة تربط لكم بفضل الله مَوَاتّ أُخُوَّة إيمانيَّة وقرابة ؛ فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنَّة شكراً تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة ، وتستدعون ببركة الله ولاء هذه العصابة ، التي جعلها الله من خير أُمَّة أُخرجَتْ للناس خيرَ عصابة .

واستقبلوا ـ أَكرمكم الله ـ بالاعمال البرَّة عمراً جديدا ، وأَحيوا أَنفسكم بنور الحكمة إحياءً سعيدا ، وعضُّوا على طاعة الله ورسوله ومهديّه

بالنواجد عضًّا مسكياً لاباحتها مفيدا ، واشهدوا الله تعالى على التزامها ، والدخول تحت إحكامها ، وكفى بالله شهيدا ؛ واسأَلوا الله أن يطهركم بالثلج والبرد والماء البارد سؤَالاً مستكثراً من رحمته مستزيدا . واستبشروا فقد نفحَتْكم البشرى بعاطر نفحها ، وتلقَّتكم الكرامة بريحانها وروحها ، وأَجلتكم الامنة أَجوان كثبانها ودوحها ؛ واستمسكوا بأَمر المهديّ - رضي الله عنه - فهو سبب النجاة والخلاص ، والمأْمَن من نوائب الانتكاس والانتقاص ، والموعود بالظهور والاستيلاء والانتقام من عداته والاقتصاص ؛ هو أَمر الله الذي أَتمّه صدقاً وعدْلا ، هو ستره الذي أَصفاه على أَوليائه ستراً وسدْلا ، هو رحمته التي شملت المؤمنين فكانت لهم أَهلا ، وكانوا لها أَهلا ، وبه إِن شاء الله تأْمنون من كلّ ما خامركم نبل روعه ، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه ، وتجدون عمّا قريب في أَنفسكم وأَهليكم وأَموالكم ما يظهر لكم بركته ونفعه ، والنظر بعون الله يكنف تلك الاقطار وينتظمها حتى تبلّ أَرحامُها ، ويؤمن حرمُها ، ويكون على سواء السبيل أَمَمُها ، وينتحي الجادّة طوائفُها وأُمَمُها .

وقد وفد لنا - أَكرمكم الله - أَصحابكم الشيوخ أَبو محمّد وأَبو الحسن وأَبو عبد الله - وفّقهم الله - فأَلفوا بهذه الحضرة - حرسها الله - عصا تسيارهم ، ونالوا من الزيارة المبرورة والبيعة الكريمة منتهى طلبهم واختيارهم ، وبلّغوا ما تحمّلوه من أَخبارهم . ونرجو انّ الله تعالى يعيد تلك الاحوال إلى أَفضل عوائده من الصنع الكريم ، ويسقيها ما ينعمها

به من ماء النعيم ، ويوجدها من لطائف الرحمة ما كان قبل هذا الامر المبارك في حكم المعدوم ، بمنّه . والسلام .

كُتب في الثاني من صفر عام أَربعة وأَربعين وخمسمائة .

الرسالة السابعة

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ إلى الشيوخ والاعيان وجميع من بقسنطينة ـ وفّقهم الله لما يرضاه ، وتولّى بهم سبيل هداه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

وبعد حمد الله الذي أَيَّد بنصره المؤمنين ، وفتح لأوليائه الفتح المبين ، وجعل لهذا الامر المبارك التبشير والتيسير والتأْمين ؛ والصلاة على محمّد نبيّه الذي اختاره لابلاغ رسالته ، وحمل أَمانته ، فكان القويّ الامين ، وقرن به من آله الطاهرين وأَصحابه الطيّبين الغرّ الميامين ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأَمر الله تعالى مقيماً دينه المتين ، موضحاً من آيات ربّه ، في قطع الباطل وجبّه ، ما أَراد به الايضاح والتبيين . وهذا كتابُنا إليكم ـ كتبكم الله ممّن نوّر قلبه بنور الايمان ، وكرّه إليه ما يكرهه من الكفر والعصيان ، وقضى له بالخاتمة الحسنة ، في تيسير السلامة والامنة ، والانقياد والاذعان ـ من حضرة بجاية ـ حرسها

الله ـ وبحبل الله نتمسَّك ونعتصم ، وإلى مرضاته نقصد ما نقصد ونيّمم ما نيّمم ، وهو المستعان على أداء ما يتعيَّن من واجباته ويلزم .

ولما قضى الله سبحانه في فتح هذه البلاد المشرقيَّة بخير قضائه ، وأجرى لهذه الطائفة المباركة في الاظهار والايثار معهود اختياره وارتضائه ، وبسط لهذا الامر العزيز في أكناف هذه الانحاء والاذراء بساط غلبته واستيلائه ، وأصار من كان فيها من الجبابرة ، والطغاة والكفرة ، إلى غايات إبعاده وإقصائه ، وغيابات إعدامه وإفنائه ؛ فأراهم انَّ الاعراض عن إجابة دعائه ، والاعتراض عن محكمات سوَر الحقّ وآيه ، والانتهاض إلى إطفاء نوره وضيائه ، ممحقةٌ لا تبقي ولا تذر ، وبطشةٌ لا تُمهل ولا تؤخّر ، ونقمةٌ تحرق بصواعقها من يتحرَّق في سبيل الغواية ويستعر ، رأينا أن نخاطبكم ـ أرشدكم الله ـ داعين إلى الله ورسوله ، بما أوجبه سبحانه من الدعاء إلى سبيله ، والتحريض على اعتماد الحقّ وقبوله ، والتحذير من التوقُّف في مواقف إغواء الشيطان وتضليله ؛ وكما أوجب ـ جلَّتْ قدرتُه ـ على الداعي بدعوته العالية ما أوجب ، وأندب أن ينادي إليه كلُّ من عسى أن ينادي ويندب ؛ فكذلك أمَرَ المدعوَّ بالاجابة والانابة ، وخصَّه من القبول والبدار الجميل على إتيان باب الاحسان والاصابة ، وحذَّره من إمهال الامتثال ، وإهمال الاقبال ، ما يعدل به عن قرار الامن والمثابة .

فبادِرُوا ـ وفَّقكم الله ـ إلى إجابة منادي الحقّ وداعيه ، واسْعوا إلى الخير بأعماله المزلفة ومساعيه ، وسارِعوا بالتوبة النصوح تسارُع الراغب

بدينه المقبل إلى ما يعنيه ، الصارف نفسه عن ما كانت تكسب من الاثم وتجنيه . واعلموا أنّ الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الامر العزيز في محلّ قيامه ، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه ، وهجر الاوطان والقطّان لطلب الرضوان به واغتنامه . فكيف به وقد أظلّتكم في عقر دياركم رايتُه ، وتجلّتْ بين أظهركم آيتُه ، وتأكّدتْ في الوجوب عليكم واللزوم لكم وَلايتُه وَوِلايتُه . واستغفروا الله إنّه كان غفّارا ، وتوبوا إلى الله توبةً تُظهر تعويلكم عليه إظهارا ، واحذروا ثمّ احذروا تمادياً على الخطيئات وإصرارا ، واحرصوا على ما ينجيكم وقوى أنفسكم وأهليكم نارا . وكونوا ـ أرشدكم الله ـ ممّن سار على الواضحة أحسن سيره ، وسارع إلى نعيم هذا الامر وخيره ، واذكروا ما حاق بالمتوقّف عنه من سوء مآله وصيره ، واتّعظوا بغيركم فالسعيد من وعظ بغيره .

وقد علم من علم ما منّ الله به من فتح هذه الاقطار ، أنّ من كان بها من زعماء الخسار والبوار ، ورؤساء الاستعلاء الجاهليّ والاستكبار ، إنّما حقّتْ عليه كلمة العذاب والدمار ، بعد تقديم الانذار إليهم والاعذار ، والتربّص عليهم أمداً طويلًا رجاء الاستبصار . فلمّا أبوا ما دُعوا إليه من الحقّ ، واغترّوا بما عاينوه من اللطف والرفق ، واختاروا لأنفسهم الامّارة بالسوء ما اختاروه من المروق عن دين الله والفسق ، أحلّ الله بهم من ضروب الانتقام ما صيّرهم عبرةً لمن يعتبر ، ومزدجراً لمن يزدجر ، وآيةً كبرى يتأمّلها من يتأمّل ويبصرها من يبصر . وتلك سنّة الله

فيمن صدف عن آياته ، وانصرف عقب سيّئاته ، وتصرّف في زوايا ضلالاته وغواياته ، وتوقّف عن أن يستمدّ من موادّ هذا الامر السعيد الممدود مادّة حياته . وإنّ لله من تخصيص من يخصّصه بإرشاده ، ويخلّصه لاسعاده ، سرًّا يبديه فيمن شاء من عباده ، ويظهره فيمن يؤثره بحسن طويّته وصفاء ضميره واعتقاده .

وقد كان الشيخ القائد أبو محمّد ميمون بن عليّ بن حمدون ـ أكرمه الله ـ في هذه البلاد المفتتحة على ما عرفتموه ، وألفيتموه . وكان الحديث عنه خيراً يُذكر ، وجنوحاً إلى هذا الامر المبارك يتكتّم به ويتستّر . وكان أكثر الواردين على هذه الحضرة والصادرين عنها من صنف الطّلَبة وغيرهم من التجار ، المتصرّفين في هذه الاقطار ، يَصِفونه بهذه الصفات الحميدة ، ويرْوَون عنه آثار هذه الطويّة الصالحة والعقيدة ، وتستفيض أخبارهم فيما لديه من الارادة الحسنة والنصيحة الاكيدة ، إلى أن يسّر الله وبشّر له حسناه بالانتظام في هذا السلك النظيم ، والاعتصام بهذا الامر العظيم . فصار بفضل الله عليه من أشياعه وأوليائه ، وحملة أياديه وآلائه . وها هو الآن وأخوه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمّد بن عليّ بن حمدون وسائر من بنيهم وإخوتهم وقرابتهم ـ وفّق الله جميعهم ـ يتفيّؤون إلى ظلاله الممدودة ، ويتصرّفون بأعماله السعيدة ، ويَرِدون ما يأملونه من زُلاله في حياضه المورودة . وذلك من فضل الله على من أهّله له ، وإحسانه على من أمّ إحسانه وأمّله .

وأَنتم ــ وفّقكم الله ــ مدعون إلى الله سبحانه فلبُّوا ، ومَعْنِيٌّ بإيقاظكم من نوم الغفلة فهبُّوا ، ومحبوبٌ لكم الخير فأَحِبُّوا . ولن تعدموا إن شاء الله بالمسارعة الحسنة ، والتوبة المتمكّنة ، أَماناً يشملكم ، وصلاحاً يستقبلكم ، وكرامةً تحلُّكم في محالّها وتنزلكم . والله ييسّركم لما يزلف غدَه ، ويعرّفكم هُداه ورشدَه ، بمنّه . ولتعلموا ــ وفّقكم الله وسلك بكم سبيل هداه ــ أَنَّ قصد هذا الامر الكريم ، في الخصوص والعموم ، إظهارُ دين الله تعالى على ما أَوجب وفرض ، وجهادُ من نكب عن سبيله وأَعرض ، وقطعُ آثار الظلمة كثيرها وقليلها ، وإجراءُ الامور كلّها على منهجها الشرعيّ وسبيلها .

وقد كان بهذه الاصقاع ، من آثار أَهل الاختلاق والابتداع ، ما علمتموه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الانواع . وكان الاشقياءُ من ولاتها يرون إيجابها وإلزامها شرعاً يلتزمونه ، وواجباً يقدّمونه ؛ ولا يلتفتون إلى ما أَوجب الله من الزكوات والاعشار ، بل كانوا يطّرحون ذلك اطّراح أَمثالهم من الفجّار . وقد قطع الله بفضله أُصولهم وفروعهم ، وأَزاح عن عباده جوهرهم ونزوعهم ؛ ورُدَّ الامرُ إلى أَصله الاكرم ونصابه ، وأُجري الشرعُ بالامام المهديّ ــ رضي الله عنه ــ على بابه ؛ وأَراح جميع أَهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم ، ويعرفونه من أَسباب المظالم . ولما منَّ الله على أَهل البلد بما منَّ به من التسليم والتأْمين ، وأَحلَّهم بفضله ورحمته كنف هذا الامر المكين

الامين ، انقطعت عنهم أَسباب الظلم بانقطاع أَهلِه ، وسُدَّت عنهم أَبوابُ الباطل كثره وقلّه . فلا يُطلبون إلّا بما توجبه السنَّة وتطلبُه ، ولا يُلزمون – ومعاذ الله – مكساً ولا مغرماً ولا قبالة ولا سيَّما ممَّا تسمّيه الظلمة بأَسمائها وتلقّبُه . ولكم في علم ذلك ومعرفته دليلٌ على ما سواه ، والله يهدي بهداه من اختاره وارتضاه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتب في الرابع والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع وأَربعين وخمسمائة .

الرسالة الثامنة

وهي من إنشاء الكاتب أَبي عَقِيل عطيَّة بن عطيَّة في فتح قسنطينة وإنابة يحيى بن العزيز صاحب بجاية إلى التوحيد :

من أَمير المؤمنين – أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته – إلى الطَّلَبة الذين بتلمسان وجميع من فيها من الموحّدين – أَدام الله كرامتهم بتقواه – سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فالحمد لله الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء على العموم والاطلاق ، وجمعت عصمتُه أَهل الاجتماع على طاعته والاتّفاق ، وتمَّت نعمته تماماً على أَبلغ وجوه الانتظام والاتّساق ؛ والصلاة على محمَّد نبيّه المبتعث لتتميم مكارم الاخلاق ، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازرين أُولي البواء إلى

مرضاته والاستباق ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، عَلَم الاعلام ، وذخيرة الايمان والاسلام ، وبدر الكمال والتمام ، الطالع بأَشرف مطالع الاشراق ، الفارع عند تطاول الرؤوس والاعناق ، الجامع أَشتات الفضل وأَجناسه على الاستيفاء والاستغراق .

وهذا كتابُنا إليكم ـ كتب الله لكم فيما خوَّلكم النماء والزيادة ، ومكّن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الانالة والافادة ، وبسط في أَرجائكم ومتعلَّقات رجائكم اليمن والسعادة ـ من حضرة بجاية ـ حرسها الله ـ عن أَحوال ترتَّب صلاحُها على أَفضل وجوده ، وفتوح تتابع افتتاحُها في قريب المعمور وبعيده ، وبشائر ينزّه بشرُها وسماحُها عن الجري على معتاد الدأْب المأْلوف ومعهوده ، وآيات بيّنات أَغنى تجلّيها واتّضاحُها عن كلّ برهان ووجوده ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها في المستولية محصى العادة ومعدوده . نسأَل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر ، وعمي الابصار والبصائر ، تعظيم ما نشاهد ونعاين عوناً يعين وينهض ، وعملاً يتخلَّص بشكر آلائه الباهرة ويمحض ، وقوَّة لا تنتكث بالعجز عن أَداء حقوقه ولا تنتقض .

وقد تقدَّم إعلامكم ـ وصل الله سروركم ، وضاعف شكوركم ـ بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسّر مرامُها بحوله واقتداره ، ونوّر ظلامُها بأَضواء هذا الامر السعيد وأَنواره ، وصيّر أَباطحها وآكامها من مواطئ أَوليائه وأَنصاره ؛ وكيف كانت صورةُ الحال في درجها ،

وتصرّف الانتقال من محصّبها إلى عرجها ، وأَنّ أَبا زكرياء يحيي بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر وجميع إخوته وقرابته وخووله حين أَتاهم الذائد الذي لا يكذّب أَهلَه ، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهْلَه ؛ لم يكن لهم بدٌّ عن التولّي عن قرارهم ، والتخلّي عن أَوطانهم وأَقطارهم ؛ لأمرٍ قضى الله فيه لهذا الامر المبارك بخير قضائه ، وشأْنٍ طوى الخيرة درجَ تضمُّنه واقتضائه ، فكان مأَمُّهم الذي اعتقدوا منعته وحصانته ، واعتمدوا ثقته عليهم وأَمانته ، بلد قسنطينة ـ عمَّره الله ـ لكونه بحيث لا يُنال بقدرة مخلوق ، وأَين يستعلي بامتناعه على كلّ ملحوظ بعين المحاربة أَو مرموق . وكانت جملٌ من عساكر الموحّدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه ، واعتدادهم في عداد من يحويه ويؤويه ، بجهة القَلْعة ـ حرسها الله ـ على أَثر فتحها الميسَّر ، ونيل أَجرها على الوجه المتخيَّر ، فأُنهض منهم بعون الله إلى تلك الجهة من رُجي الخير في إنهاضه ، وحُضَّ على خدمة هذا الامر وإعراضه . فحين أَلمَّ الناهضون المذكورون ـ وفَّقهم الله ـ بجهات قسنطينة ـ حرسها الله ـ فُتح لهم الفتح الذي تقدّم إليكم بيانُ القول فيه وإعرابُه ، وأُورد عليكم إبداع القدر في تقريبه وإغرابُه ، وعلمتم كيف انهزمت له جموعُ الضلال وأَحزابُه ؛ وحلَّ الموحّدون هناك ـ وفَّقهم الله ـ بساحة ذلك القطر وذراه ، وغشيه منهم ما غشيه وغراه ، وما ترك القطا به ان يقطم كراه .

وكان التخييم الملاصق ، والتدويم المراهق ؛ والحقُّ يتجلّى ، والنصر

يتولّى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولّى ، إلى أن صرف الله ألباب القوم المذكورين إلى قبلة الاصابة ، وأراهم أنّ النجاة في جانب هذه العصابة ، والحياة في قرارها الذي هو مقرّ قرار اليمن والمثابة ؛ فاتّفق رأيهم على إنفاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صنهاجة وقسنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى ، مستسلمين للأمر الذي لا يقابل بعناد ولا يلقى ، سائلين من التأمين والابقاء ما يدوم خيره للمحقّ السائل ويبقى . ووصلت الجماعة المذكورة إلى هذه الحضرة المحروسة ، يسعى أملها بين يديها ، ويعرف القصد عمّا لديها ، وأنهت ما تحمّلته من المخاطبة ، وأمّته لها ولمن وراءها من حسن العاقبة ، فمنّ الله على جميعهم بتيسير مطلبهم ، وإجمال منقلبهم ؛ وصدروا إلى مرسلهم تتهلّل أسرّتهم ، وتتحمّل بحلل العافية والنعمة الصافية كرّتهم . فأتوا قومهم على تطلّع إلى بشراهم ، وتمتّع بطيب ذكراهم ، وأعلموهم بالصنع الذي عرّفهم تعظيم صنع الله وأدراهم . فرأوا أجمعين أنّ الله سبحانه سنّى لهم بفضله غاية ما طلبوه ، ورزقهم من حيث لم يحتسبوه ؛ ووهبهم من إيواء الفضل وقبوله فوق ما استوهبوا ، حين لم يكن لهم منجأ إلّا الذي نُزحوا عنه وغُرّبوا . وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقّن الامر وتحقّقه ، وتعرّف سنّة هذا الامر المبارك وعظيم خلقه ؛ وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل الله ورحمته الواسعة ، مستظلّين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة . ودخل القطر من أمناء الموحّدين وغزاتهم ـ وفّقهم الله ـ من أمر بعمارته ، والاستقرار

في قرارته . واستقبل أَبو زكرياء المذكور ومن معه ـ وفَّقهم الله ـ هذه الجهة ـ حرسها الله ـ على أَحسن حال ، وأَكرم إقبال .

وأتمَّ الله نعمته بهذا الفتح المحيط ، والصنع المبسوط ، إتماماً بلَّغ الآمِل غاية مأْموله ، والسائل كافّة مسؤوله . فذلك القطر هو الطرف الاعلى ، والرابط الاحقُّ الاولى ، ورأْس الجسد الذي استتبع بعضه بعضاً واستتلى ؛ وبه انعقدت روابط هذا الاقليم العظيم وقواعدُه ، وفقدت ضرر من كان ينوي الضرر فواقدُه ، ومعه متأَتَّى جمع شمله وضُمّه ، وإمساك شأْنه كلّه وعزمُه ، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمُه . والله نسأَله بشكر هذه النعم المتظاهرة عوناً ممدودا ، وحولاً بمعاقد المعونة الرَّبَّانيَّة معقودا ، وقوَّة تلقي من حمدها إلى كلّ جديد منها جديدا ؛ بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

وكُتب في العاشر من شعبان سنة سبع وأَربعين وخمسمائة .

الرسالة التاسعة

وهي من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إلى الشيخ أَبي محمَّد وَنسنار ، وجماعة أَصحابه الطَّلَبة والمشيخة والاعيان والكافَّة من أَهل مرَّاكش ـ أَكرمهم الله بتقواه ، وأَعانهم على شكر نعماه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أمّا بعدُ فالحمد لله الذي تكفّل بوعده الصادق إتمامُه وإنجازُه، وتحصّل لحزبه الآخر السابق إعلاؤُه وإعزازُه، وتقلقل في عدوّه الفاسق المارق قهرُه وإعجازُه؛ والصلاة على محمّد نبيّه الامين، الذي أُظهر على حقّه المبين، إظهارُه وإبرازُه، والتفّت على أَمره المكين، صُدور العلاء وأَعجازُه، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، الذي تجلّى بهم تعيُّنُ الاسلام وامتيازُه؛ والرضوان المستدام عن الامام المعصوم، المهديّ المعلوم، مُوضح سبيل الرشاد حين عمَّ استغواءُ الشيطان واستفزازُه، ومُنجح أَسباب الارتياد إذ تيسّر اغتنام المطلوب وانتهازُه.

وهذا كتابُنا إليكم ــ كتبكم الله من عباده الشاكرين في الرعيل الاوّل، وعرّفكم عوارف الصنع المنيف بكم على المحبوب المؤمَّل، ولا أَعدمكم بوصل الاستيلاء، وإدامة الاظهار والاعلاء، عزّةً حاملة على سنامها المذلَّل، شاملة بغمامها المضلّل، عاملة على تمامها المكمَّل ــ من حضرة تلمسان ــ حرسها الله ــ وقد تعالى فتح الله أَن تحيط به الاقوال، وتجاوز ما تطمح نحوه الآمال، ويتناهى إليه الطلب والسؤال، وعلى الرويّة والمروّى فما البديهة والارتجال، وانتشر على البلاغة والادراك فلا التقسيم ولا الحصر ولا التفصيل ولا الاجمال، ومع اعتماد التحقيق، وارتياد التصديق، فما الامر ممّا يدرك بنعت ولا ينال.

وقد تقدّم إليكم ــ وفّقكم الله وأَعانكم على شكر ما آتاه ــ من ذكر ما تحمَّلَته الاشارة والالماع؛ ولهذا الكتاب التالي، الذي من شأْنه برزت

الايّام والليالي ، نُبَذٌ قرَّرها الاصفاق والاجماع ، وبِشَرٌ انتهت عند أَوَّلها الاماني والاطماع . فقد كان صنع الله في افتتاح هذه البلاد الشرقيَّة على ما تقدَّم ذكره من التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع ، وإراحة النفوس بإزاحة القواطع والموانع ؛ وهذا الامر العظيم في درجاتها يستعلي ، وعلى غاياتها ونهاياتها يستولي ؛ وببركات باسطة في الوجود ، وحائطة على الرسوم الشرعيَّة والحدود ، يستتبع نواشئ النماء المزيد ويستتلي ؛ حتى جمعها بجوامع القهر ، وأَنطق فيها لسان الايمان إنطاق الاعلان والجهر ، وصيَّر غرائب التفسير فيها آيات بيّنات على باقيات الدهر ؛ ومن يرتضع أَشطرها من الاعراب ، ويودع أَعمرها دواعي الجلاء والخراب ، قد قذفتهم الغلبة حينئذٍ إلى صحرائها ، ونبذتهم الروعة بعرائها ، وحدَّثتهم حال الكرَّة المهديَّة عن كماتها وضرائها ، فصاروا بين تدافُع الحيرة والتيه ، وتراجُع التخييل والتمويه ، مظهرين الانابة إلى المتاب ، متكرّرين في أَكثر الاحيان على مراتب الشكّ والارتياب . وعساكر الموحّدين المتقدَّمة إلى فتح القلعة وقسنطينة ـ حرسها الله ـ مخيّمون على إشعال تلك الجهات بإزائهم ، حريصون على غزوهم في عقر مواقفهم ومراقب انتزائهم ، راغبون في الاذن لهم بسؤولهم ، ناظرون إلى منشأآت خيال الضالّين وتخييلهم . وهم ـ آخذهم الله ـ في خلال ذلك يوالون المراسلة على معنى المخادعة ، ويخافون عقبي المصارمة والمقاطعة ، ويتردّدون في التقدُّم والتأَخُّر مع الانقياد والمنازعة ؛ واضطرابُهم في أَحوالهم تلك

مستوضح ، وارتيابُهم مع ظهور الجلاء ممقوت مستقبح ؛ والامن مع ذلك يتفقّد الموحّدين المذكورين بالتأكيد عليهم في الاضراب عنهم وإن سفهوا ، والالباب على تنبيههم لينتبهوا . ورسائلُهم ورُسُلُهم أَثناءَ ذلك تقابل عندنا ؛ فعادةُ هذا الامر العزيز هي الاحتمال والاجمال ، والرفق بالجهّال ، ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والاسهال ليشملهم التوبة بحسناها ، وتقابلهم الرحمة بأَكرم وجوهها وأَسناها ، وتتناولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها ؛ إذ لا مراد من أَهل الدنيا إلّا توبةٌ يصدّقونها ، وعقيدةٌ بالايمان يحقّقونها ، ويدٌ بالطاعة يمدُّونها إلى الشريعة ويلقونها .

فلم يرد الله إلّا أَن يكون هؤلاء الاشقياء ممّن تقذفه الهلكة إلى سحيقها ، وتتقسّمه النقمة بأَيدي تبديدها وتمزيقها ، وتنصبه العبرة على منزوحة سبيلها وطريقها ، لأَنّهم كانوا خلال ما ذكرناه لكم من أَحوال استئلافهم ، والتصبُّر على حفاتهم وأَحلافهم ، وإمساك الموحّدين عن مقدورهم من تدميرهم وانتسافهم ؛ يخاطبون جميع من ببلاد إفريقية وما يتّصل بها إلى جهات الاسكندريّة من العَرَب المغمورين بغوامر الجهالة ، المغرورين بأَوامر الضلالة ، مخاطبة الاستصراخ والاستنجاد ، ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد ، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحّدين والاعتضاد .

فحين شاء الله أَن نحقّ عليهم كلمة العذاب ، ونشقّ إليهم مهامة ذلك اليباب ، عند العزم على هذه الحركة الميمونة لمعنى الانصراف والاياب ،

أَتت بالحائمين أَرجلهم ، وعجل إِليهم بالدمار تعجُّلهم ، وأَسرع بهم الويل لا يؤَخّرهم عن ميقاتهم ولا يؤَجّلهم . وأَقبل جميع من ذكرناه لكم من أَعراب تلك البلاد النازحة قبائل هِلال بن عامر من عرب اليَمَن ، وشعوب الحروب والفِتَن ، بقضّهم وقضيضهم ، عاملين على إِغواء إِخوانهم الضالّين وتحريضهم ، نافرين أَفواجاً بعد أَفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهم ، حتى التقى المصرخ والمستصرخ ، وقعد الشيطان على نحورهم أَجمعين يتبن وينفخ ، وأَلقى في قلوبهم المظلمة أَن يكون جيشهم الذي يدوّخ ، وأَراهم أَنَّ الجميع مروعٌ بهم روعاً لا يسكن ولا يفرخ ؛ وزيّن لهم سوء أَعمالهم والله يكتب ما يعملون ويستنسخ . فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد ، وكتائبهم تتماقد على الاعترام وتتعاقد ، وأَمدادهم التي غصّت لها تلك المشارع المعينة والموارد ، تتناصر على رايها الخاسرة وتتعاضد ، إلى أَن انتهوا ما لا ينتهيه العدُّ خيلًا ورجلا ، وعمّروا أَنجاد تلك الارض وأَغوارها وعراً وسهلا ؛ فما استطاعتهم حملا ، ولا وسعت أَن تكون لهم قراراً ولا أَن يكون لها أَهلا . والموحّدون الكائنون إذ ذاك هناك مقبلون على ما أُمروا به من ارتحالهم إلى العرب وانتقالهم ، والكفِّ عن معارضة أُولئك الخاسرين وقتالهم ؛ فزادتهم تلك الحال الظاهرة اغترارا ، واقتضت عندهم عفوكاً على الطغيان وإِصرارا . والاقدار تجرُّهم برسن الاهمال إِجرارا ، وتطوى في صدر الزمن مخبيئات من الامتحان وأَسرارا . فكلَّما رحل الموحّدون المذكورون إِلى مأَمّهم مرحلةً رحل الضالُّون على

أثرهم ، وعملوا على شاكلة تخيُّلهم الذميم وتصوُّرهم ، واعتقدوا مصاقبتهم في المحالّ ، وتمكُّنهم من ذلك السعي الضالّ ، قدرةً من قدرهم ، ونتيجةً من نتائج آرائهم ونظرهم ، بوادي الأقواس بجهات سطيف ـ عمّرها الله ـ ورأوا أنَّ الاشقياء المذكورين يلازمونهم ملازمة الظلّ ، ويرادفونهم على الترحال والحلّ ، وأنَّ الحال تقتضي مناجزتهم ومفاصلتهم ، وتوجب مقارعتهم على دين الله ومقاتلتهم . ولم يجدوا دواءً يشفي من دائهم العضال ، ويستوفي الاراحة منهم في تلك الحال ، إلّا العزم على جهادهم بعد الاعتماد على ربّهم والاتّكال ؛ فخاطبونا بعزمهم على ذلك ، وأعلموا بصورة أحوالهم هنالك ، وعرَّفوا بكونهم عند مخاطبتهم المذكورة ناظرين في غزوهم ، مجيلين في لقائهم بعون الله تعالى أعنَّة عَدْوهم .

فكان من التوفيق الممنوح ، والرأي السالك إلى السداد سبيل البيان والوضوح ، إنفاذُ جُمَل مباركة وأعداد مسدَّدة من عساكر الموحّدين ـ أعانهم الله ـ إلى الجهات المذكورة على وجه الاستظهار بحركتها ، والاستكثار من بركتها ؛ ونحن إذ ذاك بمَتّيجة ـ عمَّرها الله ـ على سبيل الصدَر ، وحالة المعلن المقدَّر . فبذل الموحّدون الناهضون إلى إخوانهم جدَّهم في السير ، ورجوا نيل حظوظهم من ذلك الخير ؛ فلحقوا بهم ـ أعان الله جميعهم ـ على المرغوب والمرجوّ ، وأطلُّوا على جنابهم إطلال الظهور والعلوّ ، وكان الاتّصال بفضل الله قبل مناجزة ذلك العدوّ . وألفوا آجالهم ـ أعانهم الله ـ على غاية من الاستشراء ،

ونهاية من الاسترسال على تلك الاذراء؛ واجتمعوا على بركة الله اجتماعاً أَحمدوا عاقبته ، وقصدوا ملاحظة أَمر الله تعالى ومراقبته ، ودارت بين الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ مواعظ التذكير والتذكُّر ، وتقرَّرت عزائمهم على نصر كلمة الله كلَّ التقرُّر ، وحسن المتاب ورُجي الثواب للامد المضروب والميقات المقدَّر ، وقصدوا أَعداءَهم بعد الاستعانة بالله والتوكُّل على نصره المؤزَّر ، عندما أشرقت شمس الضحى ، ونُصبت رحى الحرب فكانوا قطب الرحى ، وانتحى من نصر الله وفتحه القريب من حزبه المظفَّر ما انتحى .

ولحين ما عاين أَعداءُ الله قصد الموحّدين على مضاء الاعتزام ، وباشروا آثار الارتباط الايمانيّ والالتزام ، راموا لحِيلَ بينهم وبين المرام ، وتخيَّلوا الاقدام على ثبت الأقدام ، من مدارك أَمثالهم من الطغام ، وأَشكالهم من الاوباش اللئام ، فلم يُغْنِ عنهم عمل الاوهام ، من هول ذلك المقام ، وأَحدق نصر الله بأَوليائه إحداقاً جمعهم على أَقطاب الالتئام ، وأَودعهم خِلال البَرَرَة الكرام ؛ وكانت للكافرين دفعات جاهليَّة عادت بها عليهم عوائدُ الانتقام ، والتقمَتْهم الحرب الزبون عندها أَوحى الالتقام ؛ وكابد ذلك الهول الكُبار جميعُ فرسانهم وأَعيانهم ، ومن يدَّعي البطالة والحماسة من أُمرائهم وكُبَرائهم ، فالتقَتْ عليهم حلقتا البطان ، واستقبلَتْ بهم تلك الهزيمة الشنعاء جهات تلك المراحات والاعطان . فاختلطوا بمواشيهم اختلاط الانعام بالانعام ، وأُزعجت أَوساطهم إلى حواشيهم إزعاج الارهاق

والارغام ، وفُـرّقوا ـ ولا حول ولا قوّة إلّا بالله ـ تفريقاً بعد الاجتماع ونثراً بعد الانتظام ؛ وأَخذت المنايا تلتقطُهم ، فتنشرهم على الارض وتبسّطُهم ، و تُريهم أَنَّ الغواية توقع الغاويين وتورّطُهم .

واستمرَّ القتلُ فيهم والاتّباع لهم من أَوّل ذلك اليوم المبارك إلى آخره ، ولم يسِر الموحّدون فيه ـ على ما ذكروه ـ إلّا بين إبلٍ راتعة وسائمة ، وخدورٍ على عمدتها منصوبة قائمة ، وأَبقار وأَغنام لم تُحِط بها الابصار ، ولا قيَّدها في عيون الناظرين التناهي والانحصار ، وغير ذلك من أَنواع الأنفال ، وضروب المغانم التي لا تجري على حكم التمثيل ولا الامثال ، حيٌّ إلى جنب حيّ ، وشيءٌ متّصلٌ بشيء ، مسيرةَ أَربعين أَو خمسين من الاميال . فَبِأَعداء الله ما بهم من قَتْلٍ مُفْنٍ ، وانهزام مُبْعِد وحمام مُدْنٍ ، وانصرامٍ بكلّ صارم ماضٍ وانتظامٍ بكلّ ناقد لَدْن ؛ غشيَتْهم تلك الغواشي الغوامر ، فذلَّ لها المأمورُ منهم والآمِر ، وحاقَ الويْلُ بِهلال بن عامِر ، أَقلَّ الهلال وخرب العامِر . ولم يحلَّ بين سيوف الموحّدين ، ورقاب الفلّ من أُولئك المفسدين ، إلّا ليلٌ أَجنَّه بغَسَقه ، وطواه على أُخريَّات رَمَقه .

ثمَّ انقسمَتْ جيوش الموحّدين ـ وفَّرها الله ـ صبيحة اليوم الثاني إلى أَقسام أَخذ كلٌّ قسم منها سبيلاً غير سبيل غيره ، واستقبل ما يستقبله الطالب المجدُّ من قصد مرامه وإعداد سيره ؛ فمنهم من غاب عن المجتمع ، وجدَّ في ذلك الاتّباع والتتبُّع ، أَربعة أَيّام وأَكثر وأَقلّ كلٌّ يغزو ويغنم ، ويجول في تلك المهامه الفيح لا يَنِي ولا يتلوَّم ، حتَّى انتهوا

إلى أَوائل بلاد إفريقية وما يجاورها ، لا يرون لبقيَّة المارقين أثرا ، ولا يجدون محدّثاً عنهم ولا مخبرا . ثمَّ آبوا بفضل الله ورحمته ومعهم من الأنفال المضافة إلى ما تقدَّم ذكرُه ، والغنائم التي يتضاءل لها عدُّ كلّ عادٍ وحصرُه ، ما لا يعبر عنه بعبارة تحديد ، ولا يتوهَّم متوهّمٌ أَنَّ وراءه في الكثرة من مزيد . وأَخذ الموحّدون ـ أَعانهم الله ـ بعد اجتماعهم على مركزهم ، وظفرهم بمحبوبهم وبمنجزهم ، يضمّون من سبي الكافرين وغنائمهم وما أَوبقَتْه الحربُ من خيلهم وسلاحهم ما لا يستطيعه الضمّ ، ولا يتناوله الكثير الجمّ . ثمَّ أَخذوا في الحركة بما أُقدروا على سوقه من ذلك إلى هذه الجهات ـ حرسها الله ـ بعد أَن لم يتمكَّن لهم بوجهٍ من الوجوه عدّ ما تحمَّلوه ، ولا استولَتْ إحاطتهم على ما نقلوه . وهُم الآن ـ رعاهم الله ـ مقبلون بها على أَتمّ ما تتعلَّق به الآمال البالغة ، وتقتضيه الكرامة السابغة .

وأَعلَمْناكم بذلك ـ أَعزَّكم الله ـ ليعظم منالكم من هذا الفتح الذي طبَّق الآفاق حديثُه ، وملأ الابصار والاقطار منشورُه ومبثوثُه ؛ ولتشكروا الله عليه شكراً يستنفذ غاية استطاعتكم ، ويستنجد عزائم نشركم له وإذاعتكم . والحمدُ لله الذي عمَّنا وإيَّاكم ببركاته ، ونصب على حقيقة هذا الامر الحقّ إلَّا من أَدلَّة آياته ، وجعل العاقبة لأَولياء دينه المتين وولاته . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

وكُتب مستهلَّ ربيع الآخر سنة ثمان وأَربعين وخمسمائة .

الرسالة العاشرة

لعلّها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطيّة المذكور(١):

من أمير المؤمنين ـ أيّده الله بنصره، وأمدّه بمعونته ـ إلى الشيخ أبي عبد الله محمّد بن سَعْد ـ وفّقه الله، ويسّره لما يرضاه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه.

أمّا بعد فالحمدُ لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العونُ لأوليائه والاقدار، وإليه يرجع الامر كلُّه فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار؛ والصلاة على محمّد نبيّه الذي ابتعثتْ بمبعثه الأضواءُ والأنوار، وعمرتْ بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بحجّته الكفْرَ والكفّار؛ وعلى آله وصحبه الذين هم الكرامُ الأبرار، والمهاجرين والأنصار؛ والرضا عن الامام المعصوم، المهديّ المعلوم، القائم بأمر الله حين غيّرَتْه الأغيار، وتقدّم الامتعاض له والانتصار. وهذا كتابُنا إليكم ـ كتب الله لكم نظراً يريكم المنْهَج، ويُلفيكم الأبهَج فالأبهَج؛ وآتاكم الله من نعمة الايمان، وعصمة الانقياد له والاذعان، ما تجدون به اليقين والثلج ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله تعالى ـ ولا استظهار إلّا بقوّته وحَوْله، ولا استكثار إلّا من إحسانه وطَوْله.

ولما جعل الله هذا الامر العظيم رحمةً لخلقه، ومطيّةً لرقيه وقرارة

(١) راجع كتاب «صبح الاعشى» للقلقشندي (ط مصر) ج ٦ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥.

لاقامة حقّه ؛ وحمّل حَمَلته الدعاءَ إِلَيْه ، والدلالةَ به علَيْه ، والترغيبَ في عظيم ما عنده ونعيم ما لَدَيْه ؛ وجعل الانذار والاعذار من فصوله المستوعبة ، وأحكامه المرتّبة ، ومنجاته المخلّصة من الخطوب المهلكة والاحوال المُعْطِبة ؛ رأينا أَن نُخاطبكم بكتابنا هذا أَخْذاً بأَمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله ، وإقامة الحجّة في تبليغ القول وتوصيله . فأَجيبوا ــ رفعكم الله ــ داعي الله تَسْعَدوا ، وتمسّكوا بأمر المهديّ ــ رضي الله عنه ــ في اتّباع سبيله تهْتَدوا ؛ واصرفوا أَعنّة العناية إلى النظر في المآل ، والتفكُّر في نواشيء التغيُّر والزوال ، وتدبّروا جَرْيَ هذه الأُمور وتصرُّف هذه الاحوال ، واعلموا أَنّه لا عِزّة الا بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزّة والجلال ؛ ولا يَغُرَّنَّكم بالله الغَرور ، فالدنيا دار الغُرُور ، وسوق المِحَال . وليس لكم في قبول النصيحة ، وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة ، إلّا ما تحبُّونه في ذاتِ الله تعالى من الامنة والدّعة ، والكرامة المتّسعة ، والمكانة المرفّعة ، والتنعُّم بنعيم الراحة المتّصلة والنفس المتنعة . فنحنُ لا نريد لكم ولا لسائر من نرجو إنابته ، ونستدعي قبوله وإجابته ، إلّا الصلاح الاعمّ ، والنجاح الاتمّ .

وتأمّلوا ــ سدّدكم الله ــ مَنْ كان بتلك الجزيرة ــ حرسها الله ــ من أَعيانها ، وزعماء شانها ؛ هل تخلّص منهم إلى ما يودُّه ، وفاز بما يدّخره ويُعِدُّه ، إلّا من تمسّك بهذه العُرْوة الوُثْقى ، واستبق لنفسه من هذا

الخير الأدوم الابقى ، وتنعَّم بما لقي من هذا النعيم المُقيم ويلقى . وأمَّا من أَخلد إلى الارض واتَّبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا الامر العزيز إلى ما سواه ، فقد عُلم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوءُ منقلَبه ، وخسارة مذهبه ومطَّلبه ، وتنقَّل منه حادث الانتقام أَخسر ما تنقَّل به .

وحقٌّ عليكم ـ وفَّقكم الله ويسَّركم لما يرضاه ـ أَنْ تُحسنوا الاختيار ، وتصلوا الادّكار والاعتبار ، وتبتدروا الابتدار . وما حقٌّ من انقطع إلى هذا الامر الموصول الواصل ، وأَزمع ما يناله من خيره المَحُوز الحاصل ، أَن يناله منكم شاغلٌ يشغله عن مقصوده ، ويحيط به ما يصرفه عن محبوبه وموده ؛ فقد كان منكم في أَمر أَهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد ، وتعلُّقهم بهذا الامر السعيد ، ما كان . ثمَّ كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في أَمر أَهل لَورَقة ـ وفَّقهم الله ـ حين ظهر اختصاصهم ، وبان إخلاصهم ؛ وليس لذاك وأَمثاله عاقبةٌ تُحمد ، فالخير خير ما يُقصد ، والنجاة فيما يُنزح عن الشرّ ويُبعد . وإِنَّا لنرجو أَن يكفَّكم عن ذلك وأَشباهه إِن شاء الله تعالى نظرٌ موفَّق ، ومتاعٌ محقَّق ؛ ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذبٌ يُسعد ، وسائقٌ يُرشد . والله يمنُّ عليكم بما ينجّيكم ، ويمكّن لكم في طاعته أَسباب تأْميلكم وترجّيكم ؛ بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

وكُتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأَربعين وخمسمائة .

الرسالة الحادية عشرة

وهي عديمة الرأس لبترٍ وقع في المخطوط المنقول عنه ، ولعلَّها
من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور :

وهذا كتابُنا ـ كتب الله لكم ملءَ القلوب ، من الاضاءَة والتنوير ، وكفاءَ الظواهر والغيوب ، من التخليص والتطهير ، وأَعاذكم بعصمته من تقلُّبات التبديل والتغيير ، ونجَّاكم برحمته من موبقات التفكير والتقدير ـ من حضرة مرَّاكش ـ حرسها الله ـ ونحن نشكره سبحانه على ما وطَّأَ أَمره العزيز ومكَّنه ، وأَضعف به كيد الشيطان وأَوهنه ، ومهَّد بإِثارته هذا القرار الامين وأَمَّنه ؛ فللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ في كلاءَة هذا الامر المحفوظ وحراسته أَسرارٌ يمكن الايمان تصفُّحُها واجتلاؤها ، وأَقدارٌ يبسط الدعة والامان اختيارُها وابتلاؤها ، وآثارٌ يبعد بها عن مبلغ الاعداء ومدارك الاشقياء سموُّ هذه الدعوة واعتلاؤها ؛ وهو أَمرُ الله الذي لا يضرُّه مناويه ومخاذلُه ، وعهدُه القويُّ الذي لا ينالُه أَوباشُ الظلم وأَراذلُه ، وكلمةُ الله التي لا يثني المؤمنَ عنها عاتبُه العتيُّ وعاذلُه . وقد تجدَّد الآن من نصر الله وفتحه ، ما تعجز القوى البشريَّة عن شرحه ، وتظهر العناية الربَّانيَّة في بذله ومنحه ؛ وإِن كانت العبارة بأَوائل ذكره مستنفدة ، والنعوت والاوصاف في حقِّه منحطَّة إِلى أَرض القصور مخلدة ؛ فَفي إِلقاء الممكن

من حديثه مجالٌ للاعتبار ، ومنالٌ لعزيز الآمال والاوطار ، ومآلٌ لناشيء التيقُّن والاستبصار ؛ وما هي إِلّا آيات بيّنات غشي العالم نورُها ، وحقائق جليَّات اضمحلَّ لها إِفك الكفرة وزورُها ، وجنود معناويَّات برز لنصر هذا المحسوس النفيس محجوبُها ومستورُها .

وذلـكم أَنَّ الاشقياء فلاناً وفلاناً وأَصحابهما كانت نفوسُهم الخبيثة كامنةً على أَذاها ، وعيونُهم السخينة نائمةً على قذاها ، وفِطَرُهم الفضّة ناشئةً بما مدَّها من الغلظة وآذاها ؛ ولم نزلْ بعد الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ـ رضي الله عنه ـ من أَوَّل هذا الزمن نحملهم في حجر الكفالة والكفاية ، ونجريهم بمجاري العناية والحفاية ، ونسعى في تدريجهم على مدارج المعرفة والدراية ، ونأْخذ بأَيديهم وهم يخرُّون على وجوههم الغاية بعد الغاية ، ونرى وصل أَرحامهم التي قطعَتْها شقاوتُهم من جملة ما يجب لحرمة المهديّ ـ رضي الله عنه ـ من الحفظ والرعاية ؛ وهمْ خلالَ ذلك أَغمارٌ لا يفهمون ، وسوائبُ لا يقفون عند حدّ ولا ينتهون ، وهَمَلٌ يريدون التصرُّف في المنكرات بما يشاؤون ويشتهون ؛ دأْبُهم استخلاصُ الفَسَقة ، واستصحابُ الخَوَنة من حثالة الناس والسَّرَقة ، والاسترسالُ في مذاهب الانعام المرسلة المطلقة . ونحن مع الاخذ بأَيديهم ، وكفّهم عمَّا يرديهم ، نرجو انَّ شعب الجنون من شبابهم تسكن ، ومستأْنف الاحوال من قبيح آدابهم يحسن ، ودائب الرفق في عتبهم وإِعتابهم يدرِّب ويمزن ؛ وسابقُ الشقاء مع ذلك يستتبع فيهم لواحقَه ، وينصب بينهم وبين السعادة قواطعَه وعوائقَه ،

ويحمل آراءهم المنقومة ، وحوادثهم المذمومة ، حوادثه وبوائقه . فلا يلحظون جهةً من جهات التقوى بطرف ، ولا ينتفعون من كلمات التذكير وحروف التنبيه بكلمة ولا حرف ، ولا يتعرَّضون لقبول الله بشيء من أَعمالهم في عدل ولا صرف ، حتّى انتبذوا عن أَمر المهديّ ـ رضي الله عنه ـ بالغراء ، واتّخذوه وراءهم ظهْريًّا بجانب الابعاد والاقصاء ، وصارَتْ حرماتُه عندهم منتهكة ، وأَماناتُه مستهلكة ، بيد الغصب والاعتداء ، وأَظهروا عورةً ما استُطيع سترُها بوجه من وجوه الستر الشرعيّ والاغضاء ؛ وكلّما ارتفعَتْ أَسنانُهم إلى أَطوار الكهول ، وخيَّلت هيئاتهم وأَبدانُهم أَنَّهم في حدّ أُولي الفهم والعقول ، هوى بهم حرمانُهم في غيابات الغفلة والذهول ، واجتاز بهم شيطانهم إلى حضيض الجور والنكول . واقترن بهم من قرناء الرجس ، وشيطان الانس ، من كان يلقي إليهم زخرف القول غرورا ، ويَعِدُهم بما يوهلون له جذلاً بنيله وسرورا ، ويُريهم نُهَز الغفلات ، ذهاباً بهم إلى المهلكات ، ومرورا .

ومع ما كان الامر يتوسَّع لهم من الارزاق المنعمة ، والخيرات المتمَّمة ، والمنازل المكرَّمة ، والخيل المسوَّمة ، فلم يكن مستطابُهم إلّا غلولاً يحترقون بناره ، ويتطوَّقون بعاره ، وينطلقون في أَنجاده من تهاوشه وأَغواره ؛ والنصائح أَثناءَ أَحوالهم ، وإزاءَ أَهوالهم ، تروم امّحاءهم من سكرتهم ، وإقالتهم من عثراتهم ؛ فلا يزيد الارشاد إلّا غيًّا ، ولا تسمع الموعظة من حَيّهم لَيًّا ، حتّى تفاحش منكرُهم ، وتطابق مظهرُهم الخاسر

ومضمرُهم ، ولم يقِفهم عن محارم الله تعالى ما يَقِف أهل المروّات ويزجرُهم . فلما أَشرف على دائهم الاعياء ، وتجاوزهم الاستهتار والاغواء ، ولم يردّهم من خبائث إرادتهم الخوف ولا الحياء ، هجروا قصد التأْديب بالهجر ، ووقفوا موقف الردع والزجر ، واحتملت المشقّة في التماس ما عسر من تعليمهم وتقويمهم رغبةً في المثوبة والاجر ؛ ثمَّ لُوحِظَتْ رعايةُ ذمامهم ، وثنيت القلوبُ على جانب استعطافهم واسترحامهم ، واعتقدوا الصدق فيما ادَّعوه من التوبة لاحتقار آثامهم ، وبُيّن لهم أَنَّ الذي يثبت به شرفُهم ، ويرعى معه أوَّلُهم السابق وسلفُهم ، إنَّما هو الاستمساك بعروة الدين ، واتّباع أَمر المهديّ ـ رضي الله عنه ـ على الثلج واليقين ، والتأَدُّب بآداب الطائفة الصالحات في كلّ الاعمال والشؤون . ونُهوا عن مخالطة الاوباش ، ومداخلة أَهل الانزواء إلى باطنهم والانحياش ؛ فأَظهروا الاعتزال عمّا كان المتاب منه ، ثمَّ عادوا على إثر ذلك لما نُهوا عنه ، وتردَّد الردع لهم والزجر وتريَّد الشرك والقرع ، وتمكَّن في تعريفهم ، لتبديلهم وتحريفهم ، الايضاح والصدع ، وهجروا مرَّة بعد مرَّة ، فعادوا إلى سَيِّئاتهم كرَّة على كرَّة ، واستبطنوا من سحَرَتهم وكهّانهم شرَّ فِئَة وأَسوأَ عترة ، وتردَّدَتْ عقولهم المعقولة بين نفاثة في عُقدها ، وعاكف على ارتكاب القرانات وترصُّدها ، وحاكم على غيب الله بخروج الاشكال من الاشكال وتولُّدها . فاستمرَّ تخبُّطهم في مسالك العطب ، وتورُّطهم في طلب وعدهم المرتقب ، وزيّن لهم ما في استهواء الناس بمنصبهم ، ودعائهم

في السرّ إلى اعتقاد مذهبهم ؛ وناجاهم على ذلك من شيطانهم جمع ، وأَلقى إلى حديثهم المفتري نصرٌ من المذنبين وسمع ، والامرُ إذ ذاك عندهم على استتار واحتجاب ، وهم من العثور عليهم وتوجُّه النقمة إليهم في شكّ وارتياب ؛ وعندنا من تحسين الظنّ بالكافّة غاية ما يمكن ، ومن معاملة الجمع بالجميل ما يجب لله تعالى ويتعيّن ؛ والاشقياءُ المذكورون لا يرون الاحسان إحسانا ، ولا يتزيّدون مع الرفق بهم ورجاء الخير فيهم إلّا نفاقاً وطغيانا ، والآيات تُسمع وتتجلّى فلا تلقى منهم إلّا صمًّا وعميانا ؛ ونار الحقد في جوانحهم تتأَجّج ، وسموم الغلّ تمشّى في أَعضائهم وتتدرّج ، وهم من تزيُّد الكرب وتأَكُّد الهمّ بما يسرُّ هذا الامر العزيز ويبهج .

فلما كانت الغزوة التي فُتحت فيها بجاية وسائر تلك البلاد المشرقيّة وظهر من نصر الله هناك العجب العجاب ، وتأَتّى بها من غرائب التسهيل والتيسير ما بهر العقول والالباب ، ثارَتْ كوامنُ حسدهم تطرق وتنتاب ، وأَنْفَرَتْ حيّاتُ إذايتهم تنسلُّ وتنساب ، وسلكوا في التحريب والتخريب مسلكاً لا يُشَكُّ فيه ولا يرتاب . وكان لهم في الشقيّ فلان عمدةٌ كبرى ، وعدّةٌ أَجرى لها القدر من حكمه المستأْصل ما أَجرى ؛ فاطّلع الله على سرّه الخبيث قَبْلَهم ، وصرّم بانتقاله حبله وحَبْلَهم ، وتعجّل إليه النظر المتدارك فقيّده وعَقَلَه ، وطرقه الامر المعاجل فاستاقه ونَقَلَه ؛ وأَقام في السجن إلى أَن كان الاياب إلى هذه الاقطار ، بحكم الاستحسان والاختيار ؛ وأَوضح الله عند ذلك من بواطن أُولئك العادين الماكرين ، وسائر أُولئك

المنافقين الكافرين ، ما توالى على وضوحه وظهوره حمدُ الحامدين وشكرُ الشاكرين . فنُظر بعون الله في إطفاء نورهم قبل اشتعالها ، وقطْع موادّهم قبل تسرُّبها واتّصالها ، وجزِّ رؤوس الفتنة عند صراخها واستهلالها . وقُتل فلان بن فلان ومن جرى مجراه في الشقاق والنفاق ، وأُخذَتْ على الكَفَرة والفَجَرة مخارجُ الجهات وثنايا الآفاق ، وتقبَّضَتْ على الباقين منهم يد الاسر بعد الاثخان وشدّ الوثاق ، واقتضى الابقاء والاملاء في الشقيَّيْن الباقيَّيْن فلان وفلان وتأْخيرهما بقدر الله عن ذلك المهالك ، والعدول بهما إلى سبيل النجاة من ذلك المسلك ، على تيقُّن من فسادهما ، وخبث اعتقادهما ، وانبعاثهما إلى أَسباب نفاقهما وارتدادهما . وأَقاما بهذه الحضرة ـ حرسها الله ـ في قيد الغفلة ، وفترة المهلة .

ثمَّ ظهر أَنَّ الغاية القصوى في التجاوز عن عظيم ما اجترحا ، والتغافل عن مؤلم ما تمنَّيا واقترحا ، أَن يُرسلا من عقال الاعتقال ويسرَّحا ؛ واختير لهما سكنى فاس ـ حرسها الله ـ بجميع أَهليهما وبنيهما لينزلوا بقرارتها خير منزل ، ويكونوا لتمييز أَحوالهم هنالك بمعزل ؛ وأُمر لهم بما يقوم بهم من المؤَاسات ، والمحترث والجنَّات ، والتَفَت فيهم جانبُ الرحمة والحنان كلَّ الالتفات ، ليبلغ الحجَّة عليهم منقطع الآماد وغاية الغايات . فكانوا هنالك تتجافى جنوبهم عن مضاجعها ، وتترامى قلوبهم إلى مساقطها المردية ومواقعها ، وتتراءى غيوبهم في محالّها من الافتتان ومواضعها . وتسلّل إليهم من أَشقيائهم متكهِّنٌ جرى منهم مجرى الدَّم ، ولاصقهم في عقر ديارهم

ملاصقة الالصق الالزم، وزادهم خبالاً إلى خبالهم في روم الهجوم والتقحُّم.

فلما سار الموحّدون ـ أعزَّهم الله ـ إلى رباط الفتح ـ عمَّره الله ـ واتَّفق هنالك من عقد هذه البيعة السعيدة ما اتَّفق، وتمَّ أَمرُها بحمد الله على ما أَجمع عليه الملأُ وأَصفق، طرق الاشقياءَ المذكورين من قاصمة ظهورهم ما طرق، واشتعلت لها نارُ الحسد بين ضلوعهم فالتهب شواظها واحترق؛ وأَتاهم من حلولها في نصابها، وقطْع آمالهم من اختلاسها واغتصابها، ما أَراهم سقوط أَرواحهم الخبيثة بمركز قيامها وانتصابها، وحلول القارعة بأَفئدتهم الفانية بآلام الحسرة وأَوصابها. وكان لهم من أَوليائهم في الغيّ من يريهم الفرصة في هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ بمعرض الانتهاز، ويمدُّ إلى وعدهم المكذوب أَكفَّ الاقتضاء والاستنجاز، ويروم الخروج بهم عن خموله وذلّته إلى حين الظهور والاعتذار. وكانت المكاتبة بينهم وبين كثير من المنافقين الذين كانوا يتربَّصون الدوائر، ويستبطنون الغوائل والغوائر، بأَن يكون ورودُهم على هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ بغتةً تفجأَها، وعلى حين غفلة لا تمهلها بزعمهم ولا ترجيها؛ ولم يعلموا ـ وقمهم الله ـ أَنَّ وقاية الله هي التي تعصم، وأَنَّ عروته الوثقى لا تفصل ولا تفصم. فسار إليها الاشقياءُ المذكورون من فاس، والحَيْنُ يريهم كلَّ تخيُّل فاسد وقياس، ويوهمهم وقد طبع على حواسّهم أَن ليس في مغالبة الله من باس؛ ومرُّوا بنظير وما يؤازيه على تلك السبيل من بلاد صنهاجة فوجدوا هنالك من أَعداء الله من أَضافهم وزوّدهم، وأَجراهم

من البرّ بهم على ما عوّدهم . فتمكّن اغترارُهم ، وتوجّه استعجالهم وابتدارُهم ، ووصلوا خارج هذا القطر ـ حرسه الله ـ وقد تعلّق بأَهداب الليل نهارُهم ، وتأَتّى احتجابهم بظلامه واستتارُهم ؛ فدخلوا عند ما مضى منه هدْء ، وغشيهم من زمانه بدْء ؛ فقصدوا الديار التي كانت لهم ولقرابتهم فاحتالوا أَوساطها ، واستغشوا أَوباشها وأَخلاطها ، وتوخّوا لمتـوصّل غدرهم مربطها بهذه الحضرة ـ حرسها الله ـ ومناطها ؛ وباتوا ليلتهم تلك واثقين على ترتيب أَمرهم المختلّ ، متوكّلين على أُولئك المنافقين بذلك الربط المنحلّ ، ورأَوا بما اعتقدوه من تيسير الفتك وتأَتّيه ، أَنَّ النهار أَبسط لقصده وتوخّيه .

وعلموا أَنَّ الشيخ الشهيد أَبا حَفْص عُمَر بن تَفْراجين ـ رحمه الله ـ كان العامل على هذا القطر والناظر فيه ؛ فقصدوه عند خروجه إلى الجامع وقد أَعدّ لصلاة الصبح عدّة المُخبت الخاشع ، وأَجاب التثويب إجابة السامع الطائع ، وارتدى من الطمأنينة رداءَ الساكن بقرارها الرائع ؛ فهجموا عليه فاغتالوه بأَيديهم عند لقائه ، وتركوه مقتولاً في سبيل الله بحياته الدائمة وبقائه ؛ وركبوا خيلهم التي تسابقَتْ بهم إلى مصارعهم ، وأَوردَتْهم على قواصمهم وقوارعهم . فجالوا بها خلال الديار ، ونادوا أَثناءَها بالاعوان والانصار ، وأَلقوا إلى مُواعديهم الاخسرين أَبصار الارتقاب والانتظار ؛ فعاجلَتْهم بواطشُ الاقتدار ، وفضحهم بمرأَى البوار والخسار ضياءُ النهار . ورأَى الناس أَنَّهم الاشقياءُ الذين تبيّن اعتقادُهم ، وتراءى لهم قيامُهم بالليل

واستبدادُهم ، وتبرَّأَ منهم الشيطان إذ تحصَّل لهم كفرُهم وارتدادُهم . فالتفَّتْ إلى قتالهم العامَّة ، وجلَّتْ بهم الصاخَّة والصامَّة ، وأسلمَتْهم لعواقب الحين الشيعة والحامَّة ، وقَتَلَهم من جنود الله من لا يُعرف ، وحاق بهم من بأْسه سبحانه ما لا يردُّ عن القوم المسرفين ولا يُصرف ، وأَطفأَ الله نارهم في مثل ارتداد الطرف ، وصرف بأْسهم عن الذين آمنوا بأَلطف وجوه الصرف ؛ ولم يكن بين رويتهم على متون السوابح ، ووقوع نحورهم وحلوقهم على غروب النواحر والذبائح ، إلَّا مقدارُ نظرة الناظر ولمحة اللامح . وأُبرزوا هنالك خارج المدينة بقاع قَرْقَر ، تلفح وجوههم من عذاب الله كلُّ ريحٍ صَرْصَر ، مرتهنين بآثامهم ، مسلمين بإسلامهم لاسلامهم ، منكوسةٌ ذوائبُ هامهم بين أَقدامهم ، تخطب العبَرُ بأَفنية إفنائهم وإعدامهم ؛ ويفصح الحقُّ أَنَّهم المفردون يَوْمَ يدعى كلُّ أُناس بإمامهم ؛ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأُولي الالباب ، وآيةٌ تجرَّدَتْ في محو آثارهم عن ظواهر الأسباب ، وفاتحةٌ طرحَتْ أَشعَّة نورها وأَبقَتْ آثار تطهيرها على أَخريَّات الاحقاب والاعقاب .

ولمَّا اجتمَعْنا ـ وفَّقكم الله ـ بهذا القطر الذي نفى الله خبثه ، وخلَّصه ممَّا أَلقاه الشيطان ونفثه ، نُظر بعون الله في موجب البحث والتنقيب ، ونيطَتْ بأَنقاب الامر طلائعُ الارصاد والترقيب ؛ فأَعثر الله على غواة الاشقياء ودُعاتهم ، وأَطلع على غيوب المنافقين وطويَّاتهم ، وانبعثَتْ إليهم طوائف الانتقام من خواصّهم وذواتهم ؛ وتُقُبّض على من عُرف بأذاهم

قواعد الفتنة وأُصولها ، ورؤُوسها التي تمكّن بها وجود الغرّة وحصولها . وكان حكم الله فيهم حزّ رؤُوسهم من أَجسادها ، وتصيير نفوسهم إِلى سوء مصيرها ومهادها ؛ والغزو فيهم متّصلٌ مع الايّام ، والبحث قائمٌ على جانب الظنّ والاتّهام .

والحمدُ لله الذي جعل لاوليائه عقبي الزمان ، وظلّل عليهم غمام الانعام والاحسان ، وحمى بحمايتهم قبّة الاسلام والايمان ، وأَوقع مُخالفيهم ومُخاذيلهم في حبائل الخلاف والخذلان ، وأَولى من هذه النعَم الممدودة ، والحظوظ المجدودة ، ما شكرُه فرضٌ على الاعيان . فسارعوا إِلى شكرها ـ رحمكم الله ـ مسارعةَ الاصفياء الخلصان ، واستبشروا فقدْ مُدّتْ عليكم أَجنحة الدعة والامان ، وإِيّاكم من عباده العارفين بمواقع النِّعَم ، العاكفين على انتهاز فضله المغتنم ، الوقفين بطاعته مواقف أَمره الملتزم ؛ إِنّه وليُّ الطَّول والكرم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

الرسالة الثانية عشرة

وهي من إِنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ إِلى الطَّلَبة الذين بتلمسان ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .
أَما بعدُ فإِنّا نحمد إِليكم الله الذي لا إِله إِلّا هو ونشكره على آلائه

ونعمه ؛ ونصلّي على محمّد نبيّه ورسوله. والحمد لله الذي أَحلَّ هذا الامر العزيز من عنايته بالمحلّ الاعلى ، وخصَّه بدعاء الخلق إلى ركوب السبيل الواضحة والطريقة المثلى ، وأَقام كَفَلَته وحَمَلَته لاذكار القلوب الساهية ، وتنبيه النفوس اللاهية ، بسوَر من آياته تُتلى ، وعِبَر من مجتلياته تُعرض في أَوقات الغفلة وتُجلى ؛ وخطم بخزائم حدوده ، وضمَّ إلى حصر قيوده ، من تبسَّط على الاسترسال وتدلَّى ، واستفاء بحكمته وبيانه ، وحالَيْ شدّه وليانه ، من أَعرض وقاءً بجانبه وتولَّى ، وأَصحبه من تمشية المقاصد ، وتصفية المصادر والموارد ، بما يكون له عند كلّ معتمد ، وفي كلّ مقتصد ، ردْءًا مكيناً وكفلا ، وأَودعه من عطفات الرضوان ، ونفحات الرحمة والغفران ، ما يضع عن القلوب من متوقَّع مؤبقات الذنوب آصراً شديداً وثقلا ؛ والصلاة والسلام على محمّد عبده ورسوله الذي وسم الله برسالته زماناً غفلا ، وشرع به من الدين ما نهج لمن جار أَو حار مسالك وسبلا ، وجعله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ بين الحقّ والباطل حجزاً مضروباً وفصلا ، وأَتمَّ به النعمة ، وأَعمَّ به الرحمة ، إحساناً غمراً وعطاءً جزلا ، وتعريفاً أَنَّه الله الذي لا إله إلّا هو وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً وفضلا ، وعلى آله وصحبه الذين تبوَّؤوا بالهجرة والنصرة محلًّا عالياً ونزلا ، وكانوا لما تُحف لهم من الرضا ، والثواب المقتضى ، مستحقاً وأَهلا ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، مطلع أَنواره ، ومتبع آثاره ، يقروها فرعاً فرعاً وأَصلًا أَصلا ، ويقرُّها على مثل مثلا ، وعلى شكل شكلا ، القائم بأَمر الله وقد تغشَّت البسيطة

ضلالاً منطبقاً وجهلا ، وأَشربت المنفـوس من خبط العشواء ، وغلية الاهواء ، إمراجاً وخبلا ، واعتاضت برفع العلم وطموس الحقّ من رقي هويًّا ومن علوّ سفلا ؛ فانتحَته البشرى التي لا تتوقّف ، ووعد الوحي الذي لا يخلّف ، انّه يملؤها قسطاً وعدلا ، ويجري في أَمره إلى غاية هي ختم الوجود ، وانقراض أَمد الدنيا المحدود ، مخصوصاً من التأْييد ، وسنيّات التمكين والتمهيد ، بالاخلق منها فالاخلق والاولى فالاولى .

فإنّا كتبناه إليكم ـ كتبكم الله ممّن أَحسن لقبول ما يعتمده ، وتلقّي ما يرده ، استعدادَه ، وأَجاد لاعزّ المطالب ، وأَفضل المـكاسب ، انتجاعه وارتيادَه ، وتدرّب على عمل البرّ فأَلِفَهُ واعتادَه ، وارتاح لوارد التذكير ، ووافد التبصير ، فقوّم به معوّجه وثقّف منآدُه ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ ونحن نحمد الله على دينه الذي رفع علمه ، وجمع معاقده وعصمه ، وأَمدّ له ببركة هذا الامر العزيز من متين العقود ، ومكين العهود ، ممّا سرّاه وأَلحمه ، فلا خَلَال ـ والحمدُ لله ـ يعرو مبرمَه ، ولا نقض يعتَوِر محكمَه ، ولا مائل عن مدرجه ، عائج عن منهجه ، إلّا صادَرَه التعديل وصدمَه ؛ فمدعوٌّ أَقلع وأَقصر ، وعَمٍ كشف له الغطاء فأَبصر وتبصّر ، ومِرّيحٌ شمّر عن ساعد الجدّ وحسر ؛ وراكبٌ رُدع لحاجِه ، وممتدٌّ في غلواء تنكّبه عن السبيل وعياجه ، ومُنْطَوٍ على دخيل داء قد نقل بعلاجه ؛ كلٌّ يوفي قسطَه ، ويمضي عليه من ثوابٍ أَو عقاب ما أَثبته الكتاب وخطّه ، وحدودٌ له تتعدّى ، وحقوق لا يتجاوز بها

الأمد المشروح والمدَى ؛ وكلٌّ بما أَسرَّ من سريرة ، أَو أَحتقب من صغيرة وكبيرة ، ملبَّس ومردَّى ؛ لا هوادة يحتمل ، ولا وسيلة سوى التقوى يُدلي بها ويُدلّ ، ولا قربى بغير العمل الصالح توصّل ، وتبلُّ ميزان القسط عدَّل وأَمال ، ورجَّح وأَشال ، وكال لكلّ ما اكتال . والله بعد نفحات من رحمته يصيب بها من عباده من استنفحها ، ويصل أَبواب التوصُّل إليها من قرعها بالمتاب واستفتحها ، ويستقيل بها عثرات الزلَّة ، وفترات الغفلة ؛ ومن أَعتق نفسه من ملكة الهوى وسرَّحها ؛ أُولئك الذين سبقت لهم منَّا الحسنى ، وانقادوا بزمام العقل فما استمالت لهم دواعي النفس طرفاً ولا استهوت منهم أُذنا ، وكلّما ذهبت سِنَةٌ بأَجفانهم ، أَو عرض عارضٌ في ميدانهم ، قرعوا عليه من ندم سنًّا ، واستشعروا لما أَصابهم أَسفاً وحزنا ، ثمَّ تابوا إلى الفيئة ، وتعلَّقوا بأَهداب تلك الحالة الاولى وتلك الهيئة ، وكانوا من التطلُّب لتلك الاذواق المستملاة ، والمناظرة الحسنة المجتلاة ، بين ذهاب وجيئة . والله يلهم كلًّا إلى ما قصد به ممَّا هو حظُّه الاجمع ، وركنه الاشدُّ الامنع ، وعلق قضيَّته التي تُهمل ولا تضيَّع .

وقد كُنَّا ـ أَعزَّكم الله بتقواه ـ عند ما أَنسنا من فترات الاعمال ، وحؤول الاحوال ، والاستئناس في أَمر الله بالانهماك والانهمال ، والتدرُّج في مناقل التغيير بما لان له مركب الاستهانة والاستسهال ، رأَينا ما لا يسع الاحتمال فيه ، ولا يبرأُ من درك التحرُّج في أَرجاء تداركه وتلافيه ، ولا يؤدي حقّ الاستحفاظ والاسترعاء بإقرار ما يبطله الحقُّ وينفيه ، وإنَّ

للماشاة في ذلك وهنٌ لا يقبله الله في دينه ولا يرتضيه ؛ وإذا نصب الله معالم الهُدى ، ولم يخلق الامّة عَبَثاً ولا تركهم سُدَى ، بل جعل كلًّا بما وجّه اليه من أَمر ونهي مكلّفاً متعبّدا ، وأَقام لهم فيما يأتونه ويذرونه رسماً لا يحيل ولا يستحيل مذلّلا بسلوكه معبّدا ، فما هم والتخلّي مع الاهواء ومخالفة الافئدة الهوى والرضا لهم بما رضوا من الاقامة بدار المضيعة والندا . وأَمرُ الله لا يدع ، وحكمه يكفّ ويفرع ، وله ـ جلّ جلالُه ـ قَوَمةٌ بدينه يزع بهم ما يزع ، يسوون ويُعدلون ، ويقضون بالحقّ وبه يعدلون ، وما زلنا نعرض الذكرى بيّنة ، ونهدي الكلمة ليّنة ، وندعو إلى سبيل الله بمقتضى المدعاة الواجبة المتعيّنة ، وننتظر بالمسوف ارعواءً عن الغيّ ، وانثناءً عن مدارج الملل والليّ ، وتحوُّلاً من القلب الميّت إلى القلب الحيّ ، النفوس بزمام هواها منقادة ، وعلى ما أَلفته قدماً من أَسوء عادة ، تنحطُّ في شعب حياحها ، وتطغى وقد أَرخى لها الاغترار من شكيم مراحها ، وتترك لايثار الفساد جانب صلاحها ، وتصمّ أَسماعها وقد قرعتها بما شاءَ التذكير أَقوال إنصاحها ؛ فتقضّى أَمر الله أَن تقوم بحقّه ، واستدعى عهده الوفاء به في خلقه ، وحمل هذه السائمة الهائمة على سبل الاعتدال وطرقه ، وأَبطأَها مركب الطاعة على ما لا بدَّ فيه من عنف الاخذ أَو رفقه ، فتحرَّكت بواعث الاعتزام ، واستقلّت باستعانة الله دواعي الاستغرام ، وأَخلص له ـ جلّ جلالُه ـ مجرَّد القصد والالمام ، واستوبق بما استقبل وتوجيه ما أَمل تجديد مراسم الايمان

ومعالم الاسلام ، وان تورد موارد الشرع صافية النطاق رزق الجمام .

ولما انقسم الناس في المراد من إصلاح فسادهم وتقويم منآدهم إلى من استأثر بالمشاهدة عيانه ، وإلى من بعد من المباشرة مكانه ، وكان لكلّ من مساواة الحظّ ، وتقسُّم التفات اللحظ ، ما يتوجّه اليه بيانه ، ويثنيه إلى ما يقصده من هذا الغرض وينتحيه زمام التناول وعنانه ، أَودعتْ أَغراض هذا المقصد الكريم ، ومناجي الدعاء إلى السراط المستقيم ، الكتبُ الواصلة إليكم وإلى سواهم من أَهل الاقطار بما تضمَّنته من الاحوال ، وضرب الاشكال والامثال ، وتبيّن متروك الحرام ومأْتى الحلال ، وتنزيل القضايا الشرعيَّة منازلها من الاحكام والاعمال ، وتعريف مواقع الثواب لاهل الثواب ، ومواقع النكال لاهل النكال ، بما استوفى فيه الاداء ، وتقصَّى الابلاغ والانهاء ، ووقف عند غايته الركض والاجراء ، وخفت بذلك عن كاهل الامانة وتقلُّد أَمر الديانة والاثقال والاعباء ، وأُقيمت الحجّة ، وأَوضحت المحجّة ، فلا متردّم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء ، أَو يحاول فيه التعقُّب الاستفحاص والاستقصاء .

ولما قضيت تلك الوضيفة بحالها ، وسقطت عهدة احتمالها ، أَقبلنا الاشتغال على من إلينا وحوالينا من الموحّدين وجميع القبائل لنأْخذهم بمآخذ ذلكم التعديل ، ونحملهم على نهج تلكم السبيل ، ونساوي بين من بعُد ودنا في الفعل والقيل ، ونمضي مسطور تلكم الاحكام على مساوقة الفرض لها والتنزيل ، ونعدم بسيف الحقّ آثار أَهل التغيير والتبديل . ولما

حللنا هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ وهذا الغرض المبارك يتمكّن مع مطالعة الاحوال سببُه ، ويتقعّد مذهبُه ، ويتطوّر في كيفية مآله ، وموقف مجاله ، نسبُه ونصبُه ، ابتدأنا بالنظر في أَحوال الموحّدين وإِحضار الجميع منهم بهذه الحضرة ـ عمّرها الله ـ واستوفدناهم قبيلًا قبيلًا وشعباً شعباً وقد تأَكّد العزم على القيام بامر الله وإِعادته على إِدلاله وإِحياء دارسه وإِقامة عموده ونفي الخبث عن أَرجائه وتصفيته من الشرب وانشائه خلقاً جديداً ولا يكون ذلك إِلّا بإِخلاص المقصد وإِظهار الفعل وإِمضاء الحكم وترك التلفّت إِلى الاقوال ووسائل الالسنة فشدّ ما ارتهنت بما لا وفاء عنده ولا ثمرة له . والتحق بهذا الاصل استدعاء جمل من كلّ قبيل من المصامدة وغيرهم ليقع العمل في الجميع وتصفى الموارد وترحض الادناس ، إِذ كان الفساد قد خالط النفوس ومازج القلوب ووقع به الاستئناس ، وأَلفته الاهواءُ ومجّت المناصحة فيه الاسماع ونسى كلّ ربّه فأَنساه نفسه وسقط رعي الحرمات وتنوسيت الذمم لاهلها والسوابق لاربابها . وفي أَثناء هذا الاستدعاء أَقبل أَهل التوحيد على الاشتغال بنفوسهم والعكوف على قراءة توحيدهم وملازمة وظائفهم وافصحت لهم نصب الحال عن أُمور من مثلها يأْخذ الفطن حرزه ويستحضر إِشفاقه ويتوقّع يومه وعندها ويتراءى الناظر مكان سقطاته ، وموضع فرطاته ، وتتخشّى له منسيات ذكراته .

ولم تزل القبائل ترد أَفواجاً وتفد أَقواماً ؛ وخلالَ التلوُّم باكتمالهم أَخذوا بالقراءة والتعلُّم ومدارسة التوحيد وتحفُّظ ما تقام الصلاة به من

القرآن . وكان لهذا الاخذ من كلّ طبقة وصنف عملٌ علَتْ به الاصوات ، وعظم الاثر وقد ظهر من مبادي هذه المنازع وانفراض هذه المقدّمات ، ما شخصتْ له الابصار ، وجدَّ فيه الاعتبار ، وخامر منه النفوس الخوف المقلق والحذار ، وسرى في قلوب الخاصّة والعامّة الايجاس لامر من أُمور الله والاستشعار ؛ وتوقُّع ظهور آية تفرق بين المحقّق والمبطل ، وتميّز الخبيث من الطيّب ، وتلبس كلًّا رداءَ سريرته ، وجلباب طويَّته ، وما ذاك ببعيد عمَّن أَعرض عن الحقّ واتَّبع هواه ، وأَحلّ بعهده الذي عاهد عليه ، واستبطن غير ما أَظهر . ولله في هذا الامر العزيز أَسرارٌ مخبوءة ، وودائع مكتومة ، يمحض الله بها المؤمن ، ويمحق الكافر .

ولما تكاملت أَعداد الواصلين ، وقد غصَّت بهم السبل ، وعضَّل بهم الفضاء ، افتتح باب العمل ، واستُعين الله تعالى ، وابتُدِئ بتطوير الناس على طبقات ثلاث يعرف بها كلٌّ واحد قدره ، ويقف بها عند حدّه ، ويعلم أَين هو من مضماره ، وتأَخُّره أَو بداره . فالطبقة الاولى هم السابقون الاوَّلون الذين بايعوا الامام المهدي ـ رضي الله عنه ـ وصحبوه ، وغزوا معه ، وصلّوا خلفه ، والذين شاهدوا البُحيْرة وباؤوا بفضلها ، واشتملوا ببردة شرفها ، وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها ، وشُهد لهم بالفضل الذي لا يؤازى والرتبة التي لا تعادل . ويتلو هذه الطبقة مَنْ أَمن بهذا الامر ، ودخل في هذا الحزب ، وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البُحيْرة إلى فتح وهران . والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هَلُمَّ جرّا . وجرى

ـ وفَّقكم الله ـ هذا التطوير على نظام أُحكم فيه الوصف ، ورُتّب فيه الوضع ، وروعيت فيه الزلف والقرب ، والمنازل المعلومة والرتب ؛ والتفت إلى أَحوال أَهل الثبوت والنكوص ، ومن تقاصر عن الكمال بالحظّ المنقوص ، على تحرير من النظر ووزن من العدل ، عرَّف الناس بسيماهم ، ووقف بهم عند غاياتهم ، وعلم كلٌّ مركَزه ، واحتلَّ بمحطّه ، ووجد نفسه حيث وضعها العمل وأَهلَّها السعي .

(هنا انتهى أَحسن فصل في هذه الرسالة .)

الرسالة الثالثة عشرة

في ولاية الامير أَبي عبد الله بن الخليفة ، وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إِلى الطَّلَبة الذين بسَبْتة وطنجة ـ حرسهما الله ـ وجميع من بهما من الموحّدين والاشياخ والاعيان والخاصَّة والعامَّة ـ وفَّقهم الله وأَعانهم على شكر نعماه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَما بعدُ فالحمد لله على إعلاء دينه وتمكينه ، وإجراء هذا الامر العزيز على أَفضل أَساليبه وقرائنه ، وإمضاء أَراء أَهل الحقّ في صوب إسعاده وتيمنه ؛ والصلاة على محمد نبيّه المصطفى وأَمينه ، ومبلّغ رسالته على أَكمل

حالاته من بيانه الباهر وتبيينه ، وعلى آله وصحبه الذين أَلقوا صفقة أَيمانهم بيمينه ، وولوا عهد إيمانهم مَن ارتضوه لامامة مفروضه ومسنونه ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأَمر الله تعالى في كافّة أَحواله وشؤونه ، العامل بإِظهاره ، وبثّ أَنواره ، على معارج آياته وبراهينه ، المؤيَّد بأَخذ الغاية ، وحوز النهاية ، بصفات تخصيصه وعلامات تعيينه .

وهذا كتابُنا اليكم ـ كتبكم الله ممَّن اتَّخذ عند الرحمن عهدا ، واستمدّ في صلة أَمره واستدامة خيره عزماً صادقاً وجدّا ، واستعدّ من الباقيات الصالحات بما هو خير ثواباً وخير ردّا ، واستنجد للوفاء بأَمانته ، والصفاء في حفظ العهد وصيانته ، حبًّا خالصاً وودّا ـ من رباط الفتح ـ عمّره الله ـ وفي كنف الله ورعايته من يصيخ لنبأَات الخير أَسماعه ، ويربط بمعاقد الصلاح إصفاقه وإجماعه ، ويمضي على مناهج الفوز والفلاح عزمه وإزماعه ؛ ولله بكم ، معشرَ المخاطبين ـ أَكرمكم الله ـ عنايةٌ وصلَتْ بحبله المتين ، حبالكم ، ومكّنَتْ في أَمره المكين ، آمالكم ، وأَكرمَتْ بأَلطاف الرحمة ، في أَكناف النعمة ، إقراركم وإِحلالكم ، وأَرَتْكم انَّ العاقبة الحسنة باتّباع هذه الواضحة البيّنة حالكم ومنالكم . فأَنتم برعاية الله وكلاءته في جوانب الامنة راتعون ، وإِلى عواقب الخير راجعون ، تستدرّون أَخلاف النعم استدرارا ، وتستمطرون من بركات هذا الامر المبارك سماءً مدرارا ، وتجتلون من مشارق آياته وطوالع بيناته أَضواءً باهرة وأَنوارا . وحقّ من منح من حظوظ النعم ما منحتُم ، وأَمسى وأَصبح فيما أَمسيتُم فيه من الخيرات

وأَصبحتم ، أَن يسعى بمبلغ جهده في تقييدها ، ويحرص بالتزام الشكر على مزيدها ، ويستنفذ الوسع في طلب أَسباب تقريرها وتأْكيدها ، وينظر في استدامة نعيمها ، والاستقامة على مقيمها ، لقريب أَوقاتها وبعيدها .

ولما كنتم ـ أَكرمكم الله ـ ممَّن اعتصم في هذا الامر العظيم بحبله وعروته ، واقتدى بوجوب الاتّباع بأُسرته الهادية وقدوته ، رأَينا أَن نعلمكم بما عقده إِخوانكم الموحّدون على تقوى من الله ورضوان ، والتزموه بأَتمّ ارتضاء واستحسان ، وابتدروه ولهم التوفيق والاصابة على يسر وإِمكان ؛ وذلكم انَّ كثيراً من أَولياء هذه الدعوة العليَّة وإِخوانها ، من أَشياخ الانظار وأَعيانها ، تقدَّمَتْ رغبتهم في أَمر أَخَّرَتْه الخيرة لميقاتها ، وأَرجأَته التؤَدة إِلى خير أَوقاتها . وكانت هذه العشائر العربيَّة الهلاليَّة والقبائل الشرقيَّة والصنهاجيَّة ومن معها من حاضرة وبادية من أَهل إِقليمها ، وذوي أَلبابها وحلومها ، يشيرون إِلى ذلك على انتزاحهم ، ويُعلمون بأَنَّه غاية اقتراحهم ، ومادَّة نفوسهم وأَرواحهم ؛ ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردَّد حيناً بعد حين ، ورغباتهم تتأَكَّد بما كان عندهم فيه من ثلَج ويقين . فلما اتَّفق بحمد الله وصولُهم في هذه الوفادة ، للاخذ بأَطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والارادة ، صرحوا لاوَّل لقائهم بما أَضمروه ، وأَبدوا سرَّهم المكنون وأَظهروه ، وأَعلموا أَنَّ محمَّداً ـ وفَّقه الله ـ هو الذي ارتضوه لحمـل عبئهم وتخيَّروه ، ورغبوا في تقديمه على بلادهم ، وإِنفاذه معهم على قصده في توليته ومرادهم . وكان استدعاؤُنا لهم في هذه

الوجهة المذكورة ، والحركة المبرورة ، لامور قُصدَتْ فيها مذاكرتهم ، ونويَتْ بها مباشرتُهم ، لم تكن ممّا ذكروه في ورد ولا صدر ، ولا كان ما سايره القدر جارياً معها في نظر . وكان التماسهم للجواب على سؤالهم ، وبغاية اقتضائهم ونهاية استعجالهم ، يتردّد ذكره في صدور أقوالهم ، ويتأزّر أَمره بشواهد عباراتهم وأَحوالهم ؛ ونحن بين ذلك كلّه على غير قصد ننويه ، وما نظهره منه مثل الذي نبطنه ونطويه .

ولما احتلَلْنا جميعاً هذا الرباط الميمون ، واستنَلْنا بفضل الله خيره المعهود ونصره المضمون ، وكان الوفد المذكور بمدرجة الايّاب ، ومرقب الالتفات والارتقاب ، تأَكّد اقتضاؤهم للجواب ، وتمكّن حديثهم في معنى التقدُّم المذكور والاستصحاب . فرأَينا بعد استخارة الله تعالى أَن نجمع في هذا الموضع المبارك مَنْ وصله من شيوخ الموحّدين وطَلَبَتهم وعمّالهم ونتذاكر معهم في ذلك الامر المسؤول ، ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل ، ونلقي إِليهم حديث القوم المذكورين بأَتمّ وجوه الالقاء والتوصيل ، فكان ذلك على ما قُصد ، وذوكروا في الامر على ما توُخّي فيه واعتُمد ، وعُرّفوا بأَنّ ذلك ليس ممّا بُني عليه ولا ممّا اعتُقد ؛ فثارَتْ منهم السواكن ، وغلبَتْ على الظواهر والبواطن ، وعُوينَ من أَحوالهم لذكر فراق المذكور أَغرب ما يُعاين . وتقدّمهم الشيخ الاجلُّ أَخونا أَبو حفص عمر بن يحيي ـ أَعزّه الله بتقواه ـ فقال : هذا أَمرٌ نحن بتقديمه ، وأَعْلَمُ بوجوبه ولزومه ، وأَولى بتأْميره علينا وتحكيمه ، ونحن السابقون إِلى

مبايعته على حدود الشرع ورسومه ؛ فهو مختارُنا للدين والدنيا ، ومسؤولُنا المأمول للحياطة والرعيا . وأَتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أَن يمكّنه ، وأَراد أَن يوضح به عزمه عليه ويبيّنه . وقال أَكثرُ الحاضرين من الاشياخ والطلبة والعمَّال ومن أُعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرَت مذاكرتُه في مثل هذه الاراء : هذا أَمرٌ في ضمائر أَكثرنا معقود ، وفي نفوس جمهورنا موجود ، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد ! واتَّفقت الكلمة من جميعهم أَنَّ في ذلك من تجديد أَمر الامام المهدي ـ رضي الله عنه ـ وتقويته ، وبسط شأْنه المعظَّم وتسويته ، ما لا يجوز تأْخيره عن ذلك المقام ، ولا يحلُّ الخلو عن التقليد له والالتزام ، وأَنَّ فيه من إِبقاء الامر في نصابه ، وإِتيـان الحقّ من أَبوابه ، واتّباع الدين من أَخلَّائه وأَحبابه ، وقطع كلّ منافق مرتاب عن أَسباب نفاقه وارتيابه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحّدين ويضمُّ شمل المؤمنين بأَوائل هذا القصد الصالح وأَعقابه ، ما ابتنى عليه اتّفاقهم وإِصفاقهم ، واسترسل فيه تعيينهم وإِطلاقهم .

فاعلموا ـ وفَّقكم الله ـ بأَنَّ ذلك ليس له في نفوسنا عقدٌ سابق ، ولا نظر لاحق ، ولا طرق الضمير من أَنبائه طارق . وإِنَّما كان هذا القصد إلى ذكر السؤال المتقدَّم الذكر ، والكلام فيه على مقتضيات هذا الامر . وانقضى مجلس اليَوم ، ومجالس بعده في ذلك الرَّوْم ، لا عن إِجابة في ذلك المطلوب ، ولا عزم على وجه من وجوه التأَتّي والتسبيب . واجتمع الشيخ الاجلّ أَبو حفص المذكور ومن تقدَّم ذكره من الطلبة والعمَّال

بجميع من هنا من أَشياخ الموحّدين وأَعيانهم ، وقدَّموا أَهل النظر في أَمرهم ذلك وشأْنهم ، وعرَّفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم . فاجتمع الملأُ من آخره ، وظهر الامر العجب لشاهده وحاضره ، وانتثر القول في ماكن الوجوب وتظاهره . وأَصفق الموحّدون وجميع من معهم على تحمُّل العهد فيه وتقلُّده ، وأَعربوا عمَّا اعتقدوا به من تقوّي الأمر وتأْييده ، وردَّ إلى أَصله ومستنده ، وصار الجميع منهم في حدّ من موالاة الاقتضاء ، على أَتمّ وجوه الاختيار والارتضاء ، لم يتقدَّم فيه عهد ، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بدّ .

ولما رأَينا اتّفاق كلمتهم على ربط هذا الامر وعقده ، وإجماع جمهورهم على ما فيه من نصر الدين وعضده ، استخرنا الله تعالى في الاتّفاق معهم على إنفاذه ، وسأَلنا لهم السعادة الدائمة في بيعتهم هذه ، ورُجي لهم من الله تعالى إجراءُ ذلك على ما عوَّدهم من الاصابة في المقاصد ، والنجح في طلب المصالح والمراشد . وانعقدت البيعة المذكورة باتّفاق جميعنا على الشمل والعموم ، وقامت بأَمر الله ورسوله في التفويض والتسليم ، وأَتى الامر فيها على أَوفى شروط التكميل والتتميم ؛ وابتدأَها الشيخ الاجلُّ أَبو حفص المذكور بيمناه ، قصداً الى اعتقادها على أَكرم وجه وأَسناه ؛ وتتابع الاشياخ والطالبة بعده على درجاتهم ، وسرى النعيم بها في أَبشارهم ومنحاتهم ، وباشرها من حضرها من القبائل الموحّدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلًا بعد قبيل ، على أَتمّ وجه وأَنهج سبيل ؛ وظهر من تآلُف

القلوب على ذلك وتعاضدها ، واجتماع النفوس ونواردها وترابط الافئدة وتعاقدها ، ما ملك جوانح الكافَّة غبطة وأَوسع أَمر الموحّدين بفضل الله عليهم مدًّا وبسطة . وتمّ ذلك بعون الله على أَوثق مبانيه ، وأَطلق معانيه . والله يعرفكم أَجمعين ، وسائر إِخوانكم من المؤمنين ، بركة هذا الاجتماع والاجماع ، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والامتاع ، وينهضكم في فروض الدين بواجب الاقتداء والاتّباع ؛ بمنّه . والسلام .

الرسالة الرابعة عشرة

وهي أَيضاً من إِنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إِلى الطلبة والاشياخ والاعيان والكافَّة بسَبْتة ـ وفَّقهم الله وأَدام كرامتهم بتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَما بعد فالحمد لله على تمكين أَسباب الاجتماع والانتظام ، وتقريب مدارك الانتفاع بأَعطياته ؛ والصلاة على محمد نبيّه المبتعث رحمةً للانام ، وعصمةً لاولي التمسُّك والاعتصام ، وعلى آله وصحبه الكرام ، الجارين في انتهار خيراته وإِحراز بركاته إِلى أَبعد غايات الاغتنام ، وأَقصى نهايات الالتزام ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، قبلة الاهتداء والائتمام ، وخاتمة الختم النبويّ في الكمال والتمام ، وموضع البشرى على آخر الزمان وعقبى الايَّام .

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم من تجدُّد الانعام ، وتوفُّر الحظوظ المسعدة والاقسام ، ما ينوّر بصائركم في الاعتناء والاهتمام ، ويصحب أَوائلكم وأَواخركم من الافتتاح وسعادة الاختتام - من رباط الفتح - عمَّره الله - وفي سبيل الله ما يربط بروابط هذا الامر العزيز ويعقد ، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرّد ، ولا مستعان سواه فهو الذي يعين بفضله ويؤيّد .

وقد تقدَّم إليكم - وصل الله إكرامكم ، ووالى تعريفكم بالمسارّ وإعلامكم - ماكان من إجماع الموحّدين وأَصفيائهم على عقد هذه البيعة المجدَّدة والتزام شروطها المذكورة وأَنَّ ذلك لم يكن له عندنا قصدٌ متقدَّم ، ولا عهدٌ متوهَّم ، لكنَّه أَمرٌ أَراده الله فأَتمَّه ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمَّه ؛ ونرجو انَّ الخيرة التامَّة في انعقاده ، والسعادة العامَّة في التزامه واعتقاده . ولما استوى بفضل الله بنيانه المرصوص ، وثبت على الصدق والثَلج حديثه المنصوص ، وتعيَّن في سوابقه ولواحقه الصفاءُ والخلوص ، وكان من هذه العشائر الهلاليَّة والوفود المشرقيَّة إيّابُها الميمون ، وتأَهَّل لها بتوفيق الله وتسديده خيرُه الموعود ونصرُه المضمون ، ورأَتْ أَنَّ الذي أَملَتْه في معنى الاختصاص بمحمَّد - وفَّقه الله - قد تأَنَّى في درج العموم ، وصار بمجمع الآمال في قرارة البيوت واللزوم ، رغبت رغبة مستأْنفة في استصحاب أَحد أُخوته - وفَّقهم الله - على التعيين ، وبيَّنت ما في ذلك من جمع الكلمة وضمّ أَشتات المصالح المقدمة بأَتمّ

وجوه التبيين ، وأَصفقت على أَنَّ ذلك يقطع أَسباب الاختلاف ، ويفتح أَبواب الائتلاف ، ويعمر جوانب تلك الارجاء والاكناف ، بأَحوال الدعة والسكون .

واتّصل ذلك بشيوخ الموحّدين وطلبتهم وعمّالهم ـ وفّق الله جميعهم ـ فتبيّنوا فيه من وجوه المنافع ، ومقاصد المصالح والجوامع ، ما اعتقدوا وجوب سؤاله ، ورأَوا قبل الخير في مبادي استقباله ؛ واتّفقوا على أَن يصحبهم المرغوب ، في استصحابه لدفع دواعي الشغوب ، وإِجراء الامر في تفاصيله وحمله هنالك على هذا القانون المبارك والاسلوب ، وانبعثت خواطر أَهل البلاد كلّها إِلى التماس مثل هذا المسؤول المرغوب ، وأَملوا ترتيب آمالهم للدين والدنيا على هذا الترتيب ؛ فسأَل طلبةُ تلمسان وأَعمالها ومن حضر من أَهل حواضرها وبواديها أَن يكون لهم من هذا الامر المتجرّد ، والشأْن المسعد ، حظٌّ يفوزون بنعماه ، ويحوزون منه أَزكى قسمة وأَنماه ، بأَن يستصحبوا من الاخوة المذكورين من يكون اليه استنادُهم ، ويدور عليه اجتماعهم واعتمادُهم ، ويتمكّن به استعانتهم واعتضادُهم ، ويتمّ بالاتّفاق معه أَمَلُهم من رفع الخلاف ومرادُهم . فتلقّى ذلك من قبول الموحّدين وتبيّنه ، وتقرّره في نفوس جميعهم وتمكّنه ، ما أَراهم طلبه فرْضا ، وكونه كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعْضا . وكانت المذاكرة فيه فتبيّن وجه المصلحة في تلقّيه ، وسبيل السداد في تيسّره وتأَتّيه .

واشتُغل بالنظر فيما يصلح بذلك ، والاستعداد بما هنا وهنالك ؛

وكانت بعض أَيَّام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمَّال ومن حضر ذلك الغرب الوسط في ترتيبه وتهذيبه ، وضمّه إلى قوانين النظر السديد وأَساليبه ، فرأَوا انَّ الذي يُعقد أَمرُه بمعاقد السداد ، ويُبنى بنيانُه على قواعد الاتّصال والاطّراد ، ويُقضى له من الاغتباط ما تقدَّم ذكره بأَوفر حظوظ التوفيق والاسعاد ، أَن يكون في وسطه من الاخوة المذكورين مَنْ تسكن إليه قلوبُهم ، ويتأَتّى به مسؤولهم من الاتّفاق ومطلوبُهم ، ويستريغون بالاجتماع عليه ما كان يغريهم ، من التنازُع والتهالك ويغويهم ؛ وأَن يكون أَمرُ غمارة وما اتَّصل بهم من عمل سبتة وجهاتها راجعاً إلى العمل المذكور ، مرتبطاً به في سائر الشؤون والامور . وكان في ذلك من إعادة القول وتكريره ، وتفصيل الذكر وتفسيره ، ما أَظهر سبيله على مظاهر البيان ، وأَبرز مكنون الاستقامة به العيان .

ثمَّ تذاكر الطلبة العاملون على سبتة وأَعمالها ـ وفَّقهم الله ـ مع إخوانهم في معنى البحر ومجازه ، واتّساع النظر في مراسيه وأَحوازه ، وكونه رابطاً بين العدوتيْن ، جامعاً إلى إصلاح الجهتَيْن ، عائداً راجعا ، وأَنَّه إذا ابقى معه النظر في أَمر غمارة وسائر القبائل التي الى سبتة وطنجة والجزيرتيْن ومالقة وأَعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط ، وتجتمع اليه هذا النظر المؤيَّد البسيط ، وينزاح به عن أَشغاله المهمَّة التقصير والتفريط ؛ وأَنَّه الآن فيما يُرام لهذه الغزوة الكبرى ، من إنشاء الاسطول ـ عمَّره الله ـ في جميع البلاد الصالحة للانشاء ، وغزو أَعداء الله

برًّا وبحرا ، في كافّة الانحاء والارجاء ، أَحقُّ بالعناية والاهتبال ، وأَسبق إلى التماس الارتباط والاتّصال ؛ وأَنّه إن كان هنالك من الاخوة المذكورين من يُساعِد ويُساعَد ، ويُعاضِد في ذات الله ويُعاضَد ، ويستدعي ما يجب استدعاؤه فلا يكابَر في ذلك ولا يُجاحَد ، اتّصلت الموادّ ، وانفصلت القواطع الحوادّ ، وتمكّن التصافي من خدمته والتوادّ ، وارتبط البحر بالبرّ ، فكانت المعاملة فيه بين العاملَيْن عليها بما يجب من المساعدة والبِرّ .

وأَتت هذه الأُمور ـ وفّقكم الله ـ أمراً بعد أَمر ، على غير قصد منّا ولا ذكر ، بل على وجوه يُعلم بالضرورة انّها نشأَت لأَحيانها ، وظهرت دون مقدّمة لأَعيانها . ولمّا رأَينا اتّفاق الشيوخ والطَّلَبة والعمّال ـ وفّق الله جميعهم ـ على ترتيب هذه الأُمور ، وإصفاقهم على ما فيه من صلاح الجمهور ، وظهور أنوار المهدي ـ رضي الله عنه ـ في مشارق الوضوح والظهور ، استخرنا الله تعالى في إنفاذ ما رأَوه ، ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم في تيسير ما أَملوه ونووه ، وتذاكرنا معهم في أَنّ الذي تُكمل به هذه الارادة ، وتُرجى بالتعاون عليه البركة والسعادة ، أَن يكون مع كلّ واحد من المذكورين من ينتهي إليه الاستحسان ، ويقوم على خيره وفضله الجلاءُ والبيان ؛ فعُيّن لهم من كبار الطَّلَبة والحفّاظ وأَعيان الفقهاء والقضاة ، ونخبة الأُمناء والثقاة ، وخيار الانجاد من الغزاة ، من يُعينهم في جمع العساكر وتمييز القبائل وتأليف الكتائب والامر بالمعروف والنهي عن المنكر في كافّة

المقاصد والمذاهب ، وأَخْذ الناس بالتفقُّه في دينهم وتعلُّم ما يتعيَّن تعلُّمه باللازم الواجب ، والعدل بين الاحكام ، والقضاء بكتاب الله وسنّة رسوله وإجماع الأُمَّة على الحاضر والعامّ ، واستخراج ما لله من وجوهه السائغة الطيِّبة على غاية مستطاعهم من الترتيب والاحكام ، ومياسرة الجمهور ، في سائر الأُمور ، بما يجري على مقتضيات الايمان والاسلام . وانتُخِبَتْ لكلّ جهة من الجهات المذكورة من قدماء الموحّدين وأَوليائهم بقدر ما احتيج إليه ؛ فاشتركَتْ في هذا الخير قبائلُهم ، وتقدَّمَتْ إلى أَوائله أَوائلُهم ، واستقبل منه الموحّدون كافَّة ما يواليهم بفضل الله ويواصلهم ؛ واستقامت هذه الاحوال بحمد الله على ما أُمل من استقامتها ، واعتُمد من إظهارها على قواعد الحقّ وإقامتها .

وأَعلمناكم – وفَّقكم الله – بها على الاجمال لتكونوا بسماع أَنبائها ، والوقوف على جلائها ، كالمشاهدين لايعازها وإمضائها ، والمشاركين في استحسانها وارتضائها . وليس لنا في ذلك كلّه إلَّا بما يجرى بطاعة الله ورسوله في تيسير آمال الموحّدين وموافقتهم ، ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم . والله يجعلنا وإيَّاكم من شكر الاه إسراراً وإعلانا ، واستدام بفضله ورعايته يمناً وأَمانا ، واستصحب في التزام طاعته واغتنام مرضاته أَعواناً وإخوانا ، بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكُتب في الثاني عشر من ربيع الاوّل سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

الرسالة الخامسة عشرة

وهي أَيضاً من إِنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور :

من أَمير المؤْمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إِلى الطَّلَبة الذين بسَبْتة والاشياخ والاعيان والكافَّة بها ـ وفَّقهم الله وأَعانهم على شكر نعماه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فالحمد لله أَهل التقوى والمغفرة ، ووليّ الرحمة الشاملة والرأْفة الواصلة والميسرة ، الذي نوَّر أَفئدة المهتدين بأَنوار التبصرة ، وأَقبل بقلوب الراشدين قبل التنبيه والتذكرة ، وأَعلق بعصم محبَّته علق النفوس التوَّابة المتطهّرة ؛ والصلاة على محمّد نبيّه المبتعث بالحجّة الغرَّاء المبصرة ، والدعوة الظاهرة المظهرة ، والسنَّة الواضحة النيّرة ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين ، وصحابته المختصَّة المؤْثرة ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأَمر الله تعالى على رغم الفِرَق الجاحدة المنكرة ، المؤَيد في رفع أَسباب الشنآن ، والحماية عن نزعات الشيطان ، بموادّ المعونة المنهضة المقدرة .

وهذا كتابُنا إِليكم ـ عرَّفكم الله من عوارف نعمه أَفضل ما تتعرَّفون ، وسقاكم من معين حكمته ما لا تصدعون عنه ولا تنزفون ، وأَولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون ، وجعل لكم بالايمان والعمل الصالح ودًّا لا تصدفون عن رعايته ، وحفظ غايته ، ولا تصرفون ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ ونحن نشكره سبحانه أَن جعل هذا الامر المبارك

قطب المصالح ، وملتـقى الفواتح ، ومرتقى المطامح ؛ فالخيرات بمحيطـه ، محصورة ، والمسرّات على عمدة بسيطه ، مقصورة ، والقوى في خدمة مقاصده معضودة منصورة ؛ وما تجريه الاقدار ، ويأتي به الليل والنهار ، فإلى تمكينه يستبق ، وعن عجائب مكنونه ينطق .

وقد كان في الامر الذي عرَّفْنـاكم بثلَجه ، وأَطلَعْناكم على سارّه ومبهجه ، ما اجتليتُموه من مستوضح الفتح ومجتلاه ، ووعيتُم من معجزاته ما أَورده الحقُّ وتلاه ، ورأَى به الـكافَّة أَنَّ عدوَّ هذا الامر السعيد تولّى ما تولّاه ، وتلقَّى سعير شرّه وتصلّاه ؛ واستمرَّ البحث بعد ذلك على أَوَّليَّته ، وأَشرف الفحص على يقين المطلب وجليّته ؛ وبكون ذلك المستطير من مخباه ، المستدير على مسقطه ومكباه ، إلى جانب الموحّدين انتسابُه ، وعليه لا عليهم سعيُه واكتسابُه ، نشأَت لهم بين الخجل والوجل حالة التـناصح والتعـاتب ، ووحشة التباحث والتطالب . وإن كانت مودّاتُهم الوثيقـة موصولة الحبال ، مبتولة الفلال ، مجبولة على الالتحام والاتّصال ، لها الوفاء والصفاء ، والقديم الذي لا يلمُّ به الدروس والعفاء ؛ فُدعت هواديهم فما تطاوَل ، ومضت سوابقهم فما يُرام إدراكها ولا يُحاوَل ، وملأ الزمان حديثُ فخرهم فهو المردَّد المتداوَل ؛ فحبُّهم لهذا الامر وأَهله مكينُ الاستحكام ، ثابتُ القضايا والاحكام ، منشورٌ على صدور الليالي ووجوه الايّام ، وإن عاج عن سنّة إخلاصهم عائج ، وهاج عزمهم عن حماية أَمرهم هائج ، ولّوا الحائن من وجهته لفوره ، وأَسلموا الحائر بمرديات جوره ،

وتميَّز كلٌّ بمقـامه وطوره ؛ ذلك ممّا يسرُّون له من طهارة التمحيـص والتخليص ، وخصُّوا به من أَثَر الايثار والتخصيص .

ولما عمرَتْ باذِكار الموعظة محاضرُهم ، وأَخطرَتْ على مجاري التنبيه خواطرُهم ، ونوّرت بأَبصار التذكير بصائرُهم ، وأُجري النعت فيما درج عليه دارجُهم وصار إِليه صائرُهم ، وأَتى البيان على ذكر هذا الامر العظيم شرحاً وتفصيلا ، وجمعت سوابقُه ولواحقُه في معرض التعوين جمعاً وتحصيلا ، ووصل القول في تنزيل الاشياء منازلها توصيلا ، وبديت مقامات الامام المهديّ ـ رضي الله عنه ـ في استصحاب طائفته تقعيداً بها وتأْصيلا ، حصحص الحقُّ الذي لا يُدفع ، وظهرت الأُصول التي يُبنى عليها ويُرفع ، وتردَّدت المخاطبات والعبارات فيما يفيد من ذلك وينـفع ؛ والموحّدون ـ أَكرمهم الله ـ خلال ذلك في اعتراف دائم ، وإِنصاف لازم واستعطاف ماثل بمثابة الخضوع قائم ، والايّام تمرُّ يوم بعد يوم ، والاقوال تتوجّه في عتب ولوم ، والـكلُّ يعرض في مواقف التوبة ناس بعد ناس وقوم بعد قوم . وبعد أَزمنة متطاولة ، واجتماعات متواصلة ، أَردنا مباشرة أَحوالهم ، وسماع أَقوالهم ؛ فاستُحضر شيوخُهم وأَعيانُهم وطلبتُهم وعمّالُهم في محفل التقت على الصدق أَطرافُه ، واحتوى على مقاصد الحقّ اشتماله والتفافُه ، وجرت على أَهل التقدُّم والسبق نعوته وأَوصافُه . فعند انبعاث الموعظة إلى الجمع وعرض أَحوالهم وأَقوالهم بين البصر والسمع ، تصعَّدت زفرتهم من الذكرى وفاضت أَعينهم من الدمع ؛ وكلّما أُعيد عليهم خطاب ، أَو تُوجّه

إليهم عتاب، أَو التُمس منهم على فصل من الفصول المقرَّرة جواب، تضالَّت أَشخاصهم خجلا، وابتغوا الى جانب المغفرة حولا؛ فمن أَصوات مرفوعة بالمتاب، ومن عبرات دائمة الانهمال والانسكاب، ومن تطارُح على جهة الصفح والاعتاب، واستعاذة من أَسباب الشكّ والارتياب، حتى تمثَّلت صور الاخلاص في الابشار، وتحلّ صفاء الضمائر في قرائن الاحوال والآثار.

وأَوقع الله عند ذلك في النفوس أَنَّ الذي يتطرَّق به القول إلى بعض، ويفضي بقوم في قوم إلى الكراهية والبغض، من يتخلَّل قبائلهم من مشي بنميمة، وساع في ذميمة، ومتقلَّب من صور الاعتياب في كلّ معقوقة منقومة. ولما بُيّن لهم ذلك من وجوه تحقُّقه، وأُطلعوا على موجبات تسبُّبه وتطرُّقه، وعرفوا بما في الاذهان فيه من اتّصالهم به وتعلُّقه، أَقرُّوا بالصدق فيه أَتمَّ إقرار، واستعادوا له ولما تقدَّمه كلّ استقالة واستغفار. فأُمروا بتجديد المتاب وتحقيقه، وحُضُّوا على توكيد الخلوص وتوثيقه، وحُذّروا من ملابسة من يسعى على اتّصالهم واجتماعهم بقطعه وتفريقه؛ فعاهدوا الله تعالى على ذلك أَوثق معاهدة، وشوهدَت دلائل اليقين وإمارة الصدق منهم أَوضح مشاهدة، فتنزّلت ملائكة الرحمة من آفاقها، وفاض على القلوب فيض حنانها وإشفاقها، وعمّمت المغفرة بفضل الله على أَتمّ وجوه تعميمها وإطلاقها، وملئت الجوانح تفريجا وتبشيرا، ووطئت الاحوال تسهيلًا وتيسيرا؛ وانجابت عن النفوس ظلم التوحُّش، وانحلَّت عن العقول عقل الدهش.

وأمر الموحّدون عن آخرهم بالتصالح والتغافر ، واستئناف أحوال التعاون والتظافر ، وقطع أسباب التباعد والتنافر ؛ فاجتمعوا لذلك أفضل اجتماع ، وتمتّعوا من نعماه بأكرم متاع ، واستعيدت أحوال تؤاخيهم وتصافيهم بأحسن استعادة واسترجاع ، وصارت أيّامهم أيّام مصالحة بإيمان ، ومفاتحة بإحسان ، وتأسيس بنيان على تقوى من الله ورضوان .

وأعلمناكم ـ وفّقكم الله ـ بهذه الرحمى ، والمسرّة العظمى ، لتأخذوا من ذلك بأوفر الحظوظ والاقسام ، وتكونوا على ثلج هذا التعريف والاعلام ، وتشكروا الله على طَوْله وإنعامه فهو أهل الطّوْل ولانعام ، وتبادروا الى انتهاز هذا الباب المفتوح مبادرة الاغتنام ، وتقتضوا في التغافر والتصافح وصلة الارحام ، بهذه الآداب الكرام ، وتفعلوا مثل ما فعله إخوانكم الموحّدون على قصد الاعتقاد له والالتزام . جعلنا الله وإيّاكم من عباده الشاكرين لما أولاه ، العاملين بأحقّ مقصوده وأولاه ؛ بمنّه وفضله ، لا ربّ سواه . والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكُتب في الخامس لجمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

الرسالة السادسة عشرة

في فتح المريّة وبيّاسة وأبّذة وموت السُّلَيْطين أمير النصارى ؛

وهي من إنشاء الكاتب أبي عَقيل عطيّة بن عطيّة :

من أمير المؤمنين ـ أيّده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته ـ إلى الطّلَبة

والاشياخ والاعيان والكافّة من أهل بجاية ـ أدام الله كرامتهم بتقواه، وأعانهم على شكر نعماه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه.

أمّا بعد حمد الله الذي تمّت كلماته، صدقاً وعدلا، وعمّت هيئاته، طَوْلاً وفضلا، وأوسعت غُزاته، بما سبقت به عُداته، أسراً وقتلا، وظهرت آياته، وبيّناته، على رغم من رام إخفاءها كفراً وجهلا، وتفرّقت حُماة أمره الاعظم وولاته، في جانب الفتح الذي انفتحت جنباته، رحباً وسهلا؛ والصلاة على محمّد نبيّه المرفوعة مقاماته، الموروده كراماته، نهلًا وعَلا، وعلى آله وصحبه نجوم الهُدى، وجائزي الهَدى، سبقاً وخصلا؛ والرضا عن الامام المعصوم، المهديّ المعلوم، المبتعث لتمكين ما عاد لمتفرّع السعد المكين أصلا، والمنتخب لاعلاء الدين المتين، وإبداء الحقّ المبين، قولاً وفعلا.

وهذا كتابُنا إليكم ـ كتب الله لكم صلة الرحمى، وإدامة النعمى، وأراكم مواقع العبر، ومطالع الآتي الكبر، من هذا الامر العزيز الاسنى الاسمى، وأظهر لكم من صوائب السعود ما يصيب شاكلة الرأي على بعد المرمى ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ وكلُّ فتح بحمد الله قد تفتّحت أبوابُه، وتيسّرت أسبابُه، وخرج به عن الامكان وجوبهُ وإيجابُه، وكلُّ شكّ بفضل الله قد ارتفع حجابُه، وانصدع بنور اليقين منجابُه. فهاكم الآيات الرّبّانيّة قد تجلّت للعيان، وأشرقت في مطالع البيان، وتوضّحت بندائها المسمع وورائها المشرق للصمّ والعميان. والحمد لله الذي

جعل هذا الامر الكريم رافعاً لاصداده ، طالعاً بمظهر سعده وإسعاده ، وفتّ في سواعد حزب الشيطان وأَنداده ، بصـواعق براقه وإرعاده ، ويسّر فيهم غرائب الفتوح ، وعجائب الصنع الممنوح ، من مستنجز وعده وإيعاده ؛ ولا ناشيء ـ وفّقكم الله ـ من الآمال ، ولا طاريء من تناُزح القبول والاقبال ، إلّا وبريّةُ هذا الامر الاعلى متكفّلة بإيجاده ، متخلّفة في مدّه وإمداده .

وقد كانت الاندلس ـ وفّقكم الله ـ هذه المدّة كلّها تستدعي من صرف العناية إليها ، والاقبال بكنهِ الهمّة عليها ، ما ترتّب فضله على الوجوب ، وأَخذ حقّه بمجامع النفوس والقلوب . وكان عدوُّها المجاور ، وأَرقمها المشاور ، قد لجّ في غلوائه ، وركب إلى المطامع ظهور أَهوائه ، وأَخذت وساوس الشيطان تتّصل في إجرائه وإغوائه ، وتخيّل له أَنّ ميامين الاقدار تتصرّف بلوائه ، وتتعرّف من ظعنه وثوائه ؛ فصار أَحرّ من محفحفة الذباب ، وأَحرى إلى انتهاز الفرص من المذكيات على القلاب ، وكلّما اجرى بالخلاء ، ونال غاية على جهة الامهال والاملاء ، سمَتْ نفسه إلى الاستيلاء ، وارتمَتْ إلى أَبعد مرامي الظهور والاعتلاء .

ولما توجّه النظر إلى جهاده وغزْوه ، واستحضر العزم في قطع اعتدائه وعدْوه ، وابتدر الرأي إلى تقييده عن مسرح بأْوه ، ومطمح شأْوه ، رأَينا أَنّ أَمر المريّة ـ حرسها الله ـ من أَهمّ الأُمور ، وآكدها في هذا الغرض المبرور ، والامل الميسور ، لكونها ناظمة بين الجهات الشرقيّة

والغربيَّة ، ورابطة بين البلاد البرّيَّة والبحريّة . واتّفق عند ذلك نفوذ الطَّلَبة الذين بغرناطة ـ أعزّهم الله ـ إلى جهاتهم وانصرافهم ، لحماية أكنافهم وأَطرافهم ؛ فلما وصلوا إليها ، ووردوا عليها ، فلم يلقوا عصا التسيار ، ولم تتركهم دواعي البساط والانبساط للمكث والاستقرار ؛ وعند ما انتظموا على هذا القصد والتاموا ، وركبوا الخيل للجهاد واستلاموا ، وساروا على بركة الله واليمن يقدمهم ، والسعد يخدمهم ، والعناية تصحبهم وتلزمهم ، ووافوا المريّة ـ حرسها الله ـ وقد انتشر من كان فيها من الكفَرة على تلك الربى والاباطح ، واختلط المرعي بالمهمل في تلك المراحات والمسارح ؛ فابتدرهم جنود الله بطعنهم مخلوجة وسلكى ، وتريق دَمهم الهِذر سفحاً وسفكا ، وحازوا هنالك من النفل الكريم ، والخير العميم ، ما ملأ عيونَهم قُرَّة ، ونفوسَهم مسَرَّة ، واقتحموا على بقيَّة الكافرين أَبواب المريَّة ـ حرسها الله ـ فانتجز لهم الوعد الموعود ، وتيسَّر لهم الفتح المعهود ، وتساقت دماء أَساود الكفَرة تلك الأُسود ، واستولوا عليها استيلاء من عضدتْه السعود ، وأَيَّدته الجيوش الباطنة والجنود ، فللّه ما ظهر هناك من آيات باهرة ، وبيّنات ظاهرة ، لا تنسب إلَّا لبركة أَمره ، ولا تعتري إلّا لمعونته المقدرة ونصره .

ولم يَبْق للمشركين في تلك الطحمة الهاجمة ، والنقمة الداهمة ، إلَّا من انحصر في القصبة ، فراراً من الغلبة ، وحذاراً من تلك الصوارم المرهفة واللهاذم المذربة . وأَقام الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ بظاهرها المُطِلّ ،

وشرفها المُقِل، مسرورين برفعة الحال والمحلّ، مستبشرين بانتشار ذلك النظم المنحلّ. ولما اتّصل بابن مَرْدَنيش ما هالَهُ من هذا النبإ المفلق رأى أن ينهض بجملته البائسة على نيّة الغياث، ومبادرة خيله قبل الانتقاض والانتكاث، وأن يتطاول الاستنصار بالاستنسار تطاوُلَ البغاث؛ فاستصرخ بالسُّلَيطِين استصراخ الملهوف، تقويةً لأمره المضعوف، ورجاءً في استنقاذه من الحتوف. ولما حسّ بندائه، ورأى ما أخذوا عليه من دائه، وبادوا إليه من غذائه، بادر بنفسه، واعتقد نصرته في كفّالة بأسه. وتضافرت جموعُهم البائدة، وجنودهم الحائدة، على المريّة ـ حرسها الله ـ في أحفل عَدَد، وأوفر مَدَد؛ فلم يزد الموحّدين ذلك إلّا شهامةً وصرامة، ولا تعرَّفوا بنزول الكفَرة إلّا عدّةً وكرامة، واستمرُّوا على حصر القصبة المذكورة والكافرون يرون إخوانهم في قبضة الاسرة، وحالة العسرة؛ فيخترقون فناء الحسرة، ويشرقون بعد العبرة والزفرة؛ وسلّط الله عليهم في أثناء ذلك من الرغب، بمقاساة ذلك المنظر الكريه الصعب، ما زلزل أقدامهم عن مواقفها، وغمّ نفوسهم برواجفها، وأراهم مساقط هامهم في معارك تلك الصدمة ومزاحفها؛ فولّوا على الادبار وهلًا ووجلا، وتنافسَتْ أقدامُهم في الفرار سرعةً وعجلا، إذا رأوا غير شيءٍ ظنُّوه رجلا، وإن نعب ناعبٌ رأوه حيناً مرتحلا، وأجلًا معجالا.

وقد كان الطَّلَبة ـ أعزَّهم الله ـ خاطبونا باجتماع الكفَرة وائتلافهم، ومحاولتهم الثبوت في محلّ انقراعهم وانجعافهم؛ فرأينا أنّ الله تعالى قد يسّر

ما كان يؤمّل من انتسافهم ، ويحاوَل من هلاكهم وتلافهم . فسرنا على بركة الله وعونه وقد تحرَّك الوجود بأَسره ، ووثق الجميع بفتح الله ونصره ، وفدح الكافَّة بما ينتجز في ذلك من الوعد الصادق لامره . ولما نزلنا على مرحلة من هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ وقد انبسطت النفوس لذلك الجهاد المبرور ، والغزو المشكور ، وعمّها من الفرح والسرور ، ما كادت تسبق به الجسوم لمباطشة ذلك العدوّ المقهور ، وافى البشيرُ بنكوصهم على الاعقاب ، ورجوعهم بهول المطلع وكأْبة الانقلاب ، وإجفالهم في ذلك المهمه واليباب ، بحالة الذهاب والتباب . فرجع الموحّدون على بركة الله وقد نالوا الاجر والغنيمة ، واكتفت لهم الفتوح هذه الغزوة العميمة ، والحركة العظيمة ؛ وكانت ـ أَعزَّكم الله ـ على قرب مأْخذها ويسر مقصدها أَبلغ في إهلاك الاعداء من غزوهم في عقر ديارهم ، وقتلهم عند محمى حماهم وذمارهم ؛ ولقد ظهر في ذلك لأُولي البصائر والابصار ، ما وضح وضوح النهار ، وصار عبرة لأُولي الاعتبار .

ولما جدَّ أُولئك الاشقُّون في الهرب ، وشدُّوا حيازيمهم للقاء الموت والعطب ، أَخذ الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ بمخنق أُولئك الكفَرة المحصورين ، أَخذاً قذف في قلوبهم السلا ، ولسّهم بالكريهة وهل يبقى على البئر الخلا ؟ فتيسّر أَمر تلك القصبة ـ حرسها الله ـ على أَحسن وجه وأَجمله ، وأَتمّ صنع وأَكمله ، وتحصّل الموحّدون فيها على غاية الظهور ، ونهاية الوفور ؛ فارتفعَتْ أَصواتُهم بالحمد والشكور ، وسطعَتْ آياتُهم في

مطلع الضياء المشرق والنور ، وبُدّل خوف تلك المدينة ـ حرسها الله ـ أَمانا ، وكفرها إيمانا ، ونطقت البيّنة التهليل ، بذلك الصنع الجميل ، إفصاحاً وإعلانا ، وتيسّرت عوارف الآمال ، ولطائف الاجمال ، تمكُّناً وإمكانا .

ولما اتّصل بالكفَرة المنهزمين هذا النبأ المهلك ، والحتف المدرك ، عاجلهم الامر الوحيّ ، وداخلهم الداء الدويّ ، وأَراهم عاقبة الخسار والبوار رأْيهم الدبريّ . ثمّ وصلوا إلى ساحة غرناطة ـ حرسها الله ـ منجزين ببقيّة ذماء ، ومحيلين بأَثر حميّة واحتماء ، وبواطنهم قد عصّتْ بالفرَق ، ونفوسهم تفيض من الغصص والشرَق ؛ وكلّما لاح بأُفقهم لائح ، وصاح بعقرهم صائح ، تألّهم للجبين ، وأَفهمهم سرعة الفتح المبين ؛ فهم بين أَوحال تعترض ، وأَوجال لا تنقرض ؛ وشاهدوا مدّةَ إقامتهم من تلك الاسوار ، المجلّلة بالحماة ، المكلّلة بالكماة ، المتوغّلة في تلك المرماة والمسماة ، ما زادهم خبالا ، وأَورثهم وبالا ، وأَراهم وقع المكاره حسًّا وخيالا ؛ والموحّدون الذين بها ـ أَعزّهم الله ـ يغيرون على أَكنافهم ، وينقصون من أَطرافهم ، ويتربّصون بهم دائرة السوء في إحفالهم وإيجافهم .

ولما رأَى السُّلَيْطين ما غمره من تلك الاهوال ، وتضاف عليه من الخزي والنكال ، وأَفضى إليه من ذلك المآب الخاسر والمآل ، فرّ من الموت وفي الموت وقع ، واتّسع الخرق على الراقع فما رفا ولا رقع ، وأَلقى في آلاته المنتدبة ، ومجانيقه المنتصبة ، ما تصلى به ناره من النار الحامية الملتهبة ؛ ثمّ استتبع ما جمع من تلك الجنود المنهزمة ، ونثر ما أَلّف وحشر من تلك

الجموع الملتئمة ، وسار يجود بنفسه ، ويتطارح على رمسه ، ويندب في يوم تعسه ، ما أَسلف في أَمسه ؛ ولما وصل من مقربة من بيَّاسة ـ حرسها الله ـ قيَّدته المنيَّة بقيدها ، وأَودعته مظلم حفرتها وضيق لحدها ، واقتضت نفسه الخبيثة اقتضاءَ العزم عجَّل على النسيئة بنقدها . وصدر فرط من معه هنالك من أَشياعه وأَتباعه بذلك المرأَى الهائل ، والمنحى الجائل ، أَجفل من النعام الشائل . وعند إِحباس الطَّالَبة الذين فتح الله لهم في المريَّة ـ حرسها الله ـ بهذا الامر الطارق ، والفتح الخارق ، بادروا للفور مسرعين ، وجدُّوا للحين مهطعين ، يصلون التأْويب بالاسْآد ، واثقين بنجح الاجتهاد ، وحامدين عاقبة الغزو والجهاد ، حتى انتهوا إِلى بيَّاسة ـ حرسها الله ـ فتلقَّتهم هنالك عجائب الفتوح ، ورقَّتهم غرائب الفضل الممنوح ، في مراقي الظهور والوضوح ؛ وخرج إِليهم أَهلُ القطر ـ حرسه الله ـ جمًّا غفيرا ، ونشراً منتشراً كثيرا ، كلُّهم يعلن بالدعاء تعظيماً وتكبيرا ، ويسأَل بركة الوعي والاسترعاء تمكيناً وتقديرا ؛ فلم يأْلوهم تسهيلًا وتيسيرا ، ولا تعرَّفوا من قِبَلهم إِلَّا بشرى وتبشيرا . وساروا إِلى المدينة ـ حرسها الله ـ مفتَّحة لهم الابواب ، ميسَّرة لهم الاماني الرغاب ، تتهلَّل بهم وجوه الآمال ، وتقتبل وفود الاقبال ، على ما اقتضاه ذلك العجب العجاب . وقد كان انحصر بقصبتها من لم يَرَ الامر من وجهه ، ولا تصوَّره على كنهه . ولما أَبصروا تلك الغاشية قد لحقتهم ، ورأَوا تلك الآزفة قد أَرهقتهم ، بادروا إِلى أُبَّذة ـ حرسها الله ـ مبادرة الفلّ المنهزم ، والقلّ المصطلم .

ولما اتّصل بالطّـلَبة ـ أَعزّهم الله ـ نبوُّهم قاموا بتثقيف تلك القصبة الاشِبة والمدينة الحصينة ، وملؤُوا نفوس الناس بما سكّنها من الامنـة والطمانينة ، وساروا على الفور طالبين ، أَثر أُولئك الهاربين ، حتى أَفضوا إلى أُبّذة ـ حرسها الله ـ فتيسّر لهم الفتح الجميل ، والمنح الجزيل ، ودخلوها بحمد الله أَسرع من طرفة العيْن ، ولم يسلموا البْدار والابتدار لمثبط الاناة والاين ، بل صمّموا تصميم الاجدّ ، وتمّـموا ذلك الصنع الكريم بمقتضى الرأْي الاسدّ ، والامر الاشدّ . وانفتح أَثناء ذلك من الحصون الممتنعة ، والمعاقل المرتفعة ، ما كان يعزب عن الاوهام ، ولا يقرب لتناول الجيش اللهام ، أَتلاعٌ تُزاحم أَعنان السماء بمناكبها ، وتُصادم فدوع النجوم بذوائبها . وبيّاسة وأُبّذة ـ حرسهما الله ـ قطران عظيما المنـافع ، متّسعا المسارح والمزارع ، ممرعا الجوانب والاجارع . وعلى بيّاسة منها كانت عمدة الفار في شنّ المغار ، والالحاح في الاضرار ، وبثّ السرايا في تلك الجهات والانظار ، والانسحاب على ما يعّـموه من الاصقاع والاقطار ؛ وقد كانوا اتّخذوها أَصلًا يسندون إِليه ، ويعتمدون عليه ، فشحنوها بالآلات المعدّة ، والاقوات المدّة ، تحصيناً لاُمّ مثواهم ، وتمكيناً لاُمّ عدواهم . وكانت بين بلادهم وبين بلاد الاندلس ـ وفّقهم الله ـ في العهد المتقادم مسيرة أَيّام للشديد المُدبدب ، والسريع المُقرّب ، في مهامه طامسة الصوى ، متّصلة المنازل المستوبلة المحتوى ؛ وكانوا إِذا راموا الخروج طالت عليهم الشقّة ، وكثرت المشقّة ، فلا يصلون إِلّا بعد التقليع والتحذير ، واتّصال

البرد بينهم والتنوير ، فيرجعون عن الخيبة والعناء ، كارّين من ذلك السبسب والدهماء ، إلى أن تمكَّن لهم أخذُ بيَّاسة ـ حرسها الله ـ فحصلوا منها بالجامع الرابط ، والمانع الحائط ، لا يعزب عنه محاول ، ولا يبعد عنهم متناول ؛ فأَحلُّوا العباد ، وأَخلوا البلاد ، وأَخافوا الاغوار والانجاد .

والآن ـ وفَّقكم الله ـ قد استراحت الاندلس من دائها العضال ، واستباحت حمى الكفرة برهب القراع والنضال ، وأَراحت بنور الايمان ظلمة الكفر والضلال ، وارتاحت بنفائس اليمن والامان في ملابس الحسن والاحسان والافضال . وخاطب الطَّلَبة ـ أَعزَّهم الله ـ معلّمين على الجملة والاجمال ، بتلك الفتوح التي تسنَّت على غاية الاجمال ، على ما شاءت سنيَّات الآمال ، ومبيّنين بأَنَّها ـ والحمد لله ـ متَّصلة في عنفوانها ، جارية في ميدانها ، مِلْء عنانها . وأَعلمناكم ـ وفَّقكم الله ـ بما تسنَّى من هذه المسرَّات المتواترة ، والخيرات المتظاهرة ، والآيات الظاهرة الباهرة ، لتشيموا بروق الرحمة ، أَين مصابها ، وتستقرَّ في نفوسكم محلّ هذه النعمة ، ومصابها ؛ فكم تيسَّر في هذه المكاتبة العظمى من فتح اندرج على بواهر الفتوح ، ومنحٍ اتَّصل بسنيات المنوح ، ونصر تُصُرّف في نيله بمدد الملائكة والروح . ألم يكن هذا الكافر الخاسر عجَّل الله بنفسه إلى النار ، وأَحلَّه متبوَّأَه من دار البوار ، يشمخ بأُنفه ، ويعرض تأَنّي عطفه ؛ وها هو مجدَّل بحتفه ، ومبدَّل من حياته ونجاته بنسفه وخسفه . هذه ـ وفَّقكم الله ـ آيات بيّنات ، وبراهين متعيّنات ، قد سفرت عن مناظرها الرائقة ،

وأَفصحت بعبَرها الناطقة ، وأَنجزت ـ والحمـد لله ـ مقدّمات الوعود ومتمّمات السعود السابقة ، والحمد لله الذي وصل المنحة السنيَّة بكمالها ، وأَطلع هذه الدعوة العليَّة في مظاهر جمالها وإِجمالها ، وجعل العاقبة الحسنى بمبدأها الأكرم الاسنى ومآلها . والله يجعلكم من الشاكرين لنعمه المتَّصلة الامداد ، المشملة الاسعـاد ، الجارية على أَبعـد الغايات والآماد ؛ بمنّه وكرمه . والسلام .

كُتب في العشر الاوَّل من شعبان المكرَّم سنة ثنتـين وخمسين وخمسمائة .

الرسالة السابعة عشرة

وهي أَيضاً من إِنشاء الكاتب أَبي عَقِيل عطيَّة بن عطيَّة المذكور ، يذكر وفود القبائل الذين ببلاد السوس والتماسهم الامر وتوحيدهم وما انضاف إلى ذلك من الوصول إلى تينملَّل وزيارة قبر المهدي ابن تومرت :

من أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والاشياخ والاعيان والكافَّة بفلانة وأَنظارها ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه ، وأَمتعهم بعوارف نعماه وحماه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمَّا بعد فالحمدُ لله أَهل التقـوى والمغفرة ، ذي الرحمة الميسَّرة ، والمعونة المظهرة المقدرة ، مُقيم قواعد هذا الامر العزيز على قواعد الخير

والخيرة، ومُديم نضرة النعيم للوجوه الضاحكة المستَبْشرة؛ والصلاة على محمّد نبيّه المؤتى بجوامع الكلم، وبوالغ الحكم، المتقرّرة. المجتلى في كشف الظلم، وإنارة القصد الامَم، بمطالعه المشرقة النيّرة؛ وعلى آله وصحبه الكرام البرَرة، أُولي النفوس المتنوّرة، والقلوب القابلة المثابرة؛ والرضا عن الامام المعصوم، المهديّ المعلوم، ذي الوعود المظفرة، والسعود المسفرة، المبتعث بالبصائر المبصرة، والسرائر الطاهرة المطهرة.

وهذا كتابُنا إليكم - كتبكم الله ممَّن أَبصر آيات الحقّ المبين تُظْهَر وتُبْرَز، وغايات السعد المكين تُحار وتُحْرَز، وحرمات الدين المتين تُحْرَس وتُحْرَز، ومقدّمات هذا الامر الميمون الامين تستنجز فتُنْجَز - من حضرة مرّاكش - حرسها الله - وقد كرُم بفضل الله الورد والصدَر، ونيل المنح المنتظَر والفتح المبتدَر، وجرى في استنانه، ملءَ عنانه، القضاءُ المسعد والقَدَر؛ فاقتضت النفوس - والحمدُ لله - أَحوالها السنيَّة، وآمالها الجنيَّة، وجمعت في منال أَجرها، ومآل يسرها، العمل والنيَّة، ونالت بسعادتها المستفادة، ووفادتها المستجادة، الامن والامنيَّة. وكلُّ ما يطرأُ بحمد الله من المنح الباهرة، والمنن الباطنة والظاهرة، فعن بركات الامام المهديّ - رضي الله عنه - منشاة ومنبعة، ومن مقاصده الشريفة، ومشاهده المنيفة، مشرقة ومطلعة. والحمدُ لله الذي تيسَّر به الخير أَجمعُه، وتحصَّل لأَولياء أَمره الاعظم وأَهله ما يبهر مرآه ومسمعُه؛ وإليه يحمد المرءُ ما تقدَّم بين يديه ممَّا يحظيه وينفعُه.

وقد كنّا رأينا ـ أعزّكم الله ـ أن ننهض على بركة الله وعونه إلى جهات بلاد الموحّدين ـ أعانهم الله ـ على قصد الاجتماع بجميعهم ليتجدّد عهدُهم بالذكْرى ، وتشافههم ألسنةُ البشْرى ، وتتمكّن من نفوسهم مقاصد الحسْنى واليسْرى ، وانضاف إلى ذلك من القصود المكرَّمة ، والغايات الميمَّمة ، ما تُيمّن به ، ورُجي الخيْر بسببه ، واستحضر العزم في ابتغائه وطلبه . فسرْنا بمن أمرنا بالنهوض من مشيخة الموحّدين ـ أعانهم الله ـ وأعيانهم وطَلَبَتهم وحُفّاظهم لا يقطعون واديا ، ولا ينزلون ناديا ، إلّا وكُتب لهم به عملٌ صالح ، وأملٌ سانح . واجتمع هنالك ، بمن تجاوز تلك المسالك ، من قبائل جدْميوة ، ومَصْمودة ، وجنْفيسة ، ورجْراجة ، وحاحة ، كلُّ قبيل منهم في مستقرّها ، ومصافٌّ ممرّها ، قد أغصّت الاباطح والرُّبى ، واستروَحت النصر بمناوحة تلك الصَّبا ، وقد أعدُّوا لقبول الموعظة ، ولادّكار الموقظة ، أسماعاً واعية ، وقلوباً راعية ؛ فأُخذ معهم على جهة التذكير والتبصير ، في التعريف بمقاصد هذا الامر المشرق المنير ، وتقدير ما يسّر لهم به من مطالب التيسير ، ومذاهب التبشير ، وشمل جميعهم الحنان والامتنان ، رحمةً للكبير ، وشفقةً على الصغير ، ورفقاً بالقوارير ؛ فطار بهم الفرح كلَّ مطار ، وتحصّل لنفوسهم كلُّ استبصار واستبشار . واستمرَّ الامر على هذه الصورة المجلوّة ، والسورة المتلوَّة ، منتَقلةً منتَقلة ، ومرْحلةً مرْحلة ، وكلُّها تمكث فيها بحسب ما تقتضيه الحالات المحاولة ، والأمور المزاولة ؛ والموحّدون ـ أعانهم الله ـ ينالون في

أَثناءَ ذلك من الخيرات المنهملة ، والبركات المكتملة ، ما عظم حسًّا ومعنى ، وبهر حسناً وحسنى .

ولمَّا وصلنا أَحواز بلد حاحة ـ عمَّره الله ـ تلقَّينا هنالك جماعةً من قبائل جَزُولة الكُسْت ـ وفَّقهم الله ـ وهم يؤُمُّون هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ راغبين في الامان بالايمان ، وطالبين عموم الفضل والامتنان ، وسُوِّغوا ما أَملوه من المنن والالطاف ، وأُعلموا بما في الخلاف ، من الهلكة والتلاف ، وبيّن لهم أَنَّ المؤْمن كالنخْلة طيّبة القطاف ، والكافر كالأرْزة مريقيَّة الانعجاف ؛ فنطَقَتْ قرائن أَحوالهم ، على مطابقة أَقوالهم ، بما عندهم من صدق الرغبة ، وحسن التوبة ، وتمكُّن الفيئة إلى أَمر الله والاوبة ؛ وهم يتذمَّمون من إصرارهم ، ويتوسَّلون بخلوص إعلانهم وإسرارهم ، ويصرّحون بأَنَّ ما سلف من أَعمارهم ، ليس من إعمارهم . وكان الاجتماع بهم على أَحسن ما أَملوه ، وأَيمن ما سأَلوه ، وتقلَّدوا بتقليد البيعة عهد الله الذي احتملوه ، ثمَّ صدروا على بركة الله وقد ظفر بالرحمة آئبُهم وتائبُهم ، وشكرت مواقع النعمة أَلسنتُهم وحقائبُهم . وكانت في هذه الموافقة ـ أَكرمهم الله ـ عبرةٌ من العبَر ، وآيةٌ من آيات الله الكبَر ، فإِنَّها كانت على غير علمٍ من الجهتَيْن ، ولا ارتباط من الطرفَيْن ، بل كان ذلك بأَمر إلاهيّ ، وتسخير ربَّانيّ . واستمرَّ سير الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ لإتمام مقصدهم الاتمّ ، والاهتمام بغرضهم الاهمّ .

ولمَّا وصلنا إلى السوس ـ عمَّره الله ـ تجدَّد للنفوس ـ أَعزَّكم الله ـ

هنالك من العمل على التقوى والبرّ، ومراقبة حدود الله في العلن والسرّ، ما استرسل على العموم والخصوص، وتبيَّن في مقامات الاخلاص والخلوص؛ وظهر هنالك من آثار تلك البداية، وأَنوار شمس الهداية، ما صار أَوضح في النفس، وأَبين للحسّ، من نور الشمس. وكان الوصول إليها أَوَّل يوم من شهر رمضان المعظَّم من هذا العام المبارك ـ يمَّنه الله ـ فيا سُحبَ النعمة اسكبي، ويا خيل الرحمة اركبي! فللّه ما ظهر هناك ـ أَظهركم الله ـ من آيات جليَّة، ومقامات سنيَّة عليَّة، وكرامات معناويَّة وحسّيَّة.

ولمَّا جدَّ الموحّدون ـ أَعانهم الله ـ في السير، وتجلّت لهم في البدار صورة الخيرة والخير، وصلوا الى تارُودانت ـ عمَّرها الله ـ فأَلفوا فيها من قبائل السوس ـ عمَّره الله ـ جموعاً غَشَتْ أَديم أَرضها، وامتدَّتْ مع طولها الممتدّ وعرضها، كلُّهم ينافس في البركة، ويرغب في الاختصاص بحظّه من تلك الرحمة المشتركة. فاجتُمع بهم قبيلًا بعد قبيل، وجيلًا إِثر جيل؛ وصدروا عن مواقف التسليم وقد نالتهم الرحمة على السواء، وطارت الفرحة بجثَّتهم في الهواء؛ وظُفر هنالك ـ أَعزَّكم الله ـ من خلوص أَنفسهم بالطاعة، وبلوغهم في العمل بهذا الامر الاكمل إِلى غاية الاستطاعة، ما شهد لهم بالسعادة، وخرق في حقّهم معهود العادة. والحمدُ لله الذي يسّر ببركة أَمره الأُمور، وشرح الصدور، ووصل لأَوليائه العلوّ والظهور، والفرح والسرور.

واستعدّت النفوس ـ أعزّكم الله ـ عند تمام ذلك وكماله ، وبلوغ الجميع غاية مستناله ، من آماله ، لزيارة الامام المهدي ـ رضي الله عنه ـ في مطالع نوره ، وموضع ظهوره ، حيث طلعت شمسُ الدين ، وتبلّجت أنوارُ اليقين ، وسطعت آياتُ الحقّ المبين . ورجونا ـ أكرمكم الله ـ بمشاهدة تلك المشاهد المكرّمة ، والمعاهد المعظّمة ، تجدُّداً لهذا الامر الجديد ، وتيمُّناً بذلك المُرْضي الميمون السعيد ، وتبرُّكاً بلمس المنازل المكرّمة من ذلك الصعيد ، وتمكُّناً لمقاصد هذه الدعوة العليّة في محالّ التأصيل والتقعيد ؛ فسِرْنا بمشيئة الله وبركته ـ رضي الله عنه ـ متكفّلةٌ بتقريب البعيد ، وتدليل المسلك الاوعر في حالة التصويب والتصعيد . فكأنّما رويت الارض ، ليؤدّي ذلك الفرض . ووصلْنا على بركة الله إلى إيجِيليز بمنّة الله فلُوحِظ ما هنالك من الآثار ، بعين الاكبار ، ورأينا البركة في تلك الانجاد والاغوار ، متّضحةً للبصائر والابصار ؛ وغصّ ذلك الجوُّ المشرق ، والافق المحدق ، بما سطع فيه من الاضواء والانوار . ثمّ صُعِد إلى منتهى العصمة ، ومهبط مليكة الرحمة ؛ فنُزِل عن الاكوار ، وتُبُرِّكَ بذلك المسجد المعظّم والغار ، وَدِينَ بتعظيم ذلك المشهد الكريم في الاعلان والاسرار . وأقمنا فيه أيّاماً تبرُّكاً بفنائه ، وتهمُّماً ببنائه ، ونُصِب على باب الغار المقدّس بابٌ يقيهِ من أهوائه ، ويدفع عنه مضرّة أنوائه ؛ ثمّ نُظر في إقبائه ، وتغطية أرجائه ، وتسوية أرضه وسمائه ؛ وتمّ ـ والحمدُ لله ـ على ما

تُوُخّيَ فيه من حسنه واستوائه ، وظهر على جوارح المتملين في إِحيائه ، ما تبيّن من نوره وضيائه .

واستمرّت التلاوة في المسجد المكرّم ، مدّة الاقامة بذلك الموضع المعظّم ، ليلًا ونهارا ، وسرًّا وجهارا ، واجتمعْنا هنالك بشيوخ هَزْرغة وأَعيانهم ـ وفّقهم الله ـ وبُشّروا بما توجّهَ إِليه سؤالُهم ، وأَمَّنْتهُ آمالُهم ؛ فطابَتْ قلوبُهم وحسنَتْ ظواهرُهم وغيوبُهم ، وبُذِل لهم من الصفح الجميل والمنح الجزيل مسؤولُهم ومطلوبُهم . وودَعْنا تلك المنازل المرفّعة ، وقد أَوعت النفوس المودَّعة ، وصارت القلوب المشيِّعة المشيَّعة .

واتّصل السير ـ أَعزَّكم الله ـ في أَثناء تلك الجبال التي يرتدُّ الطرف عن مداركها ، ويستجدُّ طالب العصمة في مسالكها . فلم يزل السير والتسهيل يأخذ بالضبْع ، ويظهر إِثر ذلك المرتبع والربْع ، ويدلُّ عن مسلكها الانْبسَط ، ومأْخذها الاحْوَط ، على مقتضى النظر والطبْع . وعند ما انتهينا الى آنسا ـ عمَّرها الله ـ وهي طرف بلاد السوس ، أَلفينا قبائل تِينْمَلَّل وهِنْتاتة ، ومن انضاف إِليهم من قبائل تلك الجهات ـ حرسها الله ـ قد انبسطَتْ على بسيطها ، وأَحاطَتْ بمحيطها ؛ فقضوا لُباناتهم من التسليم والاجتماع ، ورأَوا أُمنيّاتهم من مدارك الافئدة والابصار والاسماع . وأَقام الموحّدون هنالك متعرّفين من الخيرات التي أَرسلت سماءَها ، ووصلت نماءَها ، وأَرَتْ بنموّ البركة ريعها ونماءَها ، ما وسّع الجميع ، وأَلزم الصنيع ، وأَمرَ جنابهم المريع ، ونظم بوقده الرهدة والريع . وكانت البيّنة ـ أَعزَّكم

الله ـ على أَن نعم بالتطوُّف قبائلُ القبلة من صِنْهاجة وهَسْكُورة وكافَّة من بتلك الجهات ـ حرسها الله ـ قصداً في إكمال النعمة عليهم، وإقبال الرحمة إليهم.

ولمَّا رأَينا أَنَّ فصل الشتاء قد أَشرف، وفصل الخريف قد انقبض وانصرف، ووقت الاعتمال فيما يستقبل من الاشتغال قد أَبد وأَزف، وما كان تُوُخِّيَ من الاجتماع بقبائل الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ قد كُمِّل، وأُدرك ما يُمِّم وأُمِّل، ورأَينا أَنَّ الاحوال بعواقبها تكمل، وأَنَّ الاعمال بخواتمها الشريفة تشرف وتجمل، رأَينا أَن نختم هذه السفرة التي سفَرَتْ عن العجائب، وأَظفَرَتْ بالرغائب الغرائب، بما هو غاية الاعمال الحسنة، ونهاية الآمال الممكنة، من زيارة قبر الامام المهديّ ـ رضي الله عنه ـ حيث تبوَّأَ شخصُه الكريم، وتروَّض نعيمه المقيم، وتوضَّح نوره المبين وأَمره العظيم؛ فسرنا على بركة الله وعونه والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه، وسارع بها الحرص إلى معالمه المقدَّسة وأَعلامه. ولمَّا نزلْنا على مرحلة من آنسا ـ عمَّرها الله ـ وافى وَفْدُ جزولة وهسكورة وقبائل الكُسْت من شيوخهم وأَعيانهم وأَهل الحلّ والعقد منهم وقد طاروا لِلّحاق، وثاروا للرحمة والاشفاق، واستنزلَتْهم عوارفُ النعمة من مظاهر الآفاق، وغوامض الانفاق، ومسحَتْ أَيدي المنّة على ما كان عندهم من الشقاق والنفاق، ورأَوا أَنَّ أَمر الله لا تمنع منه الجبال الشامخة، والاطواد الباذخة، بل هو مسترسل على الابعد والاقرب، ومستولٍ على الاسهل والاصعب، وعدٌ موعود، وأَمرٌ مشهود؛ فوصلوا تائبين آئبين، وعن سبيل

الشقاوة والغباوة بائنين وناكبين ، وللرحمة المستحقّة والنعمة المستمنحة سائلين وطالبين ، وفي قبول التوبة من الذنوب وتطهير الحوبة من الحرب متضرّعين وراغبين .

وورد في أثناء ذلك ـ أعزّكم الله ـ سائر من بتلك البلاد كلّها من القبائل مثل لمْتة ، وجزُولة ، وكافّة من آوته تلك الاقطار ، وضمّته تلك الانظار ، وحوته السهول والاوعار . وتحرّك ـ أعزّكم الله ـ المغرب الاقصى بجملته وطمت عوارِبه ، وفاضت جوانبه ، بضجّة ذلك الفيض الفائض . وأعلم ذلك الوفد المتقدّم ذكره ، المتقرّر أمره ، أنّ الطُّرُق بسائر تلك البلاد عامرة الناهل ، معلَمة المجاهل ، ليردوا موارد الصفح والحنان ، ويعتصموا بعروة الاسلام والايمان . وأقام جمعهم الكثير ، وملؤهم الكبير الاثير ، وهم يلقون من الموحّدين ـ أعزهم الله ـ ما أودعهم كنف الاهتبال ، وصرّف اليهم وجه القبول والاقبال ، وعرّفهم غاية المستمنح المستنال ، من سنيّات الآمال ، وأسبغ عليهم من رياض الجنّة ، وحياض المنّة ، وارفات تلك الظلال ؛ وأفهموا في أثناء ذلك من مقاصد الحقّ المبين ، وعقائد الدين المتين ، ما شرح صدورهم ، وضاعف سرورهم . ثمّ تأكّدت رغباتهم ، وتجدّدت طلباتهم ، في تقلّد البيعة وشروطها المتبيّنة ، وعقودها المتمكّنة . فاجتمع بجميعهم قصداً في حملهم على المثلى ، وتبصيرهم هذا الحقّ الاجلى ، وتفهيمهم ما يُسّر لهم من هذا الامر الاسنى الاعلى ؛ وعند ما تبيّنت لهم أحوال اليسرى ، واتّضح لهم أنّ من

كذب بالحسنى ميسّر للعسرى ، وتهلّلت صفحاتهم بالبشرى ، وانهلت عبراتهم من الذكرى ، ورأوا في التمسّك بهذه الدعوة العليّة سعادة الأُولى والأُخرى . وأخِذ معهم ـ أَعزّكم الله ـ في تفهيم غرض هذا الامر الكريم من الدعاء الى الله تعالى في السرّ والجهر ، والعمل على طاعته في المنشط والمكره والعسر واليسر . وقُرّبت لهم تلك المآخذ حتّى صارت لنفوسهم في غاية البيان ، وأَرتْهم مقامات السعداء ، ومآلات البعداء ، رأيَ العيان ؛ فنثرَتْ أَلسنتهم من عقال ، وأَتَتْ لكلّ مقام بمقال ، واندفعَتْ خطباؤُهم تعرب بأَلسنة الابانة والاجادة ، فيما تيسّر لهم من السعادة ، وتحصّل لهم من الحظوظ المستفادة ، وأُعلموا بما اجتمعَتْ عليه قلوبهم من العمل على الايمان والامانة والعدل والعبادة ؛ وأَشهدوا على أَنفسهم في الوفاء بالعهود ، وحفظ المقاصد المكرّمة والقصود ، عالم الغيب والشهادة ، وصرّحوا بتخليصهم من الميتة الجاهليّة ، وحصولهم على المطالب الدينيّة والدنياويّة ، في تلك الوفادة ، وانصرفوا ـ أَعزّكم الله ـ عن ذلك المحفل العظيم ، والمجلس الكريم ، وقد ظهر عليهم من صدق الانابة ، وفرط الاجابة ، ما حبّب جميعهم ، وملأ بالمسرّات بصرهم وسمعهم ؛ وانقلبوا إلى بلادهم بنعمة الله وفضله متفيّئين وارف ظلّه ، آئبين بخير ما صدر به الصادر لأهله ؛ ولم تزل جماعتهم تتّصل ، وأَعيانهم وسرواتهم تقتبل ، وشيوخهم وكبراؤُهم تسرع وتستعجل ، يبشر منهم الناهضُ القاصد ، والصادرُ الوارد .

واستمرّ الامر على هذه الصورة المذكورة إلى أَن وصَلْنا إلى تينْسِيلت ـ عمّرها الله ـ فوودعَ منهم بها جمعٌ كثير ، وبشرٌ كبير ؛ وصاروا بفضل الله عليهم أَجملَ صدور وأَبهاه ، ووصلوا في مضاعف إِحسانه ، ومترادف امتنانه ، غاية الشكر ومنتهاه . وأَعلم سائرُ من خصّ بالورود ، من هذه الوفود ، أَنّ كثيراً من شيوخهم عجز عن اللحاق لكبرته ، وقلّة استطاعته على السير وقدرته ؛ فخلفوا منهم على ظهر الطرقات من فتل الزمان قَيْدَه ، وأَضعفت السنون أَيدَه .

وقد كان وَصَلَ إلى تينملّل ـ كرّمها الله ـ بوصول الموحّدين إليها ، وورودهم عليها ، جماعةٌ كبيرة من كرائم قومهم وكبرائهم ، وأُولي التقدّم منهم في مصالح أُمورهم ومعاقد آرائهم ، كلُّهم يرغبون في الاسلام ، ويتوسّلون بحرمة ذلك المقام ، ويرون أَنّهم قد آثرَتْهم السعادة ، على من قدَّمَتْه الوفادة ، بالوصول إلى محلّ الامام ، والحصول من الزيارة المكرّمة ، في تلك الدار المعظّمة ، على تظفُّر بدار السلام . وصدروا ـ أَعزّكم الله ـ وصدورُهم منشرحة بالحسنى ، ونفوسُهم فرحة بأَملها المستدنى ، ووُصَلُهم مرتبطة بهذا الامر الاسمى الاسنى . وقبائل الكُسْت ـ سدّدهم الله ـ قد انبسطت الآن في ظلال الامن والمَنَن ، وحطّتْ أَرجلها عن ظهور تلك القلع والقنَن ، وتحصّنت بما يُسّر لها في أَحصن الوقايات وأَوقى الجُنَن ، واتّسعت آمالهم في الحرث والزراعة متبرّكين بالطاعة ، وشاكرين بغاية الاستطاعة . والحمدُ لله الذي بذل الرحمة لعبيده ، ووصل النعمة بتسديده ،

وأَجزل المِنَّة بنصره وتأييده ، وكمّل هذا الطور الجديد ، والدور السعيد ، ببالغ الصنع وجديده ، وأَلقى مقاليد الامل لمراده في الازل ومُريده ، ويسّر عوارف الفتح المبين ، بتمكين أَمره المكين ، وتمهيده .

ولم نزَلْ نحن ـ أَعزَّكم الله ـ مُذ وادعنا تلك الجهات المذكورة بعقربة من آنسا ـ عمَّرها الله ـ نَصِلُ السير حتّى انتهينا الى تينملّل ـ كرَّمها الله ـ فتعرَّفت النفوس المؤْمنة مناها ، وأَبصرت سناءَ العصمة وسناها ، في محلّها المقدَّس ومعناها ، ورأَت في متبوَّائها المعظَّم ومثواها ، شخص الكرامة ومغداها ، وشاهدت بين قبره المنمَّ ، ومسجده المكرَّم ، روضة من رياض الجنَّة يسحب ظلُّها ويقطف جناها . وتمَّت هذه الزيارة ـ والحمدُ لله ـ تماماً على التي هي أَحسن ، وانتهاءً الى ما يعزُّ من مرضاة الله ويتعيَّن ، واغتناماً لما يتّضح قصده الجميل ويتبيَّن . وسار الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ بعد الموادعة الكريمة ، ونيل البركات العميمة ، وقد تخلَّصت النفوس من الشوب ، واستقبلت بالتوبة النصوح قبل التوب ، وتنقَّت من الذنوب والخطايا كما يتنقّى بالماء دنسُ الثوب ، واستمرَّ السير ـ أَعزَّكم الله ـ وقد أَرسلت الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، ومسخرات بحكمه وحكمته ، وجاءت المُزْن الغوادي ، كما تمشي البُزْلُ مُثقلة الهوادي ؛ فسحَّت في الحواضر والبوادي ، وجادت الربوة والوهدة والقنَّة والوادي . ووصل الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ إلى هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ وقد نشرَتْ بساطها الاخضر ، ونمقَتْ بسيطها الانضر ؛ ودخلوا ـ والحمدُ لله ـ على ما أَمّلوه

من السلامة ، والكرامة ، وأحلّتهم تلك الأجور المنتظمة ، والمقاصد المغتنمة ، محلّ الاقامة ، ودار المقامة . وكان الوصول ـ أعزّكم الله ـ في الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظّم واختتمت السفرة باختتامه ، وأشرقت الآمال والاعمال بلياليه المشرقة ولمّيامه ، وظهرت في تلك المساعي الجميلة ، والمناحي الجزيلة ، بركةُ صيامه ، وقيامه .

وخاطبناكم ـ أعزّكم الله ـ بهذا الكتاب ، على جهة الاقتضاب والالماع بهذا العجب المُجاب ، والفتوح التي هي محارة العقول والالباب . وإلّا فالاوصافُ مقصرة عن نعتها ، والالسنةُ معبرة عن عظمها بصمتها ؛ فاستبشروا بما بُشّرتُمْ به من هذه المنح التي أنطقت الجحّاد ، وخرقت المعتاد . والله يجعلكم ممّن تنعّم بنعماها ، وتعرّض لنفحات رحماها ، وآتى نفسه تقواها وزكّاها ، وهو خير من زكّاها . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كُتب في الثامن من شوّال سنة إثنين وخمسين وخمسمائة .

الرسالة الثامنة عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عيّاش :

أمّا بعد حمد الله الذي عمّ بنواله ، وخصّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمّد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الاكرمين وآله ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيّد

بالآيات العصميَّة ، والبيّنات الحكميَّة ، في كافَّة أَقواله وأَعماله ؛ فإِنّا كتبناهُ إِليكم ـ كتب الله لكم أَعمالاً زاكية نامية ، وآمالاً في بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ وكوافل العصمة لهذا الامر العزيز تضرب بقدحها الاعلى ، وتوجب على الاتّصال حظوة الاحتصال لاهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم حتماً مقضيا ، ووعداً ماتيا ، بين خير الآخرة ، وخير الدنيا ؛ وبثبوت هذه القاعدة ، تستوسق أَحوال هذا الامر الكريم على مقتضى الاقدار المساعدة ، وتستنُّ اطّراداً واتّساقاً على طريقة واحدة .

وقد أَنبأَ كتابُكم الاثير بمكيّفات أَلطافٍ تتيسَّر لكم أَسبابُها ، ولا يُغبُّكم إِشعاراً بالعادة إِلمامُها وانتيابُها ، ولا يبعد عن استطلاعكم دنوُّها من وفق الآمال واقترابُها ، مِنْ خضد شوكةِ لعدوّ ، وكسر حدِّ وحدَّةٍ لذي كفور وعتوّ ، وتعرُّف في أَثناء هذه المجاري لسموّ ، مجدَّد لأَمر الله وطائفته وعلوّ ، واستصحابِ عونٍ على أَمداد من الاقوات ، ومرابط المستحقَّات ، تُشدُّ بها قوى الطاعة ، ويتوخَّى بها ما يتوجَّه من إِقامة فروض الله الممتثلة المطاعة . وجميعُ ما أَشرْتُم إِليه مشكورٌ منحاه ، محمودٌ مقصدُه ومغزاه ، مستمرٌّ على الاجتهاد وسبل الجهاد مأْتاه . فاشكروا الله على ما خوَّلكم من مننِه ، وخصَّكم به من المساعي المبرورة في إِقامة سنَّته وسنَنه ، واحمدوه بواجب حمده يؤْتِكم كفلين من رحمته ويؤْوِكم من ركنه الامثل وأَمكنه ، وتمادوا على أَحسن أَحوالكم وإِقامة وضائف البرّ ، وانثوا ما يرضى الله في الجهر والسرّ . والله تعالى ينجدكم بعونه ، ويجعلكم في كفالة

حفظه وصونه ؛ وعليكم بتقوى الله في جميع أَحوالكم ، ومراعاة التحفُّظ في كافَّة أَعمالكم ، والاعتماد على المذاكرة والاتّفاق في الكثير والقليل من أَشغالكم ؛ ولا يتمكَّن التأْويل في أَمر من الأُمور منكم ولا يغلب التحكُّم في سرّ ولا جهر عليكم . ومتى ظهر هناك أَمرٌ أَو طرأَ في شيءٍ غرمٌ فَلْتعرضوه عن المذاكرة والمشاهرة وتقفوا به على الاتّفاق والاجتماع ثمَّ تطالعوا به قبل إِنفاذه وإِفاتته ففي ذلكَ من الخير والبركة ما تضمَّنَتْه المبشورة من الفائدة ، وجميل العائدة ؛ وبعدها يكون التوكُّل على الله تعالى . والله يوفّق أَراءَكم ويرشد مذاهبكم وأَنحاءَكم بمنّه . والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته .

كُتب في الرابع عشر من رجب الفرد من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .

الرسالة التاسعة عشرة

وهي من إِنشاء الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور :

من أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إِلى الطَّلَبة والموحّدين الذين بإِغْرَناطة ـ أَعزَّهم الله وأَدام كرامتهم بتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام ، وعلى معارج تيسيره منعطف كلّ مرام ، وبحوله وقوّته مورّدُ كلّ بدءٍ من الأُمور وتمام ، وهو

أَهل الشكر والحمد على الاحسان المتتابع والانعام؛ والصلاة على محمَّد عبده ورسوله موضح سبل السلام والاسلام، والمبعوث إلى الاحمر والاسود من كافَّة الانام، وعلى آله وصحبه البَرَرة الكرام؛ والرضا عن الامام المعصوم، المهديّ المعلوم، المخصوص بالعلامات الصادقة والاعلام، المبشر من ظهور أَمره العلي، وتعيينه المراد المعني، بما فاضَتْ تباشيره، وسالَتْ أَساريره على صفحات الليالي والايّام.

فإِنَّا كتبناهُ إِليكم - كتب الله لكم تعرُّف الآلاء المستجدَّة، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مستمدَّة - من منزل الموحّدين - أَظهرهم الله - بظاهر المهديَّة - فتحها الله - ووعدُ الله لاوليائه قد فضَّ الانجاز ختامه، وبرَّز لياليه المخبوءة وأَيَّامه، وأَجرى بأَعلى حزبه المفلح قضاياه الماضية وأَحكامه، وأَخبر طائفة هذا الامر الكريم وعامري صراطه المستقيم، من ثمرات هذه الحركات المشهود لها بميامين الاقدار، المستنَّة في مضمار الاختيار، ما بلغ فيه - والحمد لله - من إِظهار دينه وتمشية أَمره إِلى أَفضل مأْمول، ووقف منه على عناية الله الباهرة للعقول، المطابقة لمواقع المطلوب من فضله والمسؤول، ولله تعالى في بركات هذا الامر العزيز رحمةٌ على العباد ممدودة، وإِشارةٌ في معنى العموم مقصودة، وإِرادةٌ في حياطة المعرق والمشيم والمنجد والمتهم موجودة مشهودة، ليأْخذ الامر العزيز بمجامع الاستواء، ويطبق بمطارح الادواء، ظلم الاهواء، ويعمّها تصديقاً للخبر، وتحقيقاً لوارد الاثر، بالقسط والعدل على حدّ سواء.

وما زلنا ـ أَعزَّكم الله ـ وهذه المطالع الشرقيَّة مأَمُّ الركاب ، وإليها مرتقى الاسباب ، والجهاد المظفَّر ينتابها من كلّ مدخل مبارك وباب ، نلتفت من تلكم الجهة الى العدوة الاندلسيَّة ـ حفظها الله ـ بما يجب لها من الالتفات ، ويجمع على قصدها أَطراف هذه المقاصد والاشتات ، ويجعلها الجهة الميمَّنة وإن تقسَّمت العزائم من جهات ، تمكيناً لاستحداث العزم ، واستئناف الامر الجزم ، الى أَن أَرسل الله من فضل إنعامه ، وصيب إخطاره وإلهامه ، ما استُخير فيه تعالى فصدقت به الاستخارة ، واستقلَّت به الافكار المدارة ، وأَذنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذانها مقدّمة البشارة ، وهو النظر في احتطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق ـ عمَّره الله ـ مجمع البحرَين ، والقطب الآخذ بأَطراف البرَّين ، يختصُّ بعون الله بهذا الامر العزيز إنشاؤها ، ويكون الى إيجاده اعتزاؤها وانتماؤها ، ويرتكز بفنائها عَلَم هذه الطائفة ولواؤها . وإنَّا لنرجو أَنَّ أَشعَّة النصر لتلكم الجزيرة تثبت من مطلع هذا الشارق والشاهق ، وتلمع في كلّ مطرح بكلّ بارق ، وتضمّ الى حزب الله وفيئته كلَّ منافر ومفارق ، ويكون النظر المحتلُّ بذراه ، المنعقد بعراه ، مطلًّا إن شاء الله على المغارب والمشارق .

وقد قويت العزيمة بحول الله على الاشتغال ببنائه ، وعمارة فنائه ، والاخذ في شانه ، وإعداده على مقتضى المدن المحصَّنة المحسنة لأَوانه . واستخرنا الله تعالى ووجَّهنا الشيخ أَبا إسحاق برَّاز بن محمَّد والحاجَّ يعيش ـ أَكرمهما الله ـ للاشتغال بذلك على ما وادعناهما عليه وذاكرناهما به في

كيفيَّة الاشتغال ، وصورة الاعتمال . ولتجمعوا ـ أعزَّكم الله ـ ومن إليكم من الاشياخ الاندلسيّين ـ أكرمهم الله ـ بهذا الجبل المبارك مع إخوانكم الطلبة الذين بإشبيلية ومن عندهم من أصحابهم والواصلَيْن من قِبَلنا الذَين ذكرنا لكم توجيههما؛ وتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها وإجادة الاختيار وتوسعة الغناء . وقد خاطبْنا الشيخ الاجلّ أبا حفص ـ أعزّه الله ـ ليصل الى ذلك المكان إن تمكّن له ؛ وخاطبْنا الشيخ القائد أبا محمّد عبد الله بن خيار ـ أكرمه الله ـ ليصله وتتلاقى هنالك الاراءُ المذاكرة المباركة . وعند الشيخ أبي إسحاق والحاجّ يعيش ما ذاكرناهما فيه ممّا يُعتمد عليه إن شاء الله . والله يُعرّف اليمن في ذلك والخيرة ، ويجعله عنوان الاقبال وفاتحة النصر بمَنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أعزَّكم الله ! خلال النظر في إنفاذ هذا الكتاب اليكم ، سنى اللهُ تعالى ما يصلكم صحبتَه من فتح قَفْصة وما اتّصل بفتحها من مخاطبة عرب قابس الذين فرُّوا منها وقت فتحها ، وطلبهم للامان على ما اقتضته المخاطبة إليكم . ونحن قد استخرنا الله تعالى على التوجُّه الى الغرب والحركة لاستقبال تلكم الجهات ؛ وأخذنا في أهْبة ذلك . فاستعدُّوا له ، وشدُّوا أنفسكم ، واضبطوا مواضعكم ، فكان بنصر الله الذي وعد به وإتمام أَمره لاهله ولا بدَّ من دوامه ما دامت السماوات والارض . فلتعرّفوا بذلك جميع الموحّدين وتبشّروهم به وبمطالعة الفتح لهم إن شاء الله . والسلام .

كُتب في الموفي عشرين من ذي قعدة سنة أَربع وخمسين وخمسمائة .

الرسالة العشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحَكَم بن عبد العزيز بن المُرْخي :

من أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والاعيان والكافّة بقرطبة ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه ، وعرَّفهم عوارف حسناه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

أَما بعدُ فإِنّا نحمد اليكم الله الذي لا إِله إِلّا هو ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على نبيه المصطفى ورسوله . والحمد لله الذي أَيّد هذه الدعوة العليّة ونصرها وأَعزّها وأَظهرها ، ورفع مقامها وأَعلى مظهرها ، ووهب لطائفتها المنصورة ، وصحابتها المبرورة ، من إِنجاده ، وإسعاده ، ما سهّل مراماتهم ويسَّرها ، وساوى في تحقُّق إِنجاز وعوده ، وتيقُّن اتّصال نصره العزيز على أَحسن معهوده ، مضمرها ومظهرها ، وكتب في إعلاء دينه وتمهيد أَمره أَمدها الممتدّ وأَثرها ، وجعل كلمتها الظاهرة ، وملكتها الغالبة القاهرة ، وأَسماها وأَظفرها ، وأَرأَى الفيئة المعاندة ، والاُشابة النافرة على أَمر الله الشاردة ، من عزماتها المظفَّرة ، ومحاولتها الميسَّرة ، ما راعها وبهرها ؛ وأَذلّها وقهرها ، وأَداها بعد الاباء والعناد ، الى الاذعان والانقياد ، وصيَّرها ؛ والصلاة على محمَّد رسوله المبتعث وقد أَظهرت الجهالة منكرها ، وعبدت الجَهَلة طاغوتها وصورَها ، واتبعت في خبط غشواها وسحب فُضول

أَهوائها عمايتها المضلّة وسدرها ، فأَرهق الله بحقّه باطلها وأَخمد شررها ، وأَخذ عن النار ومزالق العثار بحجرها وبشّرها وأَنذرها ؛ وعلى آله وصحبه الذين بوّأَتهم القرابة محلّها وخوّلتهم الصحبة أَثرها ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، المظهر لشريعة جدّه ـ عليه السلام ـ بعد ما أَخفاها الضلال وأَضمرها ، وأَشعرها بالباطل من تبديله وتغييره ما أَشعرها ، فقام بأَمر الله يصدع بنور داجيها ويجلو معتركها ويوضح سبلها الطامسة ويحيي أَثرها ، ويميت مدبرها ، حتّى أَعادها الله على جادّتها اللاحبة البيّنة وقرّرها ؛ وعن مُظاهره ومُؤازره ، وخليفته وصاحبه وناصره ، الامام أَمير المؤمنين الذي بثّ كلمته الهادية ونشرها ، وأَرقاها في مراقي النماء ومدارج الاكمال والانهاء مبيّناً أَغراضها ومظهراً غررها ، ووصّلها الى غايتها من الارتقاء والاعلاء فأَوضح معالمها وأَطلع نيّرها .

فإنّ كتابنا اليكم ـ عرّفكم الله من بشائر هذا الامر العزيز المتواردة ، وفتوحه المتناصرة المتعاضدة ، ما يملأُ أَسماعكم ، ويعمر بوافد المسرّات ، ووارد المبهجات المبشرات ، أَرجاءكم وأَصقاعكم ، ويجمل في شكر نعمه ، والتحدّث بآلائه الجمّة وقسمه ، تلاقيكم واجتماعكم ـ من داخل قفصة ـ مهّدها الله ـ وقد فرج النصرُ العزيز مبهمها ، وأَنار الفتحُ المبين مظلمها ، وأَعادها الله الى ملكة هذا الامر العزيز ونظمها ، وأَلهم أَهلها رشدهم وهداهم ، وصرفهم عن غيّهم الذي استهواهم ، بعد أَن امتدّ في الضلالة مداهم ، واتّخذوا حبَلًا وعناداً لا إلههم هواهم ؛ فتلافاهم برحمته ، وآواهم

إلى حرم هذا الامر العزيز وعصمته ، ومدّ عليهم رواق منّه وظلّ أمنته ، وانتاشهم وقد أشفوا على جُرف العطب وهوّته .

وقد علمتم ـ أعلمكم الله رشادكم ـ ما كان من المنتزي فيها من الايضاح في الفتنة والمروق من الطاعة والولوج في غيابات الارتياد والمعصية ، وأنّه استدعى من ذؤبان الاعراب وأوباش الاكراد شبّاهه في الضلالة ، ونظائره في الغيّ والجهالة ؛ فشنّ الغارات بهم ، وقطع السبل معهم ، وتوصّل إلى السعي في الارض بالفساد بسببهم ، وتراكضوا جميعاً في ميدان العيث ، واستبقوا في حلبة الاعتداء ، وأجروا ملء أعينهم بالخلاء ، وغرّهم ممتدّ الامهال والاملاء ؛ فازدادوا إثما ، وانهمكوا في استحلال المحارم جرأةً على الله وبغيا ؛ فتعيّن حسمُ دائهم ، ووجب توجيهُ النظر الى إطفاء نارهم . وكُنّا ـ وفّقكم الله ـ عند احتلالنا بإفريقية ـ حرسها الله ـ عرّفناكم بموجب هذه الحركة المباركة ، وأنّها لم يتقدّمها قصدٌ ولا أُعمل فيها فكر ، ولا مُهّد لها تعويلٌ عليها ولا عزم ، وأنّ مُحرّكها القدرُ المُسعد ، والباعث عليها لفور الاخذ فيها صنعُ الله المؤازر وعونه المُنجد ؛ وأعلمناكم ببعض ما انطوى فيه من الخيرات المتّصلة والبركات التامّة والارادات الميسّرة ، وما كان فيها من وصول أشياخ العرب وأعيانهم ، وإهطاعهم إلى داعي هذا الامر وبدارهم . وكان من قصدنا فيها وإرادتنا بها النظر في أمر هذه المدرة وإزاحة علّتها وتطهير هذه الاصقاع من دونها ، إذ كانت شجاً في صدور أهلها ، وقذًى في عيون قطّانها ، لكونها أضحت مركز المفسدين ، ومأوى

المتلصّصين المتمرّدين . وكُنّا نتحقّق أنّ الدواء الانجع في دائها ، والامرَ الانفع في محاولتها ، وصولُ جميع الموحّدين - أعزّهم الله - إليها ، ونزولُ جملتهم عليها . وكان ممّا خدع الفسّاق الذين كانوا بها وغرّهم ، واستقادهم إلى التمادي على الاصرار واستجرّهم ، حصانةُ بلدهم ، وشهوقُ أسوارهم ، ووعورةُ موالجهم ، وحرجُ مداخلهم ، وإحاطةُ الصحراء من كلّ ناحية بهم ، وعدمُ الاقوات في البلاد المجاورة لهم ، وتعذُّرُ جلبها من المواضع النائية عنهم ، وأنّ كلّ عسكر ينازلهم من جميع هذه الجهات يستقلُّون بمقاومته ، وينهضون بمدافعته ، وأنّ العساكر الكثيرة والجُمَل العديدة لا يتهيّأ لها المقامُ عليهم ، ولا يمكنها مطاولة حصارهم لكثرة ما تحتاج اليه من الاقوات ، ونزارةِ ما يعمُّها في طريقها اليهم من المرافق والمياه . وهيهات أن تحصن من هذا الامر العزيز الشواهق ، أو تمنع منه السوابق ، أو تعصم من استيلائه الاسوارُ والخنادق ، أو تحول دون مرامه الفيحُ والسمالق ؛ فهو أمر الله العزيز جانبُه ، المكبوت مناويه ومجانبُه ، المأخوذ بين القهر والقسر مقاومُه ومغالبُه . فقدّمنا بين أيدينا طلَبَةَ بجاية - وفّقهم الله - مع من كان معهم من عساكر الموحّدين الذين ببجاية وإفريقية - وفّرها الله - تقدمةً للاعذار ، وأخذاً بالحجّة والاستظهار ، لينتبهوا من سنات الاغترار ، ويثوبوا الى الارعواء والاستبصار ، ويقرعوا بالنجوع بالطاعة ، والرجوع الى الانتظام في تلك الجماعة ، بابَ المتاب والاستغفار ؛ فتقبل توبتهم ، وتقابل بالصفح الجميل أوبتهم . فأبى لهم شيطانهم ، وغلبت

عليهم شقوتُهم ، وتمادوا على بغيهم ، واستمرُّوا على ضلالهم القديم وغيّهم .
وكُنّا بعد انفصال الطَلَبَة ـ أَعزَّهم الله ـ عنّا نهضنا بجملة الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ نؤُمُّ القَيْرَوان ـ كلأَها الله ـ ليكون طريقُنا عليها . وقبل وصولنا اليها وافَتْنا كُتُبُ الطلَبَة المذكورين بأَنَّ الاخسرين أَعمالاً أَوقدوا للعصيان نارَه ، واستشعروا أَشعارَه ، ورفعوا للدفاع أَعلامه وأَخذوا له أَوزارَه . فاستخرنا الله تعالى في النهوض اليهم ، وأَمضينا العزائم المؤيَّدة على الحلول بساحتهم والاطلال عليهم ؛ ونهضنا بالموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ ودلائلُ النجح بادية ، ومخايلُ الفتح لائحة ، وعلاماتُ الظفر متّضحة ظاهرة ، ومعونةُ الله تعالى بتسهيل المطلب وإِدناء المرام كفيلةٌ ضامنة . ولم يعدم الموحّدون ـ وفّقهم الله ـ في طريقهم مرفقا ، ولا لقوا ـ والحمد لله ـ من سفرهم نصبا ، وأَخذوا على طرق بعد العهدُ بسلوكها ، واشتبهت على عمرة هذه الاصقاع مناهجُها وسبلُها ، وأَلفوا بها من المرافق الواسعة والمياه المعينة ما لم يحتسبْهُ أَحَد ، ولا خطر على بال ولا دار في خَلَد ؛ وتيقّن أُولو الالباب وتحقّق أَهلُ الاعتبار أَنَّ هذا الامر مصنوعٌ له ومؤيَّدٌ عزمُه ، ومكتنفٌ بعون الله مرادُه ورومُه ، وأَنَّ الغاية الالاهيَّة والمعونة الربَّانيَّة تنجدان عزائمه وتيسّران أَغراضه ومطالبه .
واستمرَّ يسرُ الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ على هذه الحال الموصوفة ، والصورة المجلوَّة ، الى أَن وصلوا اليها ، وأَناخوا بفنائها ؛ فأَوّلَ إِشرافهم عليها ارتبك الاشقياء في مهاوي المعاصب ، وأَبدوا صفحة المناصب المصالب ،

وكشفوا عن ساق المجاهد المحارب ، ظانّينَ أنّ هذا الامر العزيز تعزُّه سامكاتُ المعاقل وطامحاتُ المراقب ؛ ولو أَحصنت البواذخ وأَجنّتْ ، ودفعت الشوامخ عن المسند اليها وأَكنّتْ ، لمنعهم هذا الحصنُ الذي تصاقب النجم هضباتُه ، وتُذلُّ العصم قذفاتُه ، وتتلفَّح بنسج الغمائم بروجُه وشرفاتُه ، لكن أَمر الله لا تردُّ عزماتُه ، ولا تقاوَم بطشاتُه القاهرة وسطواتُه . واشتغل الموحّدون بترتيب نزولهم وتهيئة مروسهم واضطراب محلّاتهم بأَفنيَتهم ؛ فلما أَصبحوا رجعوا اليهم ونصرُ الله يؤازرُهم ، وصنعُه الكريم يظاهرُهم ؛ فنازلوهم أَشدَّ نزال ، وصالوا عليهم أَعظم مصال ، وأَرَوْهم من هول المصاع وصدق القتال ، ما قصَّرهم عن الاسترسال ، وصيَّرهم بعد التبسُّط والاقدام الى الانقباض والانخزال ؛ فانكمشوا في أَجحارهم ، ولاذوا بقنَنِهم المنيفة وأَسوارهم ، وأَجروا طلق شرّهم في مضمار انخداعهم بمَعْقلهم واغترارهم .

وكانت حولَ البلد غروسٌ وبناءات وعَّرت المسالك وضيَّقت المنافذ وأَشّبت المداخل اليهم والمخارج ؛ فأَخذ الموحّدون ـ وفَّقهم الله ـ في هدمها ، ونظروا في إزالتها وجدُّوا في تعفية رسومها ؛ ونقلوا مضاربهم بحيث يسمعون سِرارهم ، ويتعرَّفون مع اللحظات أَحوالهم ، وأَحدقوا بهم أَتمَّ إحداق ، وأَحاطوا بمدينتهم إحاطة الاطواق بالاعناق ، وشدُّوا عليهم أُنشوطة الحصار والخنادق ، وسدُّوا دونهم خِصاصَ الانقاب والانفاق ، ولم يؤْخذوهم منفساً لانسراب ولا مذهباً لارتفاق ، وأَشْفوا بهم من ضنك

النكال وضيق المجال على شفر الارماق، ونصبوا عليهم مجانيق بلغت في نكايتهم المبالغ، وأحلّت بهم القواضم والدوامغ، ونهكت أسوارهم، وهدمت ديارهم، وعفّت آثارهم، وأصّلتهم بناعب الحمام، ووحيّ الموت الزؤام، أمّهم الهاوية ونارهم؛ وهم مع ذلك لا تسعى بهم إلى منجاتهم قدم، ولا يهديهم الى استنزال الايمان، وتطلّب العفو والغفران، تروّع من العصيان، ولا ندم؛ ولا زادهم ما نزل بهم من أمر الله إلاّ لجاجاً في تهوّرهم، وتتابعاً على غممهم وتحيّرهم. واستيطاءً لمركب الاستنامة الى قريتهم المحصّنة وجدرهم. فرأينا ـ والمستعان الله ـ أنّ مقاتلتهم بآلات تعلو عليهم، ويتعجّل معها مرامُ أخذِهم، أصلح بالموحّدين ـ أعزّهم الله ـ وأصون لهم وأوفق لما نؤثره من الشحّ بهم، والاحتياط عليهم، مع ما في ذلك لهذا الامر من فخامة التناول وعزّة القهر وظهور القوّة وإرهاب العدوّ. وإن كنّا نتحقّق أنّ وعدَ الله لامره ناجز، ونصره لحزبه المفلح لا يحجبه حاجبٌ ولا يحجزه حاجز. فالنظرُ في الاسباب لا يناقض هذا العقد المتمكّن، ولا ينافي الثقة باطّراد فتحه لاوليائه على سنّته الانجب ونهجه البيّن. فأُخذَ في عمل ما يصلح ذلك من الآلات والاشكال، وصُرف الى التهمّم بها والعكوف عليها وجهُ القصد والاشتغال؛ فتيسّرت ـ والمحمود الله ـ في أقرب ما يمكن من الآماد والآجال.

واتّفق بين هذا الامر السعيد وبركاته، وبراهينه الواضحة وآياته، أنْ جلب النصارى العود الموافق لذلك ولم تَجْرِ عادتهم بجلبه، ولا سبق لهم

في غير هذا العام الخروج الى سواحل إفريقية به ، وما تهيَّأ من توصيله إلى هذه الصحراء مع عظم أجرامه وتفاوت خشبه ؛ وذلك معدودٌ من خوارق العادات ، ومضافٌ الى ما سلف لهذا الامر العزيز من مظاهرة الاقدار ومساعدة السعادات ، صنعٌ من الله كريم ، ومنٌّ جسيم يرعون منه سبحانه لا يبرح ولا يريم .

وكان من قصدنا في هذه المحاولات أن يزدجروا ويدّكروا ، ويراجعوا عقولهم العازبة ويستبصروا ، ويكفوا أعماءهم عليه من الغواية ويقصروا ممّن لقت الجهالة على قلوبهم وأعمت الضلالة أبصارهم وأصمّت الغواية أذانهم . فلم يطوروا بجناب التوبة ، ولا يسرّوا للفيئة الى أمر الله والاوبة ؛ والموحّدون في خلال ذلك تتحرّك حفائظهم لغزوهم ، وتتملّط شفارهم لابادتهم ومحوهم . وعند ما قرب كمل الآلات وتمامها ، ودنا اتساقها على الغرض المقصود منها وانتظامها ، وكاد يحرق جوانح الغزاة ـ أعانهم الله ـ احتداماً لابادتهم واضطراما ، رأينا أن نكرّر الاعذار اليهم ، ويزيد تمكيناً وتوكيداً قيام الحجّة عليهم . فأرسلنا اليهم أشياخاً من الموحّدين والطلَبَة والعَرَب ـ وفّق الله جميعهم ـ فعرّفوهم أنّا نرفع عليهم السيف إن تابوا ، ونبذل لهم الامن إن رجعوا الى الامر العزيز وأنابوا ؛ فعتوا واستكبروا ، وأشِروا وبطروا ، وجحدوا نعمة الله عليهم في هذه المنّة العظمى وكفروا ، وفُتحت لهم أبوابُ الرحمة فنكصوا عن دخولها وقهقروا ؛ فعرف الموحّدون ـ أعزّهم الله ـ أنّهم عَمُوا عن النذارة

وصمّوا ، وتردّوا برداء جهالتهم واعتمّوا ، واستمرّوا على عنادهم واتّموا ؛ فازدادت حفائظهم التظاء ، ونيّاتهم خلوصاً في جهادهم وصفاء ، وعزائمهم تصميماً على غزوهم ومضاء . فأذنّا لهم في مناجزتهم ، وحضضناهم على الجدّ في نزالهم واغتنام الأجور العظيمة في قراعهم ؛ فنصبوا لهم الحرب مستعينين بالله ، متوكّلين عليه ، راجين جزيل ثوابه ، متنجّزين كريم وعده ، فيمن حاد عن أمره وعند عن سبيله وأباح محارمه واتّخذ إلاهه هواه . فشاهدوا من جدّهم وشدّهم ما زلزل أقدامهم ، وأذهب جرأتهم وإقدامهم ، وأظهر نكوصهم وإحجامهم ، وأكذب أملهم في الاحتماء ومرامهم .

وتمادى الشغل في الآلات المباركة إلى أن تمّت على المراد وتهيّأت حسب القصد بها . ثمّ استُخير الله سبحانه في إدنائها اليهم وتقريبها منهم ؛ فقُدّمت ، ونصرُ الله يقدمها ، وتأييدُه يكنفها ، وعونُه يُمهّد ويُطرّق لها ؛ فانتهتْ إلى حفيرهم ، واستغلَت على أسوارهم ، وتضاءلَتْ لها منيفات جدرهم ، وصبّتْ عليهم سوط عذاب ، ورمتْهم بالصّيْلَم الصّماء والداهية النآد ؛ ورماهم الله منها بما لا قِبَل لهم به ، ولا استطاعة على مقاومته ودفعه . واستمرّت الحال في التوطئة وردم الخندق لها أيّاماً ، والحربُ تكلُمهم ، والحينُ يبرّزهم الى مصارعهم ويقدّمهم . وكانوا قد بلغوا في تتريس الخندق وتحصينه ، ومجاوزة الحدّ في توعيره وتوسيمه ؛ فاشتغل الموحّدون ـ أعانهم الله ـ في تسويته وردمه ، وناوشَتْهم القتالَ طائفةٌ منهم لم يتوفّوا استعدادها ، ولا تكثّرتْ بسبب اشتغال الموحّدين بالخندق

أَعدادها ، فأَهبَّ الله ريح النصر لأَنصار الحقّ وحُماته ، وأَوليائه الذّابّين عن حرماته ، المجاهدين لاعزاز أَمره وإِعلاء كلماته ؛ فاقتحموا السّتارة عليهم ودخلوها عنوةً على صدورهم وهدموا بُرْجاً من أَبراجها ومسافةً ممتدَّةً منها ؛ وقتلوا عندها جماعةً من جلدائهم ، وجملةً من نجب شجعانهم وأَشدّائهم ، وعضّتهم الحربُ هناك بأَنيابها ، ومدّت الحتوفُ عليهم بأَسبابها ، ودخلت المنايا عليهم من جميع أَبوابها وأَنقابها ؛ فأَدْهَشهم ما عاينوا من ذلك وهالَهُم ، وأَوْهنَ كيدَهم وأَضعف محالَهُم ، وأَضاق عن المصابرة ذَرْعهم وقصّر فيها مجالَهُم ، وتيقّنوا أَلّا وزر لهم من الله ولا منجاً لهم ، وعلموا أَنّهم إن تأَخّروا فراقَ ناقةٍ واستأْنوا ارتدادَ لحظة ، دارَتْ بينهم الدائرة ، ونزلتْ عليهم القاصمةُ الفاقرة ، ودخل الموحّدون المدينة عليهم واستباحوهم من فورهم . فأَلقوا يد الخضوع والقياد ، وأَلظُّوا بالاستغفار والمتاب ، وبادروا بإِرسال أَشياخهم وأَعيانهم وأَهل الحلّ والعقد منهم أَجمعين بالطاعة ، مستقبلين من العثرة ، مستصفحين عن سالف الجريرة والزلّة ، راغبين في قبول الانابة والتوبة ، مادّين لطلب الامان أَيدي الاستخذاء والضراعة ، مستنزلين من فضل هذا الامر ما لم يزل يعهد من العفو بعد الغلب . فقُبل متابُهم ، ووُصلت بسبب التجاوز أَسبابُهم ، وكان إلى حميد العاقبة وسعيد الخاتمة مآلُهم ومآبهم ؛ وبُذل لهم من التأْمين ما رجوْه ، وبلغوا من الصفح الجميل ما أَمّلوه وبغَوْه . إِن كانت سوابقُ ذنوبهم ، وسوالفُ جرمهم وحربهم ، تقتضي ردَّ رغباتهم ، وإِيثامَهم ممّا اكتسبوا من سيّئاتهم ، لكنّ

رحمةَ الله وسعَتْهم ، ومغفرتَه تغمَّدَتْهم ، وسابقةَ الحُسنى هدَتْهم إلى التوبة ويسَّرتْهم ، والمنَّة المعلومة لهذا الامر العزيز عمَّتْهم وشملَتْهم ؛ فأَصبحوا للنعمة مستشعرين ، وبما وهبوه من السلامة في الانفس والاهلين مستبشرين ، ولله تعالى على ما تداركَهم به من إغلاق إيمانهم بحبل القبول وسببه حامدين شاكرين .

وخرج زعيمُهم عن البلد صاغرا ، وسارع إلى امتثال الامر ضارعاً داخرا ، جذلا بما منح من الابقاء عليه في نفسه وأَهله ، معترفاً بالنعمة في التجاوز عن سالف ذنبه وقبيح فعله . واستولى الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ على المدينة أَتمَّ استيلاء ، وأَجراهم الله تعالى في إظهار رايتهم ، وإحراز أَمرهم من النصر وغايتهم ، على متعارف الاسماء والاعلاء ، سنَّةً منه سبحانه لا ينتسخ حكمُها ، ولا يتبدَّل رسمُها ، ولا يعدل عن سمْته الشديد ، وأَثره الحميد ، قصدُها وأَمُّها . فله الحمدُ سبحانه على ما أَولاه ، والشكرُ على ما يسَّره من إعزاز أَمره وسناه .

وكان المنتزي بها قد استهوى جماعةً من عظام الفتنة ، واستغوى حثالةً من أَرذال العامَّة ، فقهر بهم سواهم ، واستولى بهم وتسبَّب إلى استمالة نفوسهم ، وتوسَّل إلى استخلاص نيَّاتهم بإباحة المحرمات لهم ورفع الحدود فيها عنهم ، يرتكبون من الكبائر ما شاؤوا ، ويسترسلون من الجرائم والمـآثم فيما اشتهوا وأَحبُّوا ، ولا وازع يزعهم ، ولا مانع يمنعهم ، ولا قادع يزجرهم ويقادعهم . فتسرَّب إليه من أَجْل ذلك ذُعَّارُ اللصوص

وأُبّاقُ العبيد وأَخابثُ أَهل الحرابة والشرور ، وجاؤوه من كلّ أَوب ، وأَتوه من كلّ فجّ وتسلّلوا إليه من كلّ حَدَب ؛ فاتّخذهم جندَه وصيّرهم بطانتَه ، ووافَقَ نثيرٌ منهم طبقه فأَمِرَ بهم أُمرُه واشتدَّتْ شَوكتُه ، وثقلَتْ بسببهم على أَهل البلد وطأتُه ، وملأَت نفوسَهم ذعراً وفَرَقاً هيبتُه وسطوتُه ؛ فلم يتمكّنوا من نظر فيما ينجيهم ، ولا توصّلوا إلى إراغة أَمر يقرّبهم من هذا الامر ويدنيهم ، لاذكائه العيون عليهم ، وأَخذِه الثنايا دونهم ، وبثِّه الارصاد فيهم ، وبحثِه على أَخبارهم ، وإصاخته لانبائهم ؛ فمن عثر منه على ما يريبه أَو سمع عنه ما ينكره أَحلَّ به عقابَه وأَنهب أَوباشَه مالَه ونوَّع عقوبتَه لهم بحسب أَحوالهم على قدر مراتبهم ؛ فقتيلٌ أَو طريدٌ أَو حبيس . وتجاوَزَ ذلك إلى أَخذ الوليّ بوليّه ، وقتل الحميم بحميمه ، وتعدَّى معاقبة الرجال ، إلى التنكيل بربّات الحِجال ؛ فتحامى الناسُ شرَّه ، وصدَّهم عن كلّ محاولة خوفه ، واسترب الابنُ بأَبيه ، ولم يُثْنِ الأَخُ إلى أَخيه . ولمّا تقرّر ذلك عندنا ، وتحقّق لدَينا ، أَمَنّاهم أَماناً عمَّهم فضلُه ، وكنفهم كهفُه ، وغمرهم إحسانُه ، وأَواهم وكنُه ؛ فأَحرزوا السلامة في أَنفسهم وأَهليهم ، واستقرَّت الدعة والامنة في عِراصهم ومَغانيهم .

وكان الموحّدون ـ أَعانهم الله ـ طولَ مقامهم عليها ، ومدَّ حصرهم لها ، تَتَرادف الارفاقُ عليهم ، وتُساق الارزاقُ إليهم ، وتعتمدهم الخيراتُ من كلّ جهة ، وتُجلب إليهم من كلّ ناحية ، على ما كان بإفريقية في هذا العام من قلّة إصابتها وخلوّ مخازنها ؛ فوضع الله البركة فيما سيق إليهم ، وأُوتي

به نحوهم ؛ فعمَّهم الخيرُ ، وشملهم الرفقَ واليسرَ عونٌ من الله سبحانه ، وإيجادٌ على تتميم مرادهم ، وحفظٌ لعوائده الكريمة عندهم .

وهذا القصرُ – أكرمكم الله – قديمُ الاشتهار ، معترفٌ بشرفه على هذه البلاد والاقطار ، معروفٌ فضلُه وشفوفُه على سالف الازمان والاعصار ، وله من المزايا والمحاسن ما يربي خبره على الاخبار ، ينبعث من داخله الماءُ المَعين ، وتُحيط بخارجه الضياعُ المغلَّة والبساتين ، ويروق الناظر مَرْآه المعجب ، ولا يستغرق مفاخره ولا يستوعب ، ووضعه من الانتهاء في الحصانة والتجاوز في المنعة والوثاقة بحيث لا يصحب مصعبُه ، ولا يتمهَّد إلَّا لهذا الامر العزيز مركبُه ، وهو روحُ هذا الاقليم ومعناه ، وقطبُه الذي تدور عليه رحاه . وكان أبَّاق العرب وشرَّادُهم يلوذون بداره ، ويسندون فيما يزيغونه من عنادهم ، ويحاولونه من إضرارهم وإفسادهم ، إلى منيع حماه ، وقد قمع الله بأخذه كلَّ متطلّع إلى الفتنة وفلَّ شباه . وكان الاشتغال به قد صرَّف النظر إليه ، ووقَّف المحاولة عليه ؛ وقد تفرَّغ بفضل الله النظر في مصالح هذه الارجاء . وخلا التقويم لاماطة ما ظهر فيها من نواشيء الاعتداء ، وانصرف التسديد لطحر الشوائب عن مشارب أهلها والاقذاء . وبالله نستعينُ فيما نحاوله من إقامة الحقّ وتمكين الدين وإفاضة المعدلة ونشر الخير وتسكين الدهماء وإصلاح الخلل ؛ وهو المُنجد والمُعين ، لا ربَّ غيره .

وكُنَّا – وفَّقكم الله – أعلمناكم أنَّ العرب – أصْلَحهم الله – يرجى لهم أن يتلافوا زللهم ، ويستدركوا خطلهم ، بغزو في جزيرة الاندلس – حاطها

الله ـ يكفر الله خطاياهم ويصلح عملهم . والنظرُ في ذلك متوالٍ ، والاخذُ فيه متّصل ، وعونُ الله عليه مرتقب ، ووعدُه الكريم منتجز ، وهو ـ جلّتْ قدرتُه ـ متمّم أَمره ومُنجز وعده ، وهو المستعان ، لا ربَّ سواه .

وظهر من نتائج هذه الحركة السعيدة ، وآثارها الحميدة ، أَنَّ الله تدارك بها هذه الجهات بعد أَن أَشْفَتْ على تلافها ، وقبضَتْ عروق النفاق في أَوساطها وأَطرافها ، وأَومضَتْ بوارق الفتنة في جميع أَرجائها وأَكنافها ، وكانت أَحوالها تنقل إلينا غير صورها ، وتحكي على غير حقائقها ، ويهوّن من أَمر هذه المدرة ما ليس بهَيْن ، ويضعّف من حال غويّها ما ليس بضعيف ؛ فكذّب الخُبْرُ الخَبَر ، وشهدت المشاهدة بتحريف النقل وإبانة الحقيقة أَنَّ هذه المدينة من الحصانة والامتناع ، والسموق والارتفاع ، بحيث لا تُنال في المدّة القصيرة ، ولا يتمشّى مرامها إلّا بمحاولة الصعبة والمطاولة المديدة ، وإنَّ تيسيرها على الوجه المذكور ، والمعنى المرويّ المأثور ، في هذا الأمد القريب ، لمِنْ بركات هذا الامر العجيب ، وسعوده المطّردة ، وعوائد الله الجميلة ، فاشكروا الله تعالى على هذه العطايا الجمّة ، والآلاء المتتابعة ، وعضّوا بالنواجذ على التمسُّك بعروته الدعة بركوب سفينته ، وتملّوا النعمة بالايواء الى ركنه ، وتيقّنوا أَنَّه أَمره الذي تكفّل بعضده وأَبى إلّا إتمام نوره وإعلاء حزبه . وانشروا هذه الفتوح البيّنة والبشائر المبهجة ، وبثُّوها في أَملائكم ، وتحدّثوا بها في نواديكم ، وخاطبوا بشرحها جميع جهاتكم ، وأَذيعوها في أَكنافكم وأَرجائكم ،

يشترك جميعكم في المسرَّة ، ويتساهم كلُّكم في شكر الله عليها ، ويتجدد الاخلاص لكافتكم بهذا المسموع . . . .(١).

الرسالة الحادية والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالَميّ ، معلماً بهزيمة عَرَب إفريقية :

من أمير المؤمنين ـ أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والشيوخ والاعيان والكافَّة من الموحّدين من أهل فاس ـ أعزَّهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسناه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أما بعدُ فالحمدُ لله الذي تمَّم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب ، وأناف بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب ، وبلَّغهم في أعدائهم الذين ولّوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الاعراض والادبار ، وبدَّلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار ، أماني الظافر الغالب ، ووكَّل بهم أيَّة ولجوا ، وعلى أيّ مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامَّة أكنافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عين المحافظ المراقب ، ومكّن لهم إنفاذاً لمقدوره ، وإفاضةً لأشعَّة نوره ، أسباب التقليب في أفناء الامنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم نعمةً منه وفضلًا وقد فاؤوا بشرف الفتح الجسيم ، واحتقاب الحظّ العميم ، وابتغوا رضوان الله والله ذو

(١) السطور الاخيرة من هذه الرسالة ناقصة في الاصل المنقول عنه .

فضل عظيم تحكي تي الغانم الاديب ، وجعل أمرهم الذي هو أمره ناظماً إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب ؛ والصلاة على محمّد عبده ورسوله الحاشر العاقب ، الصادع بنوره الثاقب ، لبابة الانتخاب ، وسلالة الانتجاب ، من لوي بن غالب ، المبتعث لتتميم مكارم الاخلاق ، بما حضر من الضرائب المقدّسة والمناقب ؛ وعلى آله وصحبه أولي العزم في أمره العاكف الذائب ، والجدّ الثابت اللازب ، والاثرة المشتملة على شرف المناسب وزلف المناصب ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفّتْ حجب الغياهب ، وتفرّقتْ سبل المذاهب ، وخُبط من ليل الحيرة في حيث لا مُنفذ لجاۤءٍ ولا مُخلص لذاهب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب ، وأنقذ به من هو العاثر وشفى العاطب .

وإنّا كتبناه إليكم ـ كتبكم الله ممّن تعرّف آلاءه المستعادة ، وجعل انتظار الفرج بالصبر عبادة ، وبوّأ بقرارة اليقين لتنجر ما في ضمن الوعد من كلّ فتح مبين مهادِه ، وقابل نعمه التي تجلي قرّة أعين صورتها ، وتشنّف أسماع سورتها ، من الشكر الاحفى ، والحمد الاوفى ، ما يستهبُّ نفحات الزيادة ، ويصل أواصر الالتحام ، ووصائل الانتظام ، بين مبديه منها ومعادِه . ونحنُ نحمد الله على آمال في إظهار أمره وفيَتْ ، وصدور المؤمنين من أعدائه وأعدائهم شفيَتْ ، وأقذاء من مشارع دينه بهذه الاصقاع طُحرت ونُفيَتْ ، وآثار كفر طمسَتْ بمظهر الايمان وعُفيَتْ ، وأرحام حقوق الله تعالى بلّتْ ببلالها وقد كانت بفناء العقوق جُفيَتْ ؛ فلا باطل ـ والحمد

لله - إلّا وقد دمغه الحقُّ فدحض ، ولا عرق لظالم إلّا وقد سكن بعد ما نبض ، ولا مبسوط جور إلّا وتكمّش وتقبّض ، ولا مُغِلّ بدائه ، ومرتقب يوم اهتدائه ، إلّا وقد أذهب الله بعصمته ، ومسحة رحمته ، عنه المرض . كلٌّ تقدّم إليه النذير ، وأُحيل بفتوق مسامعه التذكير ؛ فمن شرح للايمان صدره ، وأذن بشمس الهداية فجره ، وأُتيح له بعد عسره ويسره ، انخلع من ملابس ذنبه ، واستند إلى ذروة قربه ، وكان على نور من ربّه ؛ ومن صمّ صداه ، واشترى الضلالة بهداه ، تُبَّتْ يداه ، وأُرصد له بأخذ الله الاليم الشديد ، وعقابه الذي ليس على الظالمين ببعيد ، حينُه ورداه ، وأورد وَلاتَ حينَ مصدر موارد لا يتعدّاها ما لاح ابْنا سمير ولا تتعدّاه .

وقد كنّا - أعزّكم الله بتقواه - قدّمْنا مطالعتكم بما سنّاه الله تعالى في غزو عَرَب إفريقية من مُسَنًّى أعرق في الانتماء نسبُه ، وتحكّمَ في تأييد هذا الامر السعيد سببُه ، وفتق المقول لمعرفة قدره ، والألسن بواجب شكره ، أعذبُه وأعجبُه ، واستغرقت الاوصاف وإن أُرسلَتْ من لسان اللَّسَن ، ومُدَّتْ وسائع القول الاعرب الابيَن ، قرائنُه ونسَبُه ؛ فلمعتبر آياته ، وباهر آياته ، وما اطّرد بين حاشيتَيْ بداياته ، ونهاياته ، أحوالٌ من اللطائف الالاهيّة ، والصنائع الربّانيّة ، لا تنحطُّ رتب عيانها إلى الآثار ، ولا تتعرّض صور شاهدها في معرض الاعتبار ؛ وإنّما هي نُبَذٌ تهدي مخايل ، وتُقيم لكم إمارات على نصر الله تعالى ودلائل . وكان هذا الفتحُ العظيم في حين إعلامكم لم يستَوفَ طلْقُه بَعْد ، ولا كمل له من مستصفى

مستحقّه العَقْد ، وأَنهَيْنا إليكم نبأه وهو في مضماره مسترسل ، وإلى مقتضى آثاره من كلّ حدب ينسل ، وأحلْناكم فيما وصل على ما سَيَصِل ؛ والآن ـ والله يوزع شكر نعمائه ـ فقد عقد حباه ، وأُغْمِدَتْ وفيها فلولٌ من قراع الدارعين ظُباه ، واستُخلص من قصده المظفَّر مصطفاه ومجتباه ، وأَمضى حكم الله إمضاءً جزماً فيمن تحاماه وتأَتّاه ، ولا ثنيت الأزمَّة ، ولا رفيت الهمّة . وببلاد إفريقية للقبيل الرياحيّ المستولي على أَقطارها ، المستعجل في إضرارها ، لا ذكر يسمع ، ولا حديث يرفع ، ولا أَثر يتقصَّى ويتدبَّع ؛ أُلحقوا بقبيل العدم ، وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم ، وأَصبحوا كهشيم الْـتَهَبَتْهُ نفحة ضرم ؛ حيزَتْ عليهم الثنايا والانقاب ، وتبسّط فيهم كيف شاء العقاب . فلم يجِدوا إلى مستخلص سبيلا ، ولا استطاعوا مضياً ولا الى منجاة تعريجاً ولا تحويلا ، أَينما ثقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلا ، سنَّة الله التي قد خلَتْ من قبل ولَنْ تجد لسنَّة الله تبديلا ؛ حقَّت عليهم الصيحة فأَصارتهم هبًّا منثورا ، وضربَتْ عليهم الذلَّة بكلّ مضطرب وملتمس من تقريبها لآثارهم ، وجوسها بخلال ديارهم ، سدًّا لا يخترق وسورا ، وأَحالَتْ متون جيادهم وما اعتقدوها منية حين ركوبها سريَّة أَرماساً وقبورا ، ووقف بهم حكم السيف والسنان ، على طاعة أو عصيان ، ولا ثالثة وقد خطرت الجدّ هاتان ؛ فمن أَبى إلَّا النفار ، وكره الله منه الانبعاث والاستنفار ، فقد قلد مناط مقلّده ، ومدار مخنَّقه السفار ؛ ومن أَخذت السعادة بأَردانه ، وأَوته إلى شعب الفوز وإيوانه ، التحف ببردة

أَمانه، وجرَّ إلى منال الحظّ العظيم ملءَ عنانه، وقد أَخذَ من هاتين الخطّتين بقسط باء به موفورا، وقدَّمه يسعى بين يدَيه إمَّا ناراً وإمَّا نورا.

وفي حين هذه المخاطبة ـ وفَّقكم الله ـ وصلَتْ أَوائل العساكر المنصورة، فقصَّتْ من قصَصها عبرةً لأُولي الالباب، وأَطلعَتْ من معاني هذا الفتح المبارك ما أَربى على العُجب العُجاب، وأَنبأَتْ بما أَرسل الله في جميع بلاد إفريقية من سماء الأَمن المنسكب المنساب، وأَوسعها من منتثر العدل ومنبسط الفضل ما لا يحتجب عن متطلّبه بحجاب، وأَنَّها ـ والحمدُ لله ـ وقد احتثَّتْ أَصل الكفرة احتثاثا، وأَضحى بها حبلُ الباطل أَنكاثا، حسب أَمن السائل السالك، وشهادة المُنْطق اللائك، وأَنَّ أَهلها من توسُّد الآمال، والتورُّك على الاقبال، في أَدمث الفُرس وأَمهد الارائك، يكاد مشهوداً لا من الذي لم يتصوَّر في أَوهامهم، ولا عرض قط في أَفهامهم، أَن يعتقدوه من بعض الخيال الطارق في مناعمهم. فالحمدُ لله الذي بوَّأَ أَمره مكاناً عليًّا، ونصب للعالمين صراطاً سريًّا، وجعله بعموم الخير وشمول البركة مليًّا وفيًّا. وطهَّر هذه الارجاء من متعاقدي الظلم والكُفر، ووطأَة بني السُّمْر والصُّفْر، واستقبل بأَهلها بمستأنف إيمانهم، ومستجدّ إيقانهم، أَشرف الحياة وأَسعد العُمْر. وأَمَّا ما ذكر الواصلون من العساكر المذكورة عمَّا استاقوهُ من السبايا والغنائم فما غصّ الفضاء بإقداره، وضاهى مدرار الوكافة المتن متمطّر بدرَّاره. وكيف ـ وفَّقكم الله ـ بأُمَّة استُخلص طريقُها وبلادُها، واستُصفي حلالاً ما أَجنَّه ادّخارُها

وأَكنّه اعدادُها ، وقد تحصَّلَتْ هذه الانفال المباركة بأوائل هذه البلاد ، وانفصلَتْ جميع بلاد إفريقية هديةً من عند الله مباركة طيّبة ، ورحمةً من سماء إحسانه وإفضاله صيّبة .

وكان في هذا القبيل الرياحيّ فخذٌ منهم يُعرف ببني محمّد لا حظَّتْهم السعادة بطرف غير خفيّ ، واحتضنتْهم في حجر الوقاية حفيّ ، وكان لهم مع القدر السابق بمفازاتهم جدٌّ كفيل كفيّ ؛ فألقوا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا في سلك أَهل التوحيد بجميع الانفس والاموال والاولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أَعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد ، واعتدُّوها بما رأَوا في سواهم من الاتّغاظ الذي به سعدوا ، وباعتباره أيّدوا ، من سداد الرأي بما أيّدوا ، نجعةَ المنتجع وبغية المرتاد ؛ وقد تأثَّرتْ هذه القبيلة الفارَّة بما شدَّ من شعوبها من أَليم العضّ ، فأَثّرت الانخال مع الموحّدين بالقضيض والقضّ ؛ وقد قوَّضَتْ خيامها ، وهجَرَتْ آطامها ، وقدمَتْ بين يدي استنانها على آثار أَهل التوحيد أَناسيَّها وأَنعامها ؛ وهي جملةٌ وافرة العَدَد ، متظاهرة العُدَد ، قاصدة خدمتها على هذا الامر العزيز آخر الابد . وممَّا تسنّى لها من تَسَنّ لطيف ، وأُدْ ج لها من خفايا التسبيب والتكييف ، أَنّ عمادَ بَيْتها وزعيمَ أَمرها أَبا يعقوب يوسف بن مالك ـ وفّقه الله ـ كان قد خلص بحبل هذا الامر اعتلاقُه ، وتأَكّد بعهوده ومواثيقه عهدُه وميثاقُه ، وأَحظاه بحظوة الهجرة إلى هذا الامر بدارُه واستباقُه ؛ ولم يزل على طريقة سويّة ، ومعاملة برّة

تقيّة ، استحقّ بها من الرأي الجميل ما سرى منه ففاض على هذا القبيل فتلوّم عليهم العمل ، وحرم على أرجائهم بما سبق من أرجائهم النظر الاجمل ، الى أن تغمّدتهم بعتابهم الرحمة ، واكتنفتهم النعمة ، وأخذت بحجرهم عن النار العصمة .

وأمّا جُشَم بأسرها فذهبت أيضاً مذهب الانتقال ، وأخذت في الاغذاذ الى ما أُمرت به والارقال ؛ وتحرّكت بما لها أهلًا ومالاً من الاثقال ؛ وهمْ بمجلّدات أَهل التوحيد مُعَسْكرون ، وفي مؤازتهم التي تحملهم ومواشيهم على أعدل طرق المطاوعة والمتابعة مستمرّون ، وهمْ عَدَدٌ لا يحمله إلّا البساط الفيّاح ، والفضاء المنداح . وكلٌّ من هذَين الحَيَّيْن الجُشَميّ والفخذ المحمّديّ من الرياحيّ فقد عزم وأعزم به على أن تحتطّ إن شاء الله بالمغرب دارُهم ، ويبوّأ هنالكم قرارُهم ، ويقصر على خدمة هذا الامر العزيز جوارُهم .

وأمّا قبائل الاثبج وزُغبة فوصَلَ أعيانُهم يمدّون يد الاستتابة ، ويطلقون ألسنة الانابة ، ويتعوّذون من حرّم هذا الامر بالامن والمثابة ، وقد وعدوا على النظر فيما عنّ لهم من غرّاتهم ، ونفذوا على إمضاء عزماتهم ؛ فإن أمضوها نيّة ، وأبدوها طاعةً جليّة ، فحظٌّ لأنفسهم اقتنَوْه ، وعاجلُ مكروهٍ كما فُعِلَ بأشياعهم من قبل تخطّأهم وتخطّوه ؛ وما سِوَاهم فحُكمٌ لا يردُّ عن القوم المجرمين بأسُه ، ولا يجهل يومُه وأَمسُه .

وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة

السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والاحساس ، ولا يجري على أساليب القياس ، ولا يتفرَّغ في قوالب العادات من الاستيلاء على من ملك زمامَي البرّ والبحر بهذه الاقطار ، وكاثر فيها عدد القطار ، واستظهر على شأنه بما زعم من قوى الاستظهار ؛ فكلٌّ ما أغنى عنه جمعُه ، ولا حماه معتصمُه ومنعُه . وإنَّ في إبادة من أُبيد ، واقتياد من اقتُيد لَسِرًّا من أَمر الله في تسخير هذا الوجود لأمره . وإشعاراً [illegible]
هذه الالطاف المسخرة والآيات المرسلة ما هو لتِلْكُمُ المغارب موفور ، ولآمالها في الانعطاف اليها مخبوٌّ مذخور ، وعلى ما يملأُ لحظ التشوُّق إلى مطالعة نور هذا الامر موقوفٌ مقصور . فاعتبروا ـ وفَّقكم الله ـ بهذه الدلائل اللائحة ، والبراهين الواضحة ، أَنَّ هذا الامر العزيز إلى قيام الساعة مداه ، موقوف على تمييز الخبيث من الطيّب أولياؤُه وعِداه ، مجزي كلا قسط ما أَخفاه من معتقده وأَبداه ، مُستَولٍ على الأقرب والابعد في الله يداه ؛ وقد يُمِّمت المغارب تيميماً مباركاً بحمد الله . ووُلِّيَتْ وجوه العزائم شطرها على بركة الله وعونه . فبشراكم اليوم بشراكم ، وما أَحلقكم به وأَجراكم . فاشرحوا ـ أَعزَّكم الله ـ صدوركم ، وأَقيموا بهذه البشائر أُموركم ، وأَشعروا بها جمهوركم ، وأَعقدوا بإِهدائها جذلكم وسروركم . والله تعالى يجعلكم ممَّن اعتمد النعم بشكرها ، ووفَّاها واجب قدرها ، وارتبط كرائمها بمواصلة ذكرها ، إِن شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كُتب من فَحْص مَتّيجة يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

الرسالة الثانية والعشرون

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالَميّ المذكور :

الحمدُ لله الذي قدَّم لأوليائه أمرَه فيما يرومونه من تدويخ العدوّ وقهره يوماً على الكافرين عصيبا ، وصنع لهم في إبراز الكفرة الى مضاجعهم وسوقهم على قدم الاعتزاز صنعاً عجيبا ، ووعد القائمين بدعوته ، الناصرين لملّته ، فتوحاً آزفةً يفتحونها ، ومغانمَ كثيرةً يأخذونها ، فعجّل من دون ذلك فتحاً قريبا ؛ وصلىَّ الله على نبيّه المصطفى محمّد الهادي إلى سبل السلام ترغيباً وترهيبا ؛ وعلى آله وصحبه ، ومن لبَّى دعوته إلى ربّه ، سامعاً مجيبا ، سامياً في مقام النصرة ومحلّ الأثرة أعزَّ نجيبا ؛ ونسأله الرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، المجدِّد لدينه عند ما عاد غريبا كما بدأ غريبا ، وذهبَتْ به الاهواءُ المتّبعة ، والاضاليل المبتدعة ، تصعيداً وتصويبا ؛ وعن صاحبه وخليفته الامام أمير المؤمنين مُؤازره ، ومُظاهره ، توسيعاً لأكناف الدعوة العليّة وترحيبا ، ووارثِ مقامه الكريم ، وأهلية القيام بأمره العظيم ، منصوراً ومفتوحاً له ومُصيبا .

وإنّا كتبناهُ إليكم ـ كتبكمُ الله ممّن أحسن تلقّي البشائر ، ووفّى النعمة حقّها من شكر الشاكر ، وجعلكم من الذين أشرقت لهم أنوار الهداية

فائضة على الابصار والبصائر - من حضرة فلانة - حرسها الله - والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكّل عليه وأن تعلموا أنّ لله في هذا الامر العالي وما ناط به من إظهار الدين ونصر الملّة وإعلاء الكلمة أفعالاً خافية وعالنة ، وآثاراً ظاهرة وباطنة ، وأسراراً مجتلية ومحتجبة ، ولطائف مشهودة ومتغيّبة . فمهما أنسيء لعُداته في أجل الامهال ، فليساقَ لأولياء الله الفتحُ فيهم بالمساق العجيب ، وليترتّب لهم حال القطع لدابرهم والاستيصال لشافتهم في أجمل صوَر الترتيب ، إشارةً للعناية ودلالةً على الاثرة ، وتنبيهاً على الارتقاء في الاسباب ، وتبصرةً وذكرى لأولي الالباب .

وقد كان مقامُنا بهذه الجزيرة - مهّدها الله - لتتميم المقصود فيها من إظهار الدين ونصر الملّة ومُرابَطةٍ في مصاقبة العدوّ - قصمه الله . وفي مُهْلة النظر في حسم دائها ، واستباحة أعدائها ، بَلَغَنا أنّ رجالاً من ذميمي النصارى - وقمهم الله - من أَهل آبِلة وما أَخذ أَخذها ومن انضاف إليهم من الافرِيرِين وغيرهم - كبت الله جميعهم - قاصدون قصد هذه الجهة - كلأَها الله . وقد وقعت الاستفاضة وحصل العلم بأَنّ أَهل آبِلة حُمَة النصارى وحُماتُهم ، ورؤَساؤُهم وكُماتُهم ، وجمرُتهم المتلهبة ، وحوزتُهم المتغلّبة ، والشوكةُ التي لم يحصدها قطُّ حاصد ، والشجرةُ الملعونة التي لم يقصدها على مدّ الدهر قاصد . وإنّهم بما خبأَ الله فيهم لأولي أَمره ، وأَولياء نصره ، سوَّلَتْ لهم أَنفسُهم الخائنة الخروج إلى الغارة بهذه الجهات - كلأَها الله -

تخيُّلًا منهم أَنَّ جنود الله الموحِّدين قد تفرَّقَتْ ذاهبةً وسرحَتْ قافلة ، وانتهاراً منهم بزعمهم للفرصة قبل احتفال الجنود والاحتشاد لوقت الغزو . فاستمرُّوا مصمّمين وتهوَّروا مقدّمين ، وما زالوا يتقدَّمون إلى حتفهم ، وتنضرب أَسداد الغيّ من بين أَيديهم ومن خلفهم ، مغالطين بالجرأَة ، متخمّطين بالبسالة ، خارقين لحجاب المهابة ، ناكبين عن سمْت الاصابة ، إلى أن بلغوا هذه البلاد ـ حماها الله ـ وأَجازوا الوادي الكبير بين قرطبة وإشبيلية ، واكتسحوا جملًا من الغنم كثيرة بجِهَة إسْتِجَّة ؛ ثمَّ عطفوا على الموضع المعروف بالكَنْبانية من قبليّ قرطبة وجعلوا ذلك طريقهم إلى مُنْتُور .

ولمَّا اتَّصل بنا نبأُهم الذميم ، وتوجَّه فيهم الصنع الكريم ، استخَرْنا الله تعالى على تمييز العساكر المنصورة ، وتسريبها إليهم مع إخواننا وأَشياخ الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ فاتَّبعـوهم مجدّين واجتمعوا بالشيخ الأَجلّ أَبي حَفْص ـ أَعزَّه الله ـ ومن هنالك من الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ وعرفوا بمجرَّد متجدّد حالهم ، وما انكشف لهم من صور الاحوال في حلّهم وارتحالهم ، واستمدُّوا الاوامر التي عادة الله تعالى إسعاد مُطيعها ، وتوفيق المُسند إليها . فأُمروا بصدق لقاء العدوّ ـ قصمه الله ـ وأَخْذه على بركة الله الذي سبقَتْ كلمته أَن ينصر من ينصر دينه ، ويبذل في مجاهدته إخلاصه ويقينه ؛ فاستمرُّوا في جدّ الاتّباع على وجههم الميمون ، ونصرهم المضمون ، ودرجَتْ أَيّامٌ قدر ما يوصل الطالب إلى المطلوب ، ويتمحَّص

بمكروه الكافر وهو غير المرغوب ، إلى أن هتفت البشائر مالئة الاسماع ، طالعة من أحسن ثنايا الاطلاع . وورد الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، ووصل من أعيان الموحّدين ـ أعانهم الله ـ مَنْ شهد اليوم الذي أخذ فيه للإسلام بمليم النار ، وعرف الكافر لمن عقبى الدار ؛ معهم أعلامُ الروم المنكوسة فيها تماثيلُهم وصلبانُهم ، وافتراؤُهم على الله وطغيانُهم ، ورأسُ شيخهم الذميم وشيطانهم الرجيم ، واتر أهل الايمان ، وأشدُّ الكفرة عتوًّا على الرحمان . فذكر الواصلون أنَّ الموحّدين ـ أعانهم الله ـ اتَّبعوهم معدّين ، وأرهقوهم مشمّرين في الركض مجدّين ، إلى آخر فخص هلال وقد طمع الاعداء بالنجاة ؛ فتهيَّأ هنالكم اللحاق والادراك ، وتراءى الايمان والاشراك ؛ فرأى الكفرة من بأس الله الذي لا يُردّ ، وجنده الذي لا يُصدّ ، ما هالَهم وراعهم ، وأنساهم جلادهم ومصاعهم ، وعلى ذلك فطمعوا في الدفاع ، وارتفعوا الى اليفاع ، وحملوا حملات قاصرة ، وكرُّوا كرَّات خاسرة ، إلى أن زحفَتْ عليهم الكلمة ، وحاقَتْ بهم النقمة ، وأخذَتْهم السيوف المستلحمة ، وانصبَّتْ عليهم الجيوش من كلّ جانب ، ورأوا الحياة كأمْس الذاهب ؛ وأولياءُ الله وأنصارُ الحقّ أهلُ طاعة أمره قد هبَّتْ لهم رياحُ النصر ، وطلَعتْ عليهم شارقاتُ الظفر ، لم يُنَلْ منهم نَيل ، ولم يُقَمْ للكفرة في جانبهم مَيل ، إلى أن ولّى أعداءُ الله الادبار ، وابتدروا الفرار ، وحلُّوا عن غنائم كانوا استاقوها وأسارى من المسلمين غلَّ الله أيديهم ، عن قتلهم وكفاهم تعدّيهم . وتمّتْ على أعداء الله

الهزيمة ، والواقعة العظيمة ، والتقطوا في بقيّة تلكم الآناء ، وقُتلوا قتل العناء ، حتّى صمّتْ حصاة بِدَم ، ولم يكد يبقى بين القتلى محطٌّ قدَم ، واقتُصُّوا كذلك تلفظهم الشواهق ، وتُرديهم المهاوي وينمُّ عليهم الليلُ وهو كاتم ، ويلكم لهم الصبحُ وهو باسم ، ولا تدمُّ عليهم غَيْطَلةٌ ملتفّة ، ولا شجرةٌ محتفّة ، بل يقول الحجرُ : يا مؤمن هذا الكافر خَلْفي فاقتُلْهُ ، وإلى سواء الجحيم فاعتُلْهُ ؛ أَينما ثقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلا ، سنّة الله التي قد خَلَتْ من قبلُ ولن تجدْ لسنّة الله تبديلا . فالحمدُ لله على هذا الفتح العظيم خطرُه ، الجليل قدرُه ، الذي له ما بعده ، وانسياق ما ينجز الله وعده ، حمداً يبلغ رضاه ، ويوجب زلفاه ، ويمتري المزيد من نعماه .

وهذا الفتحُ ـ وفّقكم الله وأَعانكم ـ وإِن كان عظيماً في نفسه ، عالياً في جنسه ، فإِنّه للفتوح الآزفة مفتاح ، وبين يدي السعي فيها مصباح ؛ وإِنّه رائدُ الفتوح المنتظرة ، وعنوانُ الخيرات الميسَّرة ، ونازلٌ من الفتوح الآتية بمحلّ الباكر من الثمرة ، لما أُشرب فيه أَولياءُ الله وأَنصارُ الحقّ وجنودُ الامر وحماةُ الاسلام وأَحزابُ الدين من ريح الفتح وجدُّوا من عِزّ الغلب ، واستحلَوْا من مدامة النصر وتوطَّأَ لهم من طريق الظفر الروم ، وتذلّل لهم من مركب الروم ، إِذ عرفوا ذوقهم ، وساقوا سوقهم ، ولم يَبْقَ لهم في نفوسهم قدر مقاومة ولا محلُّ مراقبة ، ولمّا خامر الرومُ ـ قصمهم الله ـ من الرعة والروع وانفتح عليهم من أَبواب الخطوب وتوجّه إِليهم من جنود الرعب ، وباؤوا به من ذلّ الغلب ، وسوء المنقلب ،

وفقدوه من منكب الدفاع ، وردء الامتناع ، وفرسان الجلاد والمصاع . فإنّهم بعد أولئك الهلكى المطرَّحين بمنزلة الرمح بعد السنان ، والجسد بعد الجنان . فهذا الفتح العظيم قد عظمَتْ به النعمى وكثرَتْ فيه العوائد ، واستمرَّتْ منه في الحال والمال الفوائد ، فوفّوه حقَّه واعطوه قسطه شكرا ، ونشرا ، وإشاعة ، وإذاعة ، يمتدُّ مداها ، ولا يبلغ أَقصاها ، والله تعالى يشفعه بأَمثاله ، ويردفه بمنهل الفتح ومثاله ويتولّى توفيقَكم لما يحبُّ ويرضاه ، وعَوْنَكم لما يزلف لدَيه في أُخراه ، بمنّه ، ويمنه .

الرسالة الثالثة والعشرون

وهي المعروفة برسالة الفصول . وإنَّها منسوبة في المجموع المنقول عنه إلى الوزير الأجلّ الكاتب أَبي جعفر بن عطيَّة المذكور كتبها عن أَمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ إلى أَهل بجاية يوصّيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحقّ بلزوم الواجبات[1] :

من أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره ، وأَمدَّه بمعونته ـ إلى الطَّلَبة الذين ببجاية ـ أَدام الله كرامتهم ، ووصل صونهم وحمايتهم ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ونشكره على آلائه ونعمه ؛ ونصليّ على محمَّد نبيّه ورسوله . والحمدُ لله على ما أَمدَّ به هذه

(١) راجع كتاب أخبار المهدي للبيذق الذي أصدرناه سنة ١٩٢٨ (ص ١٣ - ١٧ و١٣٤ - ١٤٥) .

الدعوة العظيمة ، والكلمة العليَّة الكريمة ، من الاضواء والانوار ، وقرن بعزائم أَوليائها من الأَخذ بحجز العباد من التهافُت في النار ، وأَحكم بإِيمانهم من معاهد الهدى التي من استمسك بها فقَدْ فاز بعقبى الدار ، وأَبان بهم معالم السنَّة المستبينة الضوء الهادية المنار ، التي من سلك جَدَدَها فقَدْ أَمن من العثار ، ووقَّف هِمَمهم لدَيْه من مراعاة أُمور الدين في النائي والداني من الاقطار ؛ نحمده حَمْدَ من اهتدي إِلى أَنَّه الموجود المطلق الذي لا يتقيَّد بالامكنة والاعصار ، الواحد الفرد الصمد المنزَّه عن الشركاء والانظار ، المتعالي عن صِفات التغيُّر والانتقال والعجز والافتقار ، المُحيط بجميع الموجودات إِحاطة لا تحدُّها حدَّةُ الاذهان . ولا تلقحها دقائقُ الافكار ، لا إِله إِلَّا هو لا تُدْرِكه الابصار وهو يُدْرِكُ الابصار . ونصلِّي على محمَّد نبيِّه المبتعث من أَكرم نجار ، والمؤيَّد بالمعجزات التي دحضَتْ حُجَج الكفَّار ، وخرقَتْ مستمرَّ العادة للعلم أَنَّها فعل الواحد القهَّار ، وأَتَتْ على وفق الدعوى ليتبيَّن بها صدقُه على الاضرار ، وحكمَتْ في كلّ من لم يؤمن بها كلُّ طريد الشبي ماضي الغِرار ؛ وعلى آله وصحبه السالكين في ذلك السَّنَن والمجُرين في ذلك المضمار . ونُواصلُ الرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأَمر الله تعالى لما ارتفع العلم بقبض العلماء الاخيار ، وأُعجب كلُّ ذي رأي برأيه من الصُّمّ البُكْم الرغَّام الأَغمار ، وقامَتْ خطباؤهم بأَفانين التضليل وضروب الاغترار ، وقلَّبوا الحقائق فظهر من التبديل والتغيير ما أَخفى دين الله تعالى الذي

تكفّل له بالاظهار ، وانبسط في البسيطة من المناكر ما لا يحتاج إلى إطالة في تعديده مع الوضوح والاشتهار ، فجلىّ بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من الظلم المشتدّة الاعتكار ، وأبان بمعجز علمه من العلم بالله تعالى ورُسُله وبما جاءت به رُسُله ما كان في طيّ الخفاء والاستتار ، وعلّم طرق العلم بها التعليم الذي انتفع به أولو التيقُّن والاستبصار ، وضرح عن موارد الدين ما شملها من الشوائب والأكدار ، وأَمدّه بالطائفة المنصورة المفتوح لها بصريح الوحي وصحيح الاخبار ، كلُّ دانٍ وشاسع من الامصار ، الوارثين علمه والعاملين به والمتصرّفين له ليبقى أَمره العظيم على الدوام والاستمرار ، إلى قيام الساعة وانقضاء هذه الدار ،

فإنّ كتابنا هذا إليكم ـ كتب الله لكم كلّ خير جزيل ، وأَعانكم على امتثال أَوامر التنزيل ، وجعلهم جارين على حكم الكتاب والسنّة في الدقيق من الأُمور والجليل ـ من رباط الفتح ـ عمّره الله ـ والطائفةُ المنصورة محفوفةٌ من حفظ الله وكلاءته ، ومكنوفةٌ من صونه وحمايته ، وممنوحةٌ من إظهاره وإعلائه ، ومخصوصةٌ من إرقائه وإسمائه ، وممدّةٌ من إضاءة زندها وإيرائه ، في تسنية مرامها وإسنائه ، بما أَنهضَنا الله به إلى إحياء معالم السنّة وإحكام أَمراسها ، وتثبيت أَركان الدعوة على وثيق آساسها ، وتطهير الأُمّة من أَدرانها وأَدناسها ، وتعليمها كيف تستضيءُ بمشكاة الهداية وتَعْشو إلى نبراسها ، ليمشوا على السَّنَن اللاحب ، ويتقيّدوا بالشرع المرتّب الراتب ، ويعملوا في أَمر دينهم ودنياهم باللازم الواجب ؛ فلا تلبّسوا الهدى

بالضلال ، ولا يشوبون التحقيق بالابطال ، ولا يخلّطون العمل بالرفض ، ولا يبعّضون الايمان فيقولون : نُؤْمِن ببعْض ونَكْفُر ببعْض ، ليتّخذوا بين الرشد والغيّ سبيلا ، وليروموا في الصحيح الثابت تغييراً وتبديلا ، إلى أَن تخلص قلوبهم من الرَّيْن ، ويكون عندهم العلم والعمل متلازمَيْن ، والباطن والظاهر متطابقَيْن ، والقول والفعل متعارضَيْن ، ولا متنافيَيْن ؛ والله المُعين على إكمال هذا المقصد وإتمامه ، والمليء بائتلاف جميع الجهات والاكناف على ما يؤثره من اتّصاله وانتظامه .

ولمّا كان هذا الامرُ العظيم إنّما جاء في حين الفترة ، وشمول الحيرة ، وارتفاع العلم وحلول الجهل ، وانبساط الجور وانقباض العدل ، وتملُّك الهَمَج الرَّعاع ، واتّباع الهوى المضلّ والشحّ المطاع ، وقام به الامام المعصوم ، المهديُّ المعلوم ـ رضي الله عنه ـ عند ما أَزبد بحرُ الضلال وطمى ، واعتلى سلطانُ الكفر واستمى ، وتطاير شرُّ الاشرار وارتمى ، وتفرَّقَتْ في أَنواع الاباطيل الآراء ، وغيّرت معالمَ السنّة البِدَعُ والاهواء ، والدينُ أَجنبيٌّ غريب ، لا مناسب له ولا قريب ، ولا داعي له ولا مُجيب ، وقد قنع أَهلُ الدنيا في معارفهم بمسودّ الصحائف ، مسطورَ الزخارف ، لاماتة المعارف ، وتطمين العوارف ، وجرّ المطارف ، في صون التالد وجلب الطارف ، فبصَّر وعلَّم ، وثقَّف وقوَّم ، وأَتقن وأَحكم ، ونوَّر ما أَظلم ، وأَظهر ما استتر وأَبهم ، وأَنْجد في تعليم العلم وأَتْهَم . ثم أَوْرَثَ عِلْمَه طائفتَه فبثُّوه في البلاد ، وأَفاضوا نوره على العباد ، طوراً بالالين

وطوراً بالاشتداد ، وحالاً بالسياسة وحالاً بالجهاد ، وآونةً بالمواعظ الحسنة وآونةً بالسيوف الحداد ، إلى أن ألقى الناس يد الاستسلام ، وأظهروا الاجابة إلى دعامة الاسلام ؛ فمن آمن منهم بهذا الامر العظيم عن علم ويقين ، وإخلاص مستبين ، فهو يتقيَّد بقيوده ، ويقف عند حدوده ، ويجري على معروفه ومعهوده ، ويبدو على ظواهره ، ما أكنّه في سرائره ، ويلوح على أساريره ، ما أسره في ضميره ؛ ومن حجبه عن الايمان به والاخلاص له حجاب ، وحصل في نفسه من الذي جاء به لبسٌ وارتياب ، فهو باقٍ في أحواله على المذهب الذميم ، وعاكفٌ في أعماله على الرسم القويم ، وطائفٌ بين أطلاله لا يبرح ولا يريم ، ويفتتن بما كان ألفه ويهيم ، ويزيح في تلك المسارح ما أمكنه ويسيم ، فتراهُ يتخطّى الحدود ويتعدّاها ، ويهمل الاوامر ولا يرعاها ، ويغشى تلك المألوفات ولا يخشاها ، ويساعد نفسه الامّارة بالسوءة ولا ينهاها ، ويغفل مآلها فلا يخاف عقباها . ومن كانتْ هذه حالُه فهو ممّن لم يؤْمن بالله ولا رسوله ولا بما جاءت به الرُّسُل ، ولا بالامام المهدي الذي قامتْ عليه البراهينُ واتّضحت في أمره السُّبُل ، بل هو متمادٍ على كفره وتجسيمه ، غير منتفع بتقويمه ، ولا مستبصر بتعليمه .

وبحكم بما ناطه الله تعالى بنا من أُمور عباده ، ووسده إلينا من نصر دينه وإنجاده ، وقلّدنا إيّاه من الوقوف على حماية باطنه وظاهره في أغوار العالم وأنجاده ، لم نزل نتعاهد أحوال الانام ، ونصل تصفّحها على الليالي

والايّام ، ونقصد هذا المقصد بقوّة واعتزام ، ونأخذ في الكشف عنه بمواظبة والتزام ، متّبعين في العمل بالعلم أمر الامام المعصوم الذي احتذى فيه حَذْوَ جدّه ـ عليه السلام ، راغبين إليه تعالى في إعظام الاجر وإجزال المثوبة على القيام بهذا المقام . لكنّ الناس مع مواظبتهم بالتذكير ، وملازمتهم بالتنبيه والتبصير ، لم يتركوا تلك الافعال التي رسخَتْ في الصدور ، والملكات التي استقرّتْ في القلوب ، والحالات التي انطوَتْ على أَلِفها إحناء الضلوع ، وأبوا إلّا ارتطاماً في الغيّ وارتباكا ، وانكشافاً في طواعية الشهوات وانهماكا ، وخلعاً لعذر النهي وانتهاكا ، وإجراءً في مهامة البطالة واستنانا ، وتخليفاً في جوّ الغواية وطيرانا ، وإغفالاً لما أحدق بهم من أمر الله تعالى ونسيانا . فنَهضْنا إلى معاهدة التفقُّد بعزمٍ قُرِعَتْ له الظنابيب ، وجُري فيه إلى مدّ القصر عن شأوه الجرد السراجيب ، وجعَلْناه تعاهُداً عامًّا في البعد والقرب ، ونظراً شاملًا ينتظم حاشيتَي الشرق والغرب ، لتأْخذ الجهات حقّها من الضبط ، وتتّزن الجنبات بميزان العدل والقسط ، وتستقيم البريّة على قانون الانتظام والربط ، فتكون العهود محفوظة ، وسطوات الله تعالى بمُخالفي أمره لمراقبةٍ ملحوظة .

وأبتدئ بأوّل مباني الاسلام فآخُذُ الناسَ بعلم التوحيد الذي هو آساسُ الدين ومبناه ، وروحُه ومعناه ، والقاعدة التي لا يثبت عملٌ دون تأْصيلها ، والرابطة التي لا يقبل دينٌ دون تحصيلها ؛ فلا سبب لمن لم يمتسك بسببه ، وقد بُني وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به ، وهو

إثبات الواحد وبقي ما سواه ، بتقييدات في الشريعة لا يكفي معها إطلاق اللفظ دون تحقيق معناه ؛ وذلك أن يعلم على وجهه وحدّه ، ليكون عن علم لا عن ضدّه ، وعن يقين لا عن شكّ ، وعن إخلاص لا عن شرك ، وأن يقوله مع العمل ، ولا ينكل .

ويؤمر الذين يفهمون اللسانَ الغَرْبيَّ ويتكلّمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوّله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه ويفصّوه ، ويلازموا قراءته ويتعهّدوه . ويؤمر طَلَبَةُ الحَضَر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهُدها على سبيل التفهّم والتبيّن والتنبّه والتبصّر . ويُلزم العامّة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أوّلها : « اعلم أرشدنا الله وإيّاك » وحفظها وتفهّمها . وأشملُ في هذا الالزام الرجال والنساء والاحرار والعبيد وكلّ من توجّه عليه التكليف إذ لا يصحّ لهم عملٌ ولا يقبل منهم قولٌ دون معرفة التوحيد ؛ فمن لم يعرف المرسِل لم يصدق بالمرسَل ولا بالرسالة ، ومن حصل على مثل هذه الحالة ، فقد تمثّر في أذيال الضلالة ؛ فإنْ لم يبادر إلى التخلّص منها ، والانفصال بالعلم عنها ، فقد وجب عليه حكم الكتاب ولا عَنَتَ في إراقة دَمِه لا محالة .

وآخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتب الموقوف على المؤمنين ، والحكم المثبوت على كلّ من آمن بهذا الدين ، والناهية عن الفحشاء والمنكر على ما ورد في الكتاب المبين ؛ ولا حظّ في الاسلام لمن ترك الصلاة فهو ممحوٌّ من ديوان المؤمنين ؛ ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع

من الوظائف والقوانين ، وتاركُها مَيْتٌ في عدد الاحياء ؛ لحشاشة تقضى عند انقضاء أمد الامهال والاملاء . فخُذوا مَنْ قِبَلكم بإقامة الصلاة على ما شرعَتْ ، وأدائها بحسب ما فرضَتْ ؛ وخُذوا العوامَّ ومن في الديار بحفظ أُمّ القرآن وسورةٍ معها وما تيسَّر من القرآن لتتمَّ صلاتُهم ويكمل عملُهم ؛ ومن أَضاع الصلاة وأَهْمَلَها ولم يبادِرْ إلى أَداء ما فرض عليه منها فأَجَلُه للحين مُتاحٌ وقتلُه بحكم الكتاب والسنَّة واجب .

وخُذوا بإيتاء الزكاة وبالكشف عن مانعيها وتشخيص ممسِّكيها أَو النزر اليسير منها ؛ فالزكاة حقُّ المال والجهاد وواجبٌ على من منع منها قدر العقال ؛ فمن ثبت منعُه للزكاة فهو لاحقٌ بمن ثبت تركُه للصلاة ؛ فمن منع فريضةً واحدة كمَن منع الفرائض كلَّها ؛ ومن منع عقالاً فما فوقه كمَن منع الشرع كلَّه .

وآمُرُ بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومُدْمِني شربها ومستعمليها ؛ فيُراق مُسْكرُها ، ويقطع مُنْكرُها ؛ ولْيُعمد إلى مَنْ عمل المسكر الحرام عامدا ، وشَرِبَهُ مدمناً عليه ومُعاهدا ، ولم تَرُعْهُ الحدود ، ولم تُقَيّدْه القيود ، ولم يَعِظْهُ الاعتبار ، ولم ينفعْه الادّكار ؛ فيُمحى أَثَرُه ، ويحذف خبرُه ، فالخمرُ أُمُّ الكبائر وجماعُ الاثم وكاسفةُ شمس العقل ، والبلاغةُ على كلّ قبيح من الفعل ، والفاتحةُ كلَّ مرتجٍ من أَبواب العصيان ، وهي رجسٌ من أَعمال الشيطان .

وآمُرُ بالكشف عن التلصُّص والجراية ، والتولُّج في مكان من الريب

والغواية ، والاجتماع على السيَر الجاهليَّة من الملاهي على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلاتها وما يتبعها من المناكر الناشئَة عن أَصل الجهالة والافعال المنافية للشريعة الصادرة على أَهل الزراعة والضلالة من الرجال المفسدين ، والغُواة المضلّين ، ومن النساء المفسدات ، المتفنّنات في طرق الغوايات ؛ فاكشفوا عن هذه الاصناف وأَثيروهم عن مكامنهم ، ونَقّبوا عليهم في مظانّهم ؛ فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنّة باستصحاب حاله ، وتماديه على الاحضار في محلّ باطله ومحاله ، فيحكم كتابُ الله ـ جلّ اسمُه ـ عليه ، وتطاع سنّة نبيّه ـ صلىّ الله عليه وسلّم ـ فيه .

وليكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قِبَلهم ، ويأكلون بالباطل أَموالهم ، وعن أَهل العناد والتقاعُس والاخلاد ، والتثبُّط الذين إذا دُعوا إلى الجهاد ، ونُودوا إلى الصلاح والرشاد ، صمّوا عن النداء ، وتلوَّموا في إجابة الدعاء ، وأَلقوا المعاذير المعرّبة عن العناد ، والناطقة عن الضمائر المتليثة بسوء الاعتقاد ؛ وعن القبائل الباقية على سير الجاهليّة من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحقّ وضبط الامر ؛ وعن أَهل النفاق والتدليس الناطقين بما لا يعلمون ، والقائلين ما لا يفعلون . فإذا تعيّنوا على التحقيق فالْيُمْضَ عليهم حكمُ الله تعالى الذي أَمر به فيهم .

وقد أَنفَذْنا إليكم ـ وفّق الله مقاصدكم ، وعمّ بالتقوى معاهدكم ـ نسخةَ كتابٍ كريم ، صَدَرَ عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ـ رضي

الله عنه ـ مشتمل على جوامع الكلم ، ومُنْطق على روائع الحكم ، لم يغادرْ في المعنى الذي تضمَّنه مُتَرَدِّداً ، ولم يُوجَدْ متأخّراً عن الوقوف دون مقتضاه ولا متقدّما ، ولم يُوسعْ مترَبّصاً في البدار ولا متلوّما ، فيه الملاذُ والمعاد ، وعليه الاعتمادُ والاستناد ، وإليه المرجع ، والمفزع . وأنتم تَقِفون منه على حكم الله تعالى في القوم الذين ذكرهم ممّن لا دين له ولا أَمانة ولا عهد ولا ميثاق ، المدَّعين للحقّ بالاقوال ، مع التمادي على التضييع بالافعال ، وإظهار الاستماع والقبول في الظاهر ، واتِّباع الجهل والهوى في الباطن . وتعملون ما جعل العمل عليه في أَعداء الدين والعلم وما حكم به فيهم ؛ ولا معدل لنا عن حكم سرّ البيت المتلوّ فيه آيات الله والحكمة ، المستخرج الحكم من مشكاة النبوّة ومرآة العظمة ، الذي انتظم به الامر على سنن الهدى ، واستقام على نهج التقوى ؛ فمن عانَدَه أَو خالَفَه أَو ضادَّه أَو كابَرَه أَو عصاه أَو ناواه أَو جهلَه وأَهمل أَمره ، فقد حاق به الرَّدَى ؛ فالانقياد لِما يقضى به واجبٌ والاستمساك بأَمره حَتْمٌ ، والرجوع إليه في أَمر الدين والدنيا فرضٌ لأَنَّ قضاءَه وأَمره هو قضاءُ ربّه وأَمْرُه وإرادتُه وحكمُه ، وقد حكم ـ رضي الله عنه ـ هذا الحكم فيمن هاجر إليه أَوَّلَ الامر وأَتاه عند طموّ البحر واتّصل به في سلطان الهرج ونزع إليه عند الابتلاء والمحنة ، واضطرام نار الفتنة ، لما أَنس منهم النفاق وعلم فيهم فساد الباطن وشهد منهم مكابدة الدين ، والدخول فيها من غير يقين ، وفتح بابَ جهادِهم ومحوِ آثارهم وجعله أَهَمَّ وأَولى من جهاد الكفرة المُجَسِّمين .

فكيف فيمن أتى بأَخَـرَة عند استواء شمس الهدى على الآفاق ، وإخفائها خيالات أَهل العتوّ والاستكبار والمرود على الرفاق ، ممّن جاء مخافـةَ البيض الرقاق ، وأَتى عند بلوغ النفس إلى التراق ، وخاف من يوم عصيب يكشف فيه عن ساق ، فحينئذ أَصحب في القياد وأَذعن في المساق ، وفيهم من ليس عقده على الصحّة والوثاق ، ولا أَفعاله مرضية المقصد ولا جارية على الوفاق ؛ فإمضاء هذا الحكم فيهم ، بعد تحقُّق تلك الاوصاف عليهم ، أُدخل في باب الوجوب والاستحقاق .

وإنّ هذا الامر العظيم ، وإن كان أَوْسَعَ الايّام عطفا ، وأَنالهم رفقاً ولطفا ، لا يصل من أَوجب الدين قطيعته ، ولا يحفظ من رتب الحقّ إذالته ، ولا يرخي في الطول لمن استنّ في رعي حمى السُّنَن ، ولا يستمرُّ على المهل لمن زاغ عن النهج والسَّنَن ؛ فتأَمّلوا ما اشتمل عليه كتابُ الامام المعصوم ـ رضي الله عنه ـ الذي هو هدًى وتبيان ، ونورٌ وبرهان ، واهتدوا بهدي من الهداية مخصوصة ، واعتصموا بحبل من العصمة عليه منقولة منصوصة ؛ فلا مطمع في الهداية إلّا منه ، ولا وجه لأَخْذ العلم ومعرفة الحقيقة الا عنه ومن لدنه . وها نَحْنُ نقصد قصده ونتحدّاه ، ونجاهد على إمضاء ما انطوى عليه معناه ؛ وعلى هذا الحكم مضى العمل في المواضع التي نَحْنُ بصَدَدٍ منها بعد أَن مُـيّزوا بمثواهم ، وعُرف المجرمون بسيماهم ، وتبيَّن كلٌّ منهم بما احتقب ، وشُهد عليه بما اقترف وبما ارتكب ؛ وقد فضح الله تعالى منهم جماعةً تعيّنوا بصحيح الاعلام ، فأُخذوا بالنواصي

والاقدام ، وجرعوا مصقر كأس الحمام ، بشبي الذوابل وجدّ الحسام ، وصُيّروا عبرة لأُولي الاجتراء على ارتكاب المحارم والاقدام . فامضوا ـ وفّقكم الله ـ في أقطاركم على هذا النظام ، واحكموا في هذه الاصناف بمثل هذه الاحكام ، واحذوا حذوَ هذه الافعال في طحر القذى عن طرف الاسلام ؛ فمن تحقّق عندكم بترك الصلاة ، ومنع الزكاة ، وإتيان المحرمات ، والانهمال في المحظورات ، من المفسدين والمفسدات ، واستصحاب تلك الاحوال المقرّرات ، أو واحدةٍ من الافعال المشروحة المبيّنات ، من غير أخذٍ لهم بقول ذي هوى وغرض ، ولا بشهادة يتعرّض فيها من الظنّة أدنى عرض ، فإذا صحّ التبيين ، وصدق التعيين ، فليؤخذوا بما احتقبوا ، وليُسأَلوا بما كسبوا ، وَليقابلوا عن فعالهم مقابلة من لا تصرفه عن الحقّ الصوارف ، ولا تعطفه عن امتثال أمر الله العواطف ، بل يمضي في إمضاء الحقّ بأشدّ العزائم ، وليعمل فيه عمل من لا يتّقي في الله لومة لائم ، إلى إن يستمرَّ أمر الله تعالى على إذلاله ، ويبدو مُحيّا الحقّ سافراً عن جماله ، ويستقيم البشر على الجَدَد المهيع ، ولا يعدلون عن سُبُل الاستقامة على الصراط السّوي في المرعى والمشرع ، والمقصد والمنزع ، بعون الله تعالى .

ولتقدموا طَلَبةَ أُمَناء من قِبَلكم يعلّمون الناس قراءةَ توحيدهم وحفظَه وحفظَ أُمّ القرآن وما تيسّر معها من السوَر ، ويأخذونهم بمداومة ذلك ومعاهدته وحفظه ؛ وليكونوا من الذين يراقبون ويحافظون ، ولا يراعون في حقوق الله تعالى ولا يداهنون . واحذَرُوا المداهنة

وحَذّروها فإنّها صارفةٌ عن الحقّ ، مزيغةٌ عن نهج الصدق . ولْيكن جميع ما تأتونه وتدرونه ، وتقدّمونه في هذا المقصد وتؤخّرونه ، جارياً على حكم الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ـ رضي الله عنه ـ مستنداً إليه ففعلُه هو الذي نقتدي به ، ونستمسك بسببه ، ونمضيه على وجهه ، ونجريه على رسمه ، فلا نجاة إلّا اتّباعه ولا أَمنة إلّا في الامتساك بأقواله وأفعاله ـ أَعانكم الله على ما تقصدونه من ذلك وتتحرّونه ، ووفّقكم فيما تأتونه من ذلك وتتولّونه ، فذلكَ بيده .

ولْيكن في هذه الاصناف القوم الذين يكسرون الدعوة ولا ينقادون إلى ما يجب عليهم من الحكم ، والقبائل التي تعادي عن نصح لهذا الامر العظيم ، ووقف في استخراج حقوق الله وأَبان خبايا أَهل التلبيس حتّى أَنّهم ينصبون لهم المكايد . ولْيُمْضَ عليهم هذا الحكم فهُمْ أَعداءُ الله ورسوله . ولْيكن هذا القصد عامًّا شاملًا منتظماً للحاضر والبادي ، والنائي والداني ، من الذكور والاناث والاحرار والعبيد وسائر أَصناف الناس لا يختصُّ قوماً دون قوم ولا جهةَ دون أُخرى . والله تعالى يوفّقكم ، ويتولّى بمنّه عونكم .

وكتب في الثالث من ربيع الاوّل سنة ستّ وخمسين وخمسمائة .

الرسالة الرابعة والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أَبي الحسن عبد الملك بن عيّاش المذكور :

من الامير يوسف بن أَمير المؤمنين ـ أَيّدهم الله بنصره ، وأَمدّهم

بمعونته ـ إلى الشيخ الاجلّ أخينا الاعزّ علينا ، الاكرم لدينا ، أبي سعيد ابن سيّدنا أمير المؤمنين ، والشيخ الأجلّ أبي سعيد يَخْلُف بن الحسن ـ أعزّهم الله وأدام كرامتهم بتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أمّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على محمّد نبيّه المصطفى ورسوله ، ونرضي عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، نجله المرتضى وسليله ، ونوالي الدعاء لسيّدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله . وإنّا كتبناهُ إليكم ـ أعزّكم الله بتقواه ، وأجزل حظّكم من حسناه ، ووصل لكم الانجاد إلى طاعته والعمل بما يقرب منه ويزلف لديه بمنّه ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ ونحنُ نشكره على آلائه ونِعَمه ، ونستنجزه ما وعد الشاكرين من مواعد إحسانه وفضله .

وقد كُنّا ـ أعزّكم الله ـ على عزم الحركة مع الموحّدين ـ أعانهم الله ـ إلى جهة المرتدّين من صِنْهاجة ـ آخذهم الله ـ والتصميم في غزوهم والنهوض إليهم على الثقة بما عند الله لهذا الامر العزيز من مضمون النصر ومذخور الظهور على من غمص حقّه وكفر نعمته وصدّ عن سبيله . وخلّصنا في ذلك النيّة المجرّدة لاقامة الله المقصورة على جهاد عدوّه وحماية دينه وتظهير دعوته . ثمّ وقع الاتّفاق بعد إفاضة المذاكرة وإدارتها ، وثبات العزيمة منّا على مشاهدة هذه الحركة المباركة أن يخرج فيها الموحّدون بجملتهم صحبةَ أشياخهم وحُفّاظهم وأجمعوا على ذلك ؛ فاستُخير

الله تعالى عليه وأنفذ حسبما اتُّفق عليه . فنفذوا توجُّههم الميمون يوم السبت السابع من الشهر المؤرَّخ به ـ يمّن الله مسعاهم ، وكتَّب ممشاهم ، وظفَّر مقصدهم في تعمير سبل الجهاد ومغزاهم ، ومكَّنهم على أفضل ما عوَّد من نواصي عداهم ، بمنّه .

وقد كان أشياخُ طَلَبة الموحّدين ـ أعزَّهم الله ـ قبل هذا تذاكروا في مشي أخينا إسماعيل ـ وفَّقه الله ـ إلى إشبيلية ـ حرسها الله ـ صحبةَ عسكر من الموحّدين والعرب ـ وفَّرهم الله ـ ليكونوا بها مقيمين مع إقامته ، ويتقيَّدون بتقيُّده ومكثه ، ويجِدُ لذلك أهلُ إشبيلية وجِهاتِها من الانس ما تطمئنُّ به نفوسهم ، وتقرُّ عليه قلوبُهم ، وتنم به جنباتُهم ، وينكفُّ عنهم من إضرار العدوّ وهجومه على ما اعتاد من البغت والفجاءة ما يرتفع عنهم روعُه وتنقطع عنهم عادتُه ، ويكون بحضور هذا العسكر عندهم وملازمته إيَّاهم ما يتعجَّل معه الغوث إن أُحتيج إلى ذلك . وتَذاكر أشياخُ الموحّدين بهذا واتَّفقوا عليه ورغبوا في إمضائه ورأَوا فيه من الخير والتعاون على مصالح هذا الامر ما وقع عزمُهم عليه . فاستُخير اللهُ تعالى على ذلك وأُمضي . وكُنَّا على إنفاذه حين وقوع المذاكرة ، فأَزِفَ شهرُ الصوم فأَرجأْناه إلى انقضائه تخفيفاً على المسافرين ورفقاً بهم ؛ فحين انقضى ـ قبله الله منّا ومنكم ـ أَنى التعويلُ على ذلك . ونحنُ إن شاء الله ننفذُه إثر هذه المكاتبة بالعسكر المذكور من الموحّدين والعَرَب ـ عرَّف الله بركة ذلك وأَطلع على ثمرة المقصود منه والمُنُوَّة فيه .

وأَعلَمناكم بذلك لسروركم به ، ومكانتكم بقربه ووجودكم إلى العون منه على أمركم ، والتظافر على عدوّكم ـ وصل الله لكم أسباب العون ، ونظم بكم ولكم معاقد الصلاح ، وأعاد عليكم بركة سيّدنا أمير المؤمنين في كلّ الاحوال ديناً ودُنيا ، وآخِرةً وأَوّلا ، بمنّه ويمنه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

الرسالة الخامسة والعشرون

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عيّاش المذكور :

من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ـ أيّده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته ـ إلى أمير شرْق الاندلس أبي عبد الله محمّد بن سَعْد ـ أمدّه الله بتوفيقه ، وأعزّه بطاعته وتقواه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أمّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصليّ على سيّدنا محمّد نبيّه ورسوله . والحمدُ لله الذي أقام لامره الذي هو سفينة النجاة ، وعصمة المَحْيا والممات ، دُعاةً يأخذون بالحجز عن النار ؛ ويقيمون لمن أضلّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهْدى عَلَم وأرفع منار ؛ ويتقدّمون في إبلاغ حجّته ، وإيضاح نجحته ، ببوالغ الانذار والاعذار ؛ ويصرّفون بما أُودعوا من سرّه المكنون ، لبثّه في الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوهَ العناية الآخذة بمجامع الاقطار ؛ الموجّهة بالاعراض عن الاعراض

إلى ما يقضي بهذه الخليقة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار ؛ وصلّى الله على محمّد عبده ورسوله مشكاة الاضواء والانوار ، ولبابة الاجتباء والاختيار ، المخبوء بمَعْدن بيته الاشرف ، ونسبه الاشهر الاعرف ، سرُّ هذا النبأ السيّار ، وارث ذلك المقام الذي هبّتْ تباشيرُه بأسماع ذوي الاضاحة لمواقع الاستبشار ؛ ورضي الله عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأَمر الله على أوفى الاعتضاد بتأْييد الله وأَتمّ الإستظهار ، الماضي قُدْماً في التصميم ، وإنفاذ العريم ، على أَمر طَلْق وأَبعد مضمار ، المُعان في ما دعا إليه ونبّه عليه بالعصمة التي لا تضرُّه معها إباءةُ أُبّاء ولا كفرُ كُفّار ؛ وعن خليفته وصاحبه الامام أَمير المؤمنين ممشي أَمره العزيز على مآله من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلوءة الملحوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكلّ معنى تتوجّه إليه داعية الاستبصار .

وإنّا كتبناه إليكم ـ أَمدّكم الله بتوفيقه ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ ونحن نشكر الله تعالى عوداً بعد بدء وشفعاً بعد وتر ، وتعذيراً بما لا يحصى أَمدا ، ولا يكاثر عددا ، إلى أَقصى ما يزلف عنده ، ويحضر لديْه ، ويبلغ غاية رضاه ، على ما ظاهَرَ من نعمته ووالى من إحسانه ، وأَرسل من شآبيب فضله ، وأَوسع من مِننه المعرفة والهداية إلى توحيده والتوحيد إلى الايمان به ، والقيام بحقّ الدعاء إليه ، والتمسُّك بشريعة رسوله الذي هو الدين القيّم ، والمنهاج البيّن ، والفسطاط المضروب ، والعَلَم المنصوب ،

ومعنى الوجود ونشرُه ، وشَرَفُه المقصود وفخرُه ، الذي اختاره الله أَميناً لتبليغه ، قويًّا على أَدائه ، مضطلعاً بحمله ، جليًّا بتبيينه ، حافظاً لامانته ، مصطفاه من عباده ، ومختاره من بريَّته ، عَيْن اجتبائه ، ونكتة اختصاصه ، محمّد نبيّه ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ فبَعَثَهُ به على فَتْرة من الرُّسُل ، وتراخٍ من الزمن ، وتشعُّب من الاهواء ، وتبايُن من الآراء ، وخَبْط من العشواء ، وتحكُّم من الجهالة ، وعموم من الضلالة ؛ وكلٌّ حزب بما لدَيْهم فرحون ، لا مرشد يُهتدى بمناره ، ولا موقد يُعشى إلى ضوء ناره ، ولا دليل يُقتفى مواضع آثاره ؛ فقام ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ مؤَيَّداً بالبراهين القاطعة ، والدلائل الباهرة الساطعة ، والمعجزات الناظمة لآيات صدقه الجامعة ؛ فصدع بالحقّ ، ونطق بالصدق ، وجدع أَنف الكفر ، وحطم كاهِل الشرك وأَفصح بالعلانية ، وصرح بالربوبيَّة ، وبيَّن للناس ما نزل إليه ، فأَدَّى من الوحي ما أُلقي عليه ، واستُنقذ من العَمَى ، وافتكّ من قيود الجهالة الجهلى ، وحمل على الواضحة البيضاء ، وأَوضح بهدايته السُّبُل ، واستسهل في تبليغ أَمانته ما شقّ وثقُل ، وختم برسالته ونبوءته الانبياء والرُّسُل ، وأَوضح من أَمر الله ما استحفظه واستودَعَه ، وأَنهاه إلى أَقصاه كما وعاهُ وجَمَعَه ، وما زالَتْ في ذلك كلّه كلاءَةُ الله الواقية وعصمتُه الباقية مَعَه . وأَخبر ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ بأَنباء من الغيب ، فرئَتْ بمشاهدة ما بشر منها وأَنذر من خوالج الشكّ والريب .

وأَنبأَ أَنّ هذا الدين بعد كماله ، واستواء نهضته المؤيّدة واستقلاله ،

والتوفيق التامّ على مشروع حرامه وحلاله ، سيعتوره التغيير والتبديل ، ويلحقه بعد صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ التحريف والتحويل ، بما ينشأ فيه على ما أعلم بوصفه ، وحدّث عن كنهه ، من نواشيء البدع وطواريء المحدثات ، وقلب الأمور وعكس الحقائق وطمس آثار الحقّ باتّباع الأهواء وإيثار الشهوات ، وعبادة الأطماع والانقياد إلى بواعث النفوس الأمّارة بالسوء المتهافتة على الحطام ، المشغوفة بالزخرف ، الناظرة بالعور العوراء الى دار الغرور ؛ وأنّ تمكُّنَ هذا الفساد ، واستعجالَ هذا الداء بالأئمّة المُضلّين ، الذين مرقوا عن الدين ، واتّبعوا غير سبيل المؤمنين ، وأنّ العلمَ عند ذلك يرتفع ، والجهلَ يعمُّ ، والظلمَ يشمل ، وأنّ الدين يعود غريباً كما بدأ غريبا ، وأنّ عودتَه بظهور المنبأ به والمخبَر عنه ، المصطفى من بيته ، المختار من نسبه ، المؤمّل لاحياء سنّته ، الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ـ رضي الله عنه ـ الذى بشّر ـ صلىّ الله عليه وسلّم ـ بعلاماته ، وأخبر عن أماراته ، الشاهدة له الدالّة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل ، المتّبع غير مُخطيء لأثره ، المقتدي به ـ عليه السلام ـ في مورده ومصدره ؛ فجاء ـ رضي الله عنه ـ على موافقة ما أخبر ، ومشاكلة ما أنبأ ، قائماً في آخر الزمان وعند شمول الضلالة وتلدُّد الحيرة وتموُّج الفتنة وارتفاع العلم ، وستحكام الجهل وفشوّ الظلم ؛ فظهر به ـ رضي الله عنه ـ لما خصّه الله من الهداية وعلّمه من الحكمة ، وأحلّه من مقام العصمة ، ونواه من معقل الامامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ،

ما صدّق ما نطقتْ به الآثار، وتضمّنته الاخبار، واحتوتْ عليه الصحف وتداولته النَّقَلة، ممّا أعطى القلوب العارفة الطمأنينة، ومنحها الثَّلج، وأراها عين اليقين من ظهور العلم وانبثاث العدل، والصدوع بالحقّ والجهاد لأهل الباطل، والقتال على أمر الله والنصرة الظاهرة، والغلبة القاهرة، على الاستمرار الدائم، والعمل المتّصل القائم، دائماً به أمره ما دامت السموات والارض، قائمةٌ به دعوته كما وعد إلى قيام الساعة. قد حفظ الله مقامه وأمدّه بخليفته وصاحبه الامام أمير المؤمنين الذي مدّ أطنابه، ومكّن أسبابه، وأفاض أنواره، ومشى مناجهه الكريمة وآثاره، وقام بحقّ التبيين لأمره والاذاعة لدعوته، وحمل العباد على سبيله وإيداع القلوب علمه الذي ورثه ـ رضي الله عنه ـ واستحقّه حصيصاً منه، وواصَل تمشيته، وتضمّن بما أيّده الله من التأييد تميته. فهو ـ والحمدُ لله ـ محفوظُ الجانب، مكلوءُ النواحي، معصومُ الارجاء، موعودٌ بما أراد الله من إكماله وإتمام نوره بالنصر الذي لا يتوقّف عنه في حال، ولا يتخطّاه في حين؛ قد تولّى من العناية به والكفالة بما قضى له بالاستغناء، وحكم له بالعزّة والاعتلاء، آياته بذلك مشهورة، وآثاره معلومة مأثورة، ومقاماته مشهودة محضورة، وأيّامه في صحائف الذكر الباقي مكتوبة مسطورة، ولا مستقرّ في أنّه الحقُّ لشبهة ولا جهالة، ولا موقف لحيرة ولا ضلالة؛ ولا مطمح لناظر، ولا مسرح لخاطر، إلّا تحت هداية بيّنة ودلالة، ولا يزال النصرُ له

يستتبّ ، والتأييد يطرد ولا يغبّ ، باتّباع سُبُله وانتحاء طُرُقه والوفاء بعهوده ، والوقوف عند رسومه وحدوده .

وإنّا ـ وصل الله توفيقكم بما له علينا من هذه العهدة اللازمة والامانة المتقلَّدة والحياطة التي حملناها ، والرعاية التي كفلناها ، والتي نسأل الله ـ جلّ جلالُه ـ عوناً على القيام بها والنهوض بأعبائها والبلوغ إلى رضا الله عنّا في أداء الامانة فيها ـ نَدْعُوكم برعاية الله إلى هذا الامر العظيم ، ونُهِيبُ بكم إلى السلوك لطريقه الواضح المستقيم ، وإلى الاخذ منه الحظّ الوافر المستديم ، وأن تكونوا صدراً في حزبه ، حائزين شرف المجلس من شعبه ، وأن تنظروه بعين الاعتبار ، وتتأمّلوه تأمُّلَ ذوي الاستبصار ، وتجرّدوا تفكُّركم في آثار هديه ومدارج سننه ومرامي مقاصده وجملة ما يدعو إليه ويحمل عليه ممّا هو طريقٌ إلى النجاة وسُلَّمٌ إلى الفوز وسببٌ إلى سعادة الأَبَد ، ومنال النعيم السرْمَد ؛ فَسَيُفْضي بكم ذلك إلى التحقيق ووازن الأُمور بميزان العدل ، وسَبْرِها بمعيار العقل ، والقضاء عليها بمشاهدة الحسن إلى معرفة ما أَرَدْناه لكم من الخير ، وبذَلْناه لكم من النصح ، وأَمَّلْناه لكم من توفُّر قسطكم في هذا الامر واستفراه نصيبكم من هذه الدعوة التي لا إيمان لمن لم يؤمن بها ، ولا دين لمن لم يدِنْ مصدقاً بها ، ولا عهد لمن لم يستَدِمْ بها ، ولا مستند لمن لم يستند إليها . وإنّ مَنْ أَعرض عنها أَو شكّ فيها ولم يتقلّدها ، ولا استمسك بعصمة وطاعة منها ، فقد ردّ ما نطق به الوحيُ وكذّب بما جاءت به الرُّسُل ، ولم ينفعه عند الله أَن يؤمن ببعض

ويكفر ببعض . وإذا وفّقكم الله للتعلّق والتوثّق بعُراها ، وخرقتمْ بنفوذ البصر والبصيرة حجب القواطع ، وكشفتمْ مغديات الشواغل ، طالعتمْ منها ما يرضيكم ديناً ودنيا ، وشارفتمْ ما يقرّبكم إلى الله زلفا ، وخلصتمْ إلى ما يحفظ لكم المنزلة السامية ، والرتبة الزاكية النامية ، في الأولى والأخرى ، وكنتمْ في أعوان هذا الامر وأنصاره ، وعدد أشياعه وأوليائه ، وتسَرْبَلتمْ بثوب العزّة بالايمان ، وأخذتمْ بعصمة أمانة العصمة التامّة من كلّ حدثان ، ورضيتمْ لانفسكم بموالاة من تولّى الله ورسوله ، ولم يرْض متولّى دونه . وإنّه ــ أعزّكم الله ــ ليربأ بمن كان له إدراك يفصّل به بين الحقّ والباطل ، والحالي والعاطل ، ويفرّق به بين المتضادّات ، ويميّز به بين المتنافيات ، أن يميل عن الأَولى ، ويفرج عن الاحقّ الاحذى ، ويفرض عمّا تبدّى له من الحقّ معترضاً في أحسن المناظر وتجلّى ، وما أحقّ من قرعَتْ سمعهُ الذكرى أنْ يقول أهلا ؛ النور جليّ ، والسراط مولّي ، والكلّ بأتباعه لئلّا تتفرّق به السبل خليقٌ جريّ ؛ فكونوا ممّن أخذ لنفسه من نفسه ، وأثار ليومه من أمْسه ، وانتفع بأعمال ظنّه في مكاشفة العواقب وحدْسه . وإذا أرسلتمْ أرشية أفكاركم ، في قلب أذكاركم ، وأطلقتمْ أعنّة اعتباركم ، في ميادين ما مرّ على أبصاركم ، تجدون أنّ من شغل نفسه بمكابدة هذا الامر ومكابدته ، وقطع مسافة عمره بمخالفته ومعاندته ، قد خاب مكدحُه وأخفق مسعاه ، ولم يُحْلَ بطائل ، ولا حظي بنائل ؛ فإمّا صريع حتوف ، طعناً بالرماح وقعصاً تحت ظلال السيوف ، وإمّا أخيذ حسرة وأسف ،

ووقيذ زفرة ولهف ، قد قطعت عنقه المطامع ، وتلاعبت به حياته اليلامع واليرامع ؛ وإنّ وراءَ ذَيْنِكَ يوماً عصيبا ، وهَوْلاً يجعل الولدان شيبا ، وإنّ من غلب على دينه ، وافتلت عن إيمانه ، وحجب عن ربّه ، لَغَبينُ الصفقة ، خاسرُ المتجر ، وقلّما سمحت بذلك نفس تبيّنت الغيّ من الرشد ، وعرفت الجور من القصد .

وقد كان سيّدُنا أمير المؤمنين ـ أيّد الله أمرهم ـ في القديم ومنذ زمن طويل ، خاطبكم بهذه الدعوة وحملكم فيها على منهج النصيحة ، ولم يكن بلغ الكتاب أجله ، ونحنُ لأوامرِهِ العليّة مراعون ، وللمدعاة إلى دعاكم إليها داعون ، ولرأيه الجميل في هداية الخلق مشيعونَ مشايعون . فاقبلوها نصيحةً تحرز لكم حظّ السناء ، وتوجب لكم رتبة الخاصّة من الاولياء وتقتضى منكم في خير عمركم أفضل المناب في معونة هذا الامر وأحسن الغناء ، وتجمع عليكم بهذا التلافي الفائت في تلك الأوقات الماضية والآناء ، وتكونوا على هذه الرتبة كمن أجاب في أوّل النداء . والله تعالى يُعينكم على تقبُّل هذه الوصايا ومقابلتها بأحسن التلقّي وأنفع الالتفات ، ويجعلكم ممّن تنبّه للعظات ، واذّكر بالآيات ، بمنّه .

خاطَبْناكم بهذه المخاطبة دعاة إلى الله ، وإرشاداً إليه ، وتعريفاً بما لا يسع جهله من الفيئة إلى أمره ، والبدار إلى ما يجب من طاعته ، والاعتلاق بحبله ، والاستعصام بدينه . وما أطلعناكم إلّا على ذخيرة نصح ونخيلة ذكر ، لا مقصد لها إلّا الوفاء بعهد الله وميثاقه الذي واثق به ومحض النيّة في

صلاح الأُمّة وحملها على الجادّة وصيُّورها إلى رضا الله وقبوله. والله ينفع من ذلك بما أُريد له وقصد به.

وقد كان الشيخُ الاجلُّ أَبو حَفْص ـ أعزّه الله ـ تحرَّك في هذه السنة بعساكر الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ إلى الجزيرة الأندلسيَّة ـ حماها الله ـ بنيَّة الجهاد والغزو؛ فخاطبناه بما رأيناهُ من هذه المخاطبة إليكم أَن يتنكّب ذلك الجانب، ولأَن لا يعرّضه بقصده وأَن يتجلّى عنه إلى سواه رَيْثما يصل كتابُكم، ويستعلم ما عندكم، من إجابة الدعاء والتلفُّت إليه؛ فيكون بدارُ الجواب على حكم ذلك. والله يحملكم على ما تتعرّفون بركته، تجتنون عاجلًا وآجلًا ثمرته، وتحمدون مآله بالاستبصار في أَمر الله وبغيته. فذلك بيده، لا ربٌّ سواه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه.

كُتب بعد صلاة الجمعة من أوّل يوم من رمضان المعظّم سنة أَربع وستّين وخمسمائة.

الرسالة السادسة والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أَبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة:

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيَّده الله بنصره، وأَمدّه بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والشيوخ والاعيان والكافّة بقرطبة ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه، وأَطلع عليهم وفود بشراه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه.

أَمَّا بعدُ فإِنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إِله إِلَّا هو ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه ورسوله ، والحمدُ لله الذي جعل الامر العزيز عقبى الدار ، وشرف الايراد والاصدار ، وأَيَّده من نصره وجنده ، ومعونته وعضده ، بما يضمن له عادة الاعداء والاظهار ، ويبوّئه مبوَّأَ الصدق من الاستيلاء والغلبة والاقتهار ، وختم لهذه الطائفة المباركة بأَنَّهم المنصورون والمصيبون والمفتوح لهم وعداً يتمشّى لهم انتجازه مع اتّصال الاعصار ، وتظهر آيات الله فيه لائحة لذوي الابصار والاستبصار ، حتّى ينقاد في زمامه مصحباً ذو الشرادِ والنفار ، ويأْوي إلى ذراه الامين ، وربوته ذات القرار والعين ، الصعب الجامع في طلق الاباية والاستكبار ، ويدخل في الله مبادراً إلى رحماه من لم يكن تُرجى منه إِنابة البدار ؛ فتلتقي على الشهادة بأَنَّه أَمرُ الله أَلسنةُ الناطقين بالاقرار ، وأَحوالُ الصامتين التي هي أَدلُّ الدلالات عند ذوي اليقين والاسماع والابصار ؛ والصلاة على نبيّه المصطفى محمَّد الصادق الامين المختار ، المبتعث الى الاحمر والاسود آخِذاً بحجرهم عن النار ، المبشّر بأَنَّ مُلْكَ أُمّته يبلغ ما زُويَ له من من مشارق الارض ومغاربها من الانجاد والاغوار ، وعلى آله وصحبه الكرام الطيّبين الابرار ، الذين كان لهم في تعزيزه وتوقيره ونصره وإِقامة أَمره أَزكى الاثر والآثار ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأَمر الله مجاهداً أَهل الاعراض عنه والادبار ، المحيي سنَّة الله تعالى وقَدْ أَماتَها أَهلُ الجهل والجحد والانكار ، الداعي إِلى الله على بصيرة

مؤيّدة بأوضح الانوار ، المالئ الارض قسطاً وعدلاً وقدْ أَلحد فيها أَهلُ الكفر والاصرار ، وعن صاحبه وخليفته المنصور الناصر لدين الله سيّدنا أَمير المؤمنين مؤازره في القيام بأمر الله عنه عدم المؤازرين له والانصار ، ومُبَلِّغ دعوته العالية إلى منتهى أَمدها من الانبساط على البسيطة والانتشار ، ووارث مقامه العظيم المخلد شرفه عالياً باقياً حتَّى يرث الله أَكْلَأَ الاعمار .

وكتابُنا إليكم ـ كتب الله لكم من أَقسام السعادة ، والبشائر المُعادة ، ما يخلص إلى قلوبكم بطيب مسرّاه ويُحَيِّيكم وافدُه بما يجيئُكم به الله ـ من حضرة تونس ـ حرسها الله ـ والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانةُ به والتوكُّلُ عليه والشكرُ له سبحانه أَوّلاً وآخراً على ما أَولى أَولياء أَمره من معونة نهجَتْ لهم في جميع محاولاتهم السبيل ، وعرَّفَتهم فيها البركة والتسهيل ، والخيرة التي جمعَتْ لهم النجاح الميسّر الجميل ، والصنع الذي خرق العوائد وجاز الامنيّة والتأميل ، والله سبحانه يوزّعنا أَن نشكر فضله الجزيل ، ويلهمنا من محامده الجامع البليغ الحفيل ، بمنّه .

وقد انتهى إليكم ـ وفّقكم الله ـ ما سنى في هذه الوجهة الميمونة من الأُمور الشريفة والفتوح الجليلة التي جاوزَتْ مدَى الافهام ، وفاقَتْ بمبالغ الظنون والاوهام ، وقامَتْ أَزكى شهيد على مراد الله في هذه الدعوة العزيزة التي هي نظام الاسلام ، والحافظة شمل الخيرات على الانام ، والسامية في مَراقي شرفها مدَى الليالي والايّام ، حتى تبلغ الأُمّة برحمة الله

سبحانه إلى دار السلام . وأَعْلَمْناكم أيضاً ـ وفَّقكم الله ـ بما كان من طرف الموحّدين ـ أعزَّهم الله ـ إلى هذه الجهات الساحليَّة بعد الغزوة المباركة التي أَعلى الله بها منار الاسلام والايمان ، وأَخزى أَهل الشقاق والنفاق والطغيان ، حرصاً على إزاحة نفوس أَهل التوحيد من مشقّات احتملوها في طاعة الرحمان ، وإجماماً للسيوف حتى تتبيَّن مواقعها من رؤوس أَهل المرود والعصيان . وخلالَ ذلك جُمع أَشياخُ العَرَب وأَعيانُهم والمشارُ إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكُبَرائهم من جميع قبائل رِياح ـ وفّقهم الله ـ فذُكروا بحقوق هذا الامر العظيم وآلائه الجزيلة ومننه الجسام ، ونُبّهوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أَوّل الاسلام ، وأَنّ الله قد وعد هذه الطائفة المنصورة أَن تملك العرب كما بشّر به المصطفى ـ عليه أَفضل الصلاة والسلام ، وحُرّضوا على أَن يكون لهم في نصر هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام ، وعُرّفوا أَنّ الغرض فيهم إنّما هو غزوُ الرُّوم الذين بجزيرة الاندلس ـ مهّدها الله ـ فقد طال استشراؤُهم ، وأَملى اللهُ لهم فزاد عليه اجتراؤُهم ؛ ونُدِبوا إلى أَن ينفروا إلى ذلك بقضّهم وقضيضهم ، نفرةَ من أَنبت عن الوطن ، ونبذ علق المسكن والسكن ؛ وإن كانت هذه البلاد هي التربة التي مسَّت أَوّلاً جلودهم ، وقضوا فيها من الشباب عهودهم ، فالذي ينتقلون إليه من الرباط في سبيل الله يجمع لهم الخير في الدين والدنيا ، والشرف بالكون في عداد كلمة الله العُليا ؛ وبُيّن لهم أَنّهم إذا استقبلوا هذا الغزو السعيد ، والغرض الحميد ،

بنيّات متجرّدة ، وعزائم فيـه متجدّدة ، ونفروا إليه بجملتهم من غير استثناء ، واستصحبوا معهم من تتعلّق به الخواطرُ من أهل وأبناء ونَعَم وشاء ، وجعلوا ذلك كلّه وراءهم حيثُ ما يُرسم لهم من بلاد الاندلس ـ مهّدها الله ـ ثمّ صمدوا لعـدوّهم ، وتفرّغوا لرواحهم في سبيل الله وغدوّهم ، كانَتْ خواطرُهم لغزو أعدائهم أفرغ ، ومصاعُهم لاقرانهم أَصدق ، ووطأَتُهم على أهل الشرك أثقل ، وطيرانُهم لـكلّ هيعة يسمعون أَسرع ، وإقدامهم في كلّ موطن يَقِظ للكفّار أثبت .

وذاكَرْنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أَفضَتْ إلى قلوبهم ، وخلصَتْ إلى نفوسهم ، وتقلْقَلَتْ في بواطنهم ؛ فتحرَّكَتْ إلى ذلك حفائظُهم ، وثارَتْ لنصر دين الله عزائمُـهم ، وسَعَتْ بهم إلى هذا القصد الميمون نيّاتُهم وخواطرُهم ، وتلقّى جميعهم ذلك من البدار إليه ، والسرور به ، والوعد بالتشمير فيه ، بما يُرجى أنّ الله تعالى سيحقّق أملنا وأملهم في نصر دينه ، وإعزاز كلمته ، وجهاد أعدائه ، وأَخْذ مَنْ حادّ الله ورسوله معرضاً عن أمره ، وناصَبَ الايمان بإشراكه وكفره . ولم يَبْقَ من جموع رِياح كلّها ، على اختلاف قبائلها ، وتعدُّد عشائرها واتّساع أفخاذها وعمائرها ، إلى من حضر ذلك من أعيانهم ، وذوي حلومهم وأسنانهم ؛ وكلٌّ أظهر من جميل البدار ، وكريم الاهطاع ، والتأثُّر لهذا الغرض الجميل الذي يعود عليكم بكرم المآل وجزيل الثواب ، ما أقرَّ العيون ، وشرح الصدور ، وملأ بالبشرى القلوب ، وودع جميعُهم على الاخذ في الحركة

على هذه الصفة المباركة من التفـويض بالرحيل . والتسليم لهذا الامر العظيم ، والرضا بهذا الغرض الجميل ، وأَن يكون رباطُهم في سبيل الله عوضاً عن عشواء في الفتنة خبطوها ، وعمياء في الضلالة ركبوها ، وآثار في الفساد والعناد آثروها وارتكبوها .

وقد أَخذوا في الحركة بعون الله على طرق شتّى بعضها بالصحاري وبعضها بالسواحل ، كلٌّ قبيل منهم اختار أَقْرَب الطرق إلى الموضع الذي منه مبدأُ انتقاله ، وأَرْفَقها بنفسه وأَهله وماله ، وأَعْـوَذها عليه باليسر والسعة في أَحوال ترحاله . ورأَينا أَنَّ ذلك لهم أَوفق ، وبهم أَرفق ، حتّى لا يزدحموا في المسير ، ولا يتضايقوا مع اتّساع هذا الفضاء الحامل منهم للجمّاء الغفير . وقد أَصحبوا من الطَّلَبة والحُفَّاظ ـ أَكرمهم الله ـ من يُقيم مُنآدهم ، ويحفظ أَعدادهم . والله يكرم مقصدهم ، ويجعل التقوى زادهم . وقد سالَتْ بهم الاباطح ، وامتلأَتْ بجموعهم المواهي الفسائح ، وأَخذوا في النقلة على ما تحتمله المذاهب وتحمله المناسك . وإنَّ جموعهم ـ وفَّقهم الله وأَكرمكم جميعاً بتقواه ـ لَتُـكاثِر الحصر ومُعاد الرِّبَى ، وتملأُ الغيطان والرُّبَى ؛ وسيَصِل منهم على تلكم الجهات ما يردُّ الطرف حسيرا ، ولا تنتهى إليه الخواطر والاذهان تحصيلًا وتقديرا ، بحول الله تعالى وهو المستعان .

وكان ممَّن حضر لهذا المجتمع السعيد ، والخير الجديد ، والذكر المحفوظ بالتوفيـق والتسديد ، الشيخُ أَبو سِرْحان مسعود بن سُلْطان بن زِمام

ـ أكرمه الله ـ فظهر منه في هذه المشاهد الكريمة ، والمذاكرات المباركة ، والمحاضر الشريفة ، التي هي كلُّها من جملة أَعمال الايمان ، وطاعات الرحمان ، من جميل الاقوال والافعال ، التي تَنبي عن صادق العزم في جميع الاحوال ، ما شُكر فيه منابُه ، وصدق فيه احتسابُه ، ثمَّ أَخذ كما أَخذ سائرُ الاشياخ من العَرَب في الرحيل بنفسه وأَهله وولده وجملة من تعلَّق به ، واتَّصل بسببه ، من جماعته وقبيله وذوي نسبه ، ومن كان توقَّف بتوقُّفه وتأَخَّر بتأَخُّره ؛ وتقدَّم من ذلك تقدُّم الموفَّق السعيد ، والمبارك الرشيد ، وسار في الرعيل الاوَّل مبادراً إلى السعادة ، مسارعاً إلى الامتثال والطاعة ، والجدُّ نصب عينَيه واستبصارَه ، والجهاد في سبيل الله شغل خواطرَه وأَفكارَه . وكلُّ من كان من هؤلاء العَرَب قد أَساءَ الظنَّ بما ركب قبلُ من جرم ، واكتسب من إثم ، وتوقَّف على داعي الله وقد دعاهُ إلى ما يُحييه على بصيرة وعلم ؛ فقد بادر الآن بالامتثال ، وفوَّض للانتقال ، ورَجا ان يختم عملُه بالرباط في تلك الجزيرة محتسباً على الله بنفسه ، باذلاً في طاعة مولاه جهده ، مبايعاً بذلك ربَّه حتَّى يمحو ما سلف ، ويستقبل من هذا الخير ما ائتنف ، ويستبشرون ببيعتهم التي بايعوا بها من لا يضيع أَجر المؤمنين ، ويَرَى الله عمَلَهم والمؤمنون ، ومن استخلفه الله على المؤمنين .

وليس يبقى بعد هذه الغزوة المؤَيَّدة ، والنيَّة المجرَّدة ، بهذه البلاد كلِّها من العرب من يتطلَّع بعدُ إلى استجلابه ، ولا يتشوَّف إلى وصوله

إلى البلاد الغربيّة واقترابه ؛ فقد وعبوا في التخلّي عن هذه الاوطان ، وتركوها لمن كان فيها من القطّان ، سوى مَنْ سكن من قبائل سُلَيم بجهات إطْرابُلُس وما وراءها مشرقاً ومصحراً إلى بَرْقة والاسكندريّة . وقد وصل منهم قبل هذا جمعٌ ظاهرٌ من أشياخهم وأعيانهم وذُوكِروا فيما ذُوكِرَتْ فيه قبائل رِياح إخوانهم ، ووعدوا في ذلك بِعِدات أَعطوا فيها صفقة أَيمانهم ؛ وقد خُوطِبوا ، وكُوتِبوا ، وبُشّروا ، وأُنْذِروا ؛ وإن سمعهم النذير ، وكفاهم ما وعوه من التأنيس والتبشير ، والتخويف والتحذير ، ووفوا بما عاهدوا عليه الله ، فَسَيُحْمَدون لِسَواهم ، ويتلقّون مشافهة بشراهم ، ويدخلون مدخل إخوانهم ، ويصلون حبل الله بأَيمانهم ، ويفوزون بتصحيح عقائدهم وأَديانهم ، ويزدادون بالجهاد في سبيل الله إيماناً مع إيمانهم ؛ وإلّا فمن وراءهم طالبٌ مُدْرِك ، وآخذٌ من جند الله مُهْلِك . ولعلّ الله سيُصلحهم ويهديهم ، ويعصمهم ممّا يرديهم ، ويحشرهم إلى مقام يطهر قلوبهم من سالف اعتدائهم وتعدّيهم ، بحول الله .

ولَوْ لم يكن في هذه الحركة ، السعيدة المباركة ـ وفّقكم الله ـ إلّا ما كان الآن من أمر العَرَب وكفّ أَيديهم عن هذه البلاد ، وصرْفهم إلى ما استنفروا إليه من الجهاد ، وإجابتهم جميعاً بنفوس على الطاعة مقبلة ، ووجوهٍ ببشرى المتاب متهلّلة ، وقلوبٍ على الخير مصفقة ، ونيّات على إجابة داعي الله متّفقة ، لَكَبُرَ بذلك دليلًا على أَنّ هذا الامر العزيز لا ترتقي إلى فهمه العقول ، ولا تنتهي إليه الخواطر والظنون ، وأَنّهُ مؤيّدٌ

من الله ، بنور ينور به قلبُ من وفّقه لرضاه ، وييسّره ليسراه . فقد كانت العرب أَوّلاً وآخراً لا تنقاد لقائد ، ولا تلين في يد قاهر ، ذهاباً بنفوسها وطاعة لأنفتها ، واستكباراً على خالقها ، وإِبايةً عمّا تظنّه أنّه يضع من شرفها . فألان قلوبهم الآن لهذا الامر العظيم ، حتّى ألقتْ إِليه مقاليد التفويض والتسليم ، من الانهاء لرسوله ـ عليه أتمُّ الصلاة والتسليم ، حتّى ذلّتْ له صعابُهم ، وخضعَتْ له رقابُهم ؛ فنصروا دين الله حتّى استقرَّ في نصابه ، وضربوا على الباطل والكفر من لم يأتِ الحقّ من بابه ، وانقادوا مع أمر الله ورسوله وكتابه . ثمّ ضربوا المبطلين على تأويله حتّى دمغوا الباطل فزهَق ، وأرهقوا عُسْراً من كان رهق . ونرجو أنّ الله يستشرح صدورَ هؤلاء بنور هذا الامر العزيز حتّى ينصروه حديثاً كما نصروه قديما ، ويُتَمّموا بذلك شرَفهم تميما ، ومن أوفي بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيما .

وعجّلنا إِليكم ـ وفّقكم الله وأكرمكم بتقواه ـ هذه البشرى ، لتعلموا أنّكم لم تعموا عن الخواطر والافكار ، وأنّ جهاتكم لا يشغل عنها شيء من شواغل هذه الاقطار ، وأنّكم معتمدون أبداً من العناية ، والرعاية ، بما يعود عليكم بتبليغ الاوطار ؛ فبثّوها ـ وفّقكم الله ـ في أصقاعكم ، واجعلوا حديثها في قلوبكم وأسماعكم ، واعقدوا بشكر الله على ما منح بها معاقد أنديَتكم واجتماعكم . والله يُوليكم من رحمته ، ونعمته ، ما يعمُّ به ملأكم ، ويكرم به متبوّأكم ، بمنّه ، لا ربّ غيره وهو حسبنا ونعم الوكيل . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتب منتصفَ شهر شوّال سنة ستّ وسبعين وخمسمائة .

الرسالة السابعة والعشرون

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أبي الفَضْل بن طاهر بن مَخْشَرة المذكور :

من الامير يعقوب بن سيّدنا أَمير المؤمنين بن سيّدنا أَمير المؤمنين ـ أَيّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والاعيان والكافّة بإِغْرَناطة ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه ، وعرَّفهم عوارف نعماه ورحماه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فإِنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلَّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على محمّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي حفظ بهذا الامر العظيم رباط الاسلام ونظامَه ، وأَحيى بإِحيائه رُفاته ورُمامَه ، ونصب للمستضيئين بأَضوائه ، والمستبصرين في اتّباع سَنَنه اللاحب واقتفائه ، أَضواءَه الهادية وأَعلامَه ، واستحفظ أَمره العزيز في الذابّين عن حرماته ، والناهضين بأَعبائه وأَمانته ، ملقياً إليهم مقاليدَه وزمامَه ، ومُظهراً بهم مناهجَه القويمة وأَحكامَه ، وجعل إمامتَهم الحميدة ، وإيالتَهم المباركة السعيدة ، ملاذَ الدين وقوامَه ، وظهور الحقّ وانتظامَه ، وحَبَّ بتعاضُدهم وتوازُرهم ، وترافُدهم على تمشية أَمر الله تعالى وتظاهُرهم ، غاربَ الهرج وسنامَه ، وعمَّر ببركة مساعيهم ، وسعادة مآخذهم الموفَّقة ومناحيهم ، ربوعَ الايمان وخيامَه ، وضمَّ نشرَه ونظم التئامَه ؛ والصلاة على محمَّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبى ، الذي

أطفأ اللهُ به احتدام الكفر واضطرامَه ، وأزاح بأنواره الباهرة غَيْهَبَ الشرك وظلامَه ، وأعلى بحنيفيَّة الحقّ منار الحقّ وعمامَه ، وجعل بذأرته المنجية ، وبثأرته المزلفة إلى الرضوان المُدْنية ، انقضاء إرساله تعالى واختتامَه ، وكمالَ وحيه سبحانه إلى عباده وتمامَه ، ضاعف الله له ولعترته الطيّبين ، وصحابته الاكرمين ، صلواته الجمّة وسلامَه ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، علَم الهُدى وإمامه الذي اختاره الله تعالى للهداية واعتامَه ، وارتضاه لتجديد شريعة جدّه ـ عليه السلام ـ بعد الدثور وأقامَه ، وشفى بعلومه الجليَّة ، وبراهينه الواضحة القطعيَّة ، أدواء الجهل وأسقامَه ، وجلا بأضوائه الساطعة ، وتعليماته الرافعة الشكوك القاطعة ، دياجيرَه الحالكة وأظلامَه ؛ وعن صاحبه وخليفته سيّدنا الامام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامَه ، والمعمل في إعلاء كلمته وتمكين أمره الحقّ ودعوته شأنَه وحسامَه ، المجرّد في الوفاء بعهوده ، وانتجاز بشاراته الصادقة ووعوده ، عزمَه الكفيل بها واعتزامَه ؛ والدعاء لسيّدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين بن سيّدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصر يسكب السعدُ غمامَه ، ويجزل الجدُّ إقسامَه ، ويقتضي الفوزُ المسعد ، والفضلُ المعاون المنجد ، استمراره إلى قيام الساعة ودوامَه .

وهذا كتابُنا إليكم ـ أسمعكم الله من بشائر هذا الامر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحا ، ويعمر صدوركم انشراحا ، وأوسع أرجاءكم وأكنافكم انبساطاً في ظلّ الامنة وانفساحا ـ من حضرة إشبيلية ـ حرسها الله ـ ونحنُ

نستوهب الله عوناً على ما قلّدنا من أَمانته ، وإنهاضاً بما حملنا من نصر دينه وحمايته ، وإنجاداً على ما ننويه ونحاوله وندأَبُ فيه من حفظ أَمره ورعايته . والذي نوصّيكم به تقوى الله العظيم ، والعمل بطاعته ، والتوكُّل عليه وأَن توقِنوا بأَنَّ هذا الامر السعيد محفوظُ المقام ، منصورُ الاعلام ، مسدَّدُ النقض والابرام ، مقرونٌ بمقاصده اليمنُ والنجحُ على تعاقُب الادوار وتناوُب الايّام ، وأَنّه المصيب المنصور المفتوح له الذي لا يضرُّه مَنْ عانَدَه ولا مَنْ خذلَه مع تقادُم الاعصار وتطاوُل الاعوام ، بُشْرَى صادعة الدلائل ، ويُسْرَى صادقه المخايل ، وأَمرٌ محروسٌ لا يقدح فيه كيدُ كائد ولا خذلُ خاذل ، ولا يحلُّ عقودَه المبرمة ، وروابطه المستحكمة على تقوى الله المنتظمة ، حدوثُ حادثٍ ونزولُ نازل ، حتّى ينجز الله له وعدَه الكريم في الاستيلاء على الاقرب والابعد ، والانتهاء من ذروة الكمال والتمام في مسمّاها الاعلى الاصعد ، وايداعَ أَمانته العظيمة ، وعهوده الكريمة ، في الاقعد في الاختصاص فالاقعد ، إلى أَن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، والحمدُ لله ربّ العالمين .

وإنّه ـ وفّقكم الله وسدّدكم ، وأَعانكم على اتّباع أَوامره وأَنجدكم ـ لم تزل رغبات الموحّدين ـ أَعزّهم الله ـ وإخوانهم العَرَب ـ وفّقهم الله ـ تترادَف على سيّدنا أَمير المؤمنين ـ أَيّدهم الله بنصره وأَمدّهم بمعونته ـ في إرقائنا لهذا المرقى وتقليدنا هذه الامانة العظمى ، والافضاء إلينا بأَمره الاعزّ الاسمى ؛ فيقابلهم ـ أَعلى الله أَمره ، وأَعزّ نصره ـ من وعده

الكريم بكمال مطلبهم وتمامه ، واتّساقه على مقتضى آمالهم وانتظـامه ، ويعرّفهم بأنَّ هذا الامر له وقتٌ يرتقب لعقده فيه وإبرامه . ولمّا أَذن الله تعالى في دنوّ الميقات المنتظر واقترابه ، وأَراد سبحانه إنجاز وعده الكريم لسائليه وطلّابه ، وإقرار أَمره العظيم في معدنه الحافظ له ونصابه ، ورجع الموحّدون ـ أَعزّهم الله ـ من غزوتهم المبرورة التي أَعزَّ الله بها المسلمين وأَدالَهم ، وقمع المشركين وأَذالَهم ، وكرَّم بإحراز أَجرها ، واستخزان ذخرها ، حالَهم ومآلَهم ، وبلّغهم من نكاية أَعدائهم وتدويخ أَكنافهم وأَرجائهم ، ما تجاوز أَمانيهم وآمالَهم ، تعيَّن الوقتُ الموعود ، وحضر الزمنُ المرسوم له المحدود . وكان بحكم الاحتفال للغزوة المباركة ، وحرص الكافّة على اغتنام أُجور المُساهمة فيها والمُشاركة ، أَجمع من الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ ومن انضاف إليهم من الاجناد ، ومن كافّة العَرَب وأَعيان أَهل البلاد ، جمعٌ كثير ، وحفلٌ كبير ، يدخل فيما ارتبطوه عليه سائرُهم ، وتنتظم فيما عقدوه جماعتُهم الذين وراءهم وعشائرُهم ؛ فعرف كافّتُهم بما تقدَّم فيه سؤالُ الموحّدين والعَرَب ـ وفّقهم الله ـ ورغباتُهم ، وتكرَّرتْ في استنجازه طلباتُهم ، وقرعَتْ باب استفتاحه بداتُهم ، وانتهتْ إلى إيثاره واختياره نهاياتُهم ، ووقفَتْ عنده قصودُهم الميمّنة وغاياتُهم . فكان منهم من المبادرة إلى ذلك والاسراع ، والاعناق إلى إجابة داعيه والاهطاع ، والتلقّي لرايته المرفوعة بيمن الانقياد والانطباع ، ما قضى باستحكام الاصفاق

عليه من الـكافّة والاجماع ، ورغبوا في إكمال ذلك لفورهم ، وألحّوا في طلب المبايعة لحينهم ، واتّفقت عليه آراء كافّتهم وجميعهم .

ولمّا تحقّق منهم خلوصُ الضمائر ، واستواء البواطن والظواهر ، واستحكامُ النيّات فيه والبصائر ، أُسْعِفوا بمطلوبهم ، ومُكِّنوا من مرادهم ومحبوبهم ، وأُحضروا لأَخْذ البيعة عليهم أفواجا ، وسلكوا من الطاعة الصادقة سبلًا فجاجا ، واقتفوا في ذلك من آثار هذا الامر العظيم جوادّ قاصدة ومنهاجا . وبادَرَ الاعيانُ من الموحّدين وغيرهم ـ وفّق الله جميعهم ـ إلى البيعة وسارعوا ، وترادَف الناسُ بعدهم وتتابعوا ، وأَعطى الجميع صفقة أَيديهم بإخلاص من سرائرهم وبايعوا ؛ والتزموا فروض البيعة بشروطها وقيودها ، ووقفوا عند رسومها المعلومة وحدودها ، وأَمضوا على أَنفسهم أَحكام حقوق الطاعة الصحيحة وعهودها ، وارتضوها بنيّات صادقة ، وعزائم إلى اغتنام الأُجور مسابقة ، وضمائر لـكلّ شوب وريب مُباينة مُفارقة . وبايَعُونا على ما بويع عليه الامامُ المعصوم ، المهديُّ المعلوم ، وخليفتُه سيّدُنا الامام أَمير المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ وسيّدُنا الامام أَمير المؤمنين بنُ سيّدنا الخليفة أَمير المؤمنين ـ أَيّده الله بنصره ، وأَمدّه بمعونته ـ من الايمان والامانة والعدل والعبادة ، والسمع في المنشط والمكره والطاعة . وظهر على الـكافّة من دلائل البشرى ، ومخايل المسرّة بهذه النعمة الكبرى ، وشكر الله تعالى على ما يسّرهم له من اليُسْرى ، ما حُقِّق عند كلّ مؤمن ، وأُوضح لدى كلّ مسلم موقن ، أَنّ هذا الامر

السعيد ممكنٌ له في الارض ، مخدومُ الارادة في البسط والقبض ، منصورُ اللواء ، مؤيَّدٌ على مرّ الاوقات والآناء ، إلى يوم الدين والعرض . واتَّصلت المبايعة المذكورة اتّصالاً استوعب كافّة الموحّدين ومن معهم من الاجناد ، وإخوانهم العَرَب وأَعيان أَهل البلاد ـ وفّق الله جميعهم .

ورأَينا ـ وبالله التوفيق ـ أَن نعرّفوكم بهذا الامر الاعظم الاخطر ، لتأْخذوا منه بالحظّ الاوفر ، وتنالوا عاجز خيره الانْفَس ومذخور أَجره الاكبر ، وتدخلوا بالانتظام في سلكه مَداخلَ طائفته المفلحة وحزبه المظفَّر ؛ فتلقُّوا وافده الاكرم ، بالقبول سمعاً وطاعة ، وانشروا نبأه الافخم ، في جهاتكم وجنباتكم إشادةً وإشاعة ، وخُذُوا عهده المؤكَّد الالزم ، على كافّة أَهل حواضركم وبواديكم فئةً فئة وجماعةً جماعة . واستمسكوا بعروته الوثقى وغَرْزِه ، واعتصموا بكهفه الاوفى وحرزِه ، واغتنموا الدعة والهُدون في كنف أَمنه الشامل وعزِه ، إن شاء الله وهو وليٌّ توفيقكم وإرشادكم ، وإعانتكم على طاعته وإنجادكم ، بمنّه .

أَدام الله كرامتكم بتقواه ـ استدعَتْ هذه الحالة التي عُرِفتُمْ بها أَن يُزاد في الخطبة الزيادة التي اشتمل عليها المدْرَج في طيّ هذا الكتاب ؛ فَضَعُوها في موضعها منه ، واكتبوا بنُسَخها إلى جميع جهاتكم إن شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتب في السابع من جمادى الأُولى عام ثمانين وخمسمائة .

الرسالة الثامنة والعشرون

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن مَخْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والاعيان والكافّة بإشبيلية ـ أَدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه ، وأَعانهم على اتّباع أَمره والعمل بما يرضاه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فإنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي شيَّد بهذا الامر العزيز منار الحقّ وبناءه ، وتدارَك به زمن الإسلام بعد إشفائه على الذهاب وذماءه ، وحسم بأَمره القائم بالعدل ، الناظم لأَشتات الخير والفضل ، عِلَل الالتباس وأَدواءه ، ووقف على مصالح الأُمَّة وتفقّد ما يحفظ عليها نظام الدين والنعمة إعادته وإبداءه ؛ والصلاة على محمَّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبي ، الذي أَزاح اللهُ به ظلم الكفر وغناءه ، ونشر في البسيطة أَنوار دينه القيّم وأَضواءه ، ووعد وَعْدَ الصدق استحواذَ مُلْك أُمَّته على ما زُويَ له من المشارق والمغارب واستيلاءه ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الذي رفع الله بظهوره عَلَم الشرع ولواءه ، ووفّى الكافَّة بعِلْمه الواضح ، وهديه المستقيم الصالح ، مهاويَ الجهل وأَهواءه ، وجدّد به الاسلامُ بعد الانهاج والاخلاق بهاءه الاوّل

ورواءه ، وعن صاحبه وخليفته سيدنا الامام أمير المؤمنين المُجْري في القيام بأمر الله إجراءه ، والمُعْمل في تمشية دعوته وتميم بداءته صوارمه وآراءه ، والمخصوص من إحياء الدين وإرقائه مراقي التجديد والتمكين بما يسّر له توصيله إلى غاية التمام والكمال وإنهاءه ؛ والدعاءُ لسيّدنا الامام أمير المؤمنين ابن سيّدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصرٍ يقمع أعداءه ، وتأييدٍ يصحب عزائمه وأنهاءه ، وسعدٍ يقتضي دوامَ أمره عليًّا ظاهراً إلى قيام الساعة وبقاءه .

وهذا كتابُنا إليكم ـ كتب الله لكم من إرشاد هذا الامر العزيز ما يسلك سبل الاهتداء ، ويحملكم على محجّة الحقّ السواء ويوضح لكم معالم الاقتداء ، بهدْي السلف الصالح والائتساء ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكُّل عليه ، وأن توقنوا بأنّ الله جعل هذا الامر العظيم منجاة من الزلال وعصمة ، ونعمة سابقة على الخلائق ورحمة ، وضياءً مُزيحاً لكلّ غَيْهَب من الشرك وظلمة ، وهداية آخذة عن النار بحجر الأُمّة ، وأنّ الحقّ مقرون بعزماته ، والصلاح منتتج من إشاراته ، وخير الدنيا والآخرة متعرَّف من مقاصده المباركة وإراداته . وإلى ذلكم ـ وفّقكم الله وأعانكم على اكتساب رضاه ـ فإنّ الناس تجوّزوا في أمر الرُّبّ تجوُّزاً أغفلوا فيه الاجتهاد ، ورتعوا حول حماه رَتْعاً أوقعهم فيه أو كاد ، وتسامحوا فيه تسامُحاً خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد ، وحاوَلَ اتّخاذَه وبيعَه مَنْ لا يتوقّف على احترام ، ولا يتخوّف بما يكتسب من آثام ، ولا يقف عند

قوله ـ عليه السلام : ما أَسكر كثيرُه فملءُ الكفّ منه حرام . ولم يزل الاشتدادُ في هذا الامر القائم بالحقّ ، الناظر في مصالح الخلق ، يتناولهم بأَبلغ الزجر والقمع ، والاحتسابُ أَبداً يتخوّلهم بأَتمّ القهر والمنع ، والقتلُ في كلّ حين يأخذهم بأَشدّ الكفّ والردع ، والحالةُ الذميمة يزداد بهم تماديها ، والعادةُ السَّيّئَة المنقومة تحجبهم عن الحقيقة باستمرار تواليها ، ويذهلهم استصحاب الاسترسال ، وتمادي الذهول عن الواجب والاغفال ، عن تدارك زلاّتهم وتلافيها . والذي أَطلقه هذا الامر العزيز منه وأَجاز فيه مباح البيع والشراء ، ما أَنهى طبخه غاية الانهاء ، وصيَّر جرمه في قوام الطِّلاء ، كما فعل عُمَر ـ رضي الله عنه ـ اقتداءً بالخلفاء ، واهتداءً بالائمّة الصلحاء ، والصحابة البَرَرَة الاتقياء ، وأَخْذاً بقوله ـ صلّى الله عليه وسلّم : « أَصحابي كالنجوم ، بأَيّهم اقتديتُم اهتديتُم ! » اتّباعاً لأمره ـ عليه السلام ـ واقتفاء ، ووقوفاً عند المراسم الشرعيَّة وانتهاء ؛ فتعدَّى الناس ما حُدَّ لهم وتدرَّجوا إلى ما يختاره الله ويرتضيه ، وارتكبوا من اللبس والشبهات في ظلم الاختلاط ودياجيه .

ولمَّا تقرَّر عندنا من الالتباس في ذلك ما تقرَّر ، وتردَّد على أَسماعنا ما استرسل فيه وتكرَّر ، وعلمْنا أَنَّ الذي وسع على الناس من اتّخاذه لم يتبيَّن لهم الحقُّ فيه على وجهه ولَنْ يتحرَّر ، وأَنَّ ذلك ممَّا يصعب عليهم بسبب ما تساهلوا فيه ويتعذَّر ، رأَينا ـ واللهُ المستعان ـ أَنَّ قَطْعَه بالكلّيَّة أَخلق بالاحتياط لدينهم وأَجدر ؛ فمن العصمة أَلّا يَجِدوه ، ومن العون لهم

على تركه أن يعدموه ويفقدوه . فإذا وافاكم كتابُنا هذا بحول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فاقطعوه جملةً وتفصيلا ، ولا تُوجدوا أحداً إلى بيعه سبيلا ، واشتدُّوا في ذلك اشتداداً لا يوسع مستسْمَحاً فيه صُدوفاً عن هذا القصد الحميد ولا عُدولا ، وأخلوا الحوانيت التي كان يُباع فيها منه وأفقروها ، وأصرفوها لغير ذلك من المباحات وصَيِّروها ، والديارُ المعروفة ببيعه أيضاً لا تتركوها على ذلك ولا تقرِّروها ؛ وأريقوا ما تلقون من مشتبهه وملتبسه ، وعاقبوا من تجدونه عنده أشدَّ عقوبة على دلسه ؛ وتتبَّعوا في ذلك أبلغ تتبُّع وأشدَّه ، ومَنْ وجدتُمْ عنده رائحةً منه كائناً من كان فأقيموا عليه ما رسمه الشرعُ في ذلك وَحَدَّه ؛ وانظروا في تميم هذا الغرض الجامع بأصلحة الدين والدنيا أصحَّ نظر وأسدَّه ؛ وأشيدوا بذلك في جميع أرجائكم وَجِهاتكم ، وخاطبوا بنُسَخ كتابنا هذا سائر نواحيكم وجنباتكم ، ومَشُّوه بالجدّ المستوفى ، والاجتهاد البالغ المستقصى ، بما ينفعكم الله به في حياتكم ، وبعد مماتكم . والله يوفّقكم من ذلك لما يزلف عندَه ، ويمتري عاجلًا وآجلًا إحسانه ورفدَه ، بمنّه ؛ لا ربَّ غيره .

أدام اللهُ كرامتكم بتقواه ـ تأمرون العُمَّال هنا لكم بدفع جميع ما تحصَّل في هذا العام من زكاة الفطر للشيخ الفقيه القاضي أبي المكارِم ـ أكرمه الله بتقواه ـ يوزّعهُ على الضعفاء والمساكين رفقاً بهم وتوسعةً عليهم ؛ فاعتهدوا على ذلك إن شاء الله ـ عزَّ وجلَّ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتب عقب شهر رمضان سنة ثمانين وخمسمائة .

الرسالة التاسعة والعشرون

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيَّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحِّدين والاشياخ والاعيان والكافَّة بإشبيلية ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه ، وعرَّفهم عوارف رحماه وحسناه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمَّا بعد فإنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي هدم بهذا الامر العزيز أُصول الباطل وفروعَه ؛ وطمس بأَعلامه الواضحة ، وآياته البيِّنة اللائحة ، رسوم الظلال وربوعَه ؛ وهزم بأَمره القاهر ، وحقّه الغالب الظاهر ، أَحزاب الشيطان وجُموعَه ؛ وبدَّد جمَّاعه الخبيث وجموعَه ؛ واستأْصل صبابة الكفر البائد كما استأْصل ينبوعَه ؛ وأَلحق آخره بأَوَّله ، وأَصاره الى سوء مصيره وموئله ، مُبْدياً ذلَّه وخضوعَه ؛ مُمَزّقاً بأَيدي أَوليائه المهتدين ، وأَنصاره المؤَيَّدين المسدَّدين ، أَديمه ومسيِّلًا نجيعَه ؛ وختم له في كلّ محاولة ، بعقبي الدار ، وعرَّفه في كلّ معاجلة ومطاولة ، عوائد الاعلاء والاظهار ، ممهّداً له رحب نصره الاعمّ ووسيعَه ، وممكّناً في درج النماء ، ومراقي السموّ والعلاء ، صعوده وطلوعَه ؛ وجعل المصيب المنصور المفتوح له مواليَه ومطيعَه ؛ ووالاه من نصره الاغرّ وفتحه

الاغلب الابرّ ، جليلَه فجليلَه وبديعَه فبديعَه ؛ وأَجرى عوائده الكريمة له على إدلالها ، وأَمرها قبلَه على اطّرادها واتّصالها ، مكمّلًا لديه عوارفه ومتمّماً صنيعَه ؛ والصلوة على محمّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبى ، الذي شتَّت الله به منظوم شمل الكفر ومجموعَه ؛ وختم بنبوءته الخاتمة ، وشريعته الدائمة ، رسالاته المتقدّمة وسروعَه ؛ وأَلزم الاحمر والاسود مسنونَ دينه القيّم ومشروعَه ؛ وجعله وسيلًا له يوم المحشر وشفيعَه ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الذي لأَمَ به شعْثَ الاسلام وصدوعَه ؛ وأَبان بهدايته المنقذة من الضلال ، وإيالته الواضعة الاصْر عن الامامة والاغلال ، محجوبَ علم الحقائق وممنوعَه ؛ وقدّر عود الاسلام بدعوته ، على ما كان عليه في بدأَته ، ورجوعَه ؛ وعن صاحبه وخليفته سيّدنا الامام أَمير المؤمنين الذي حالَفَ في القيام بأَمر الله سُهادَه ونافَرَ هجوعَه ؛ واستلان في جِهاد أَعدائه ، وتبليغ أَمره العزيز إلى علية تميمه وإنهائه ، خَشِنَ مستصعبه واستعذب فظيعَه ؛ وناضَلَ في إعلاء كلمته ، وتمشية حقّه ودعوته ، حتّى هدَّ مَشيدَ الضلال واستباح منيعَه ؛ والدعاء لسيّدنا ومولانا الامام أَمير المؤمنين بن سيّدنا الخليفة أَمير المؤمنين بنصرٍ يوالي له سبحانه موصولَه ومشفوعَه ؛ وسعدٍ يمكّن من ملكته ، ويضع في قبضة قهره وغلبته ، مناويَه وخليعَه ؛ ويجعل من عانَدَ أَمْرَه ، وخالَفَ في طاعته سرَّهُ وجهرَه ، مجدَّلَ سيفه الماحق ومصروعَه ؛ ويعرّفه من تأْييده ، وتسديده ، كريمَهُ فكريمَه ورفيعَهُ فرفيعَه .

وهذا كتابُنا إليكم ـ كتب الله لكم تعرُّف المسرَّات والبشائر ، وأولاكم من فضله وطَوْله كلَّ منٍّ ظاهر وأَمْنٍ غامر ، وآواكم من عدل هذا الامر العظيم ورفقه إلى الركن الارشد والظلّ الساتر ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ ونحنُ نحمدُ الله تعالى على نِعَمه التي لا يحصيها العدّ ، وقِسَمه التي لا يحيط بها الرسم والجدّ ، ويقصر في العبارة عنها كلُّ قول وإن يبلغ فيه المنتهى وبُذل الجهد ، ونسأَله سبحانه توفيقاً إلى القيام بشكرها يؤيّده التسديد والعضد ، وعوناً على توفيقه الواجب من حقّها يمتري به المزيد من فضله ويستنجز الوعد . والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكُّل عليه .

وقد علمتُمْ ـ وفّقكم الله وسدَّدكم ، وأَهداكم إلى مصالحكم وأَرشدكم ، وأَعانكم على الاعتصام بعروة الطاعة الوثقى وأَنجدكم ـ ما كانت عليه حالةُ الكافر الغادر ، اللعين الخائن الخاسر ، بقيَّة الحثالة الغاوية وسُؤر الكفر الداثر ، شقيّ مَيُورْقة ـ لعنه الله ـ من الانكماش في جزيرته ، والمصانعة بخلوص علانيته في الطاعة وسريرته ، والمغالطة بانعقاد عقيدته عن المشايعة والموالاة واستحكام بصيرته ؛ وهو منطوٍ على العداوة لله ورسوله ، ومتنكّبٌ طريقَ الحقّ وسواءَ سبيله ، ومستسرٌّ بصدوده عن الجادَّة الواضحة وعدوله ، مُبرأٌ للجُسُر في الارتغاء ، مترصّدٌ لابتداء ، ما يمكنه من طلب للفتنة وابتغاء ، متربّصٌ لدائرة السوء العائدة عليه فيما رامه من عناد وانتزاء ، إلى أَن استثار شفرة حتفه ، وبحث عن هلكه بظلفه ، وتورّط

فيما أَحاط به مكرُه السَّيّئ من عن يمينه وشماله وأَمامه وخلفه ، وكفر بأَنْعُم الله فَذاقَ لباس جوعه وخوفه ، ورام السموَّ إلى منـال حكم الله بِرَدّه خاسئاً وصرفه ؛ وتلك عادةُ الله الكريمة فيمن حادَّ أَمره الذي اجتباه ، لاحياء دينه ، وارتضاه ، لتمهيد شرعه وتمكينه ، وحباه ، من نصره المؤَزَّر ، وفتحه الميسَّر ، بغزيره ومبينه ؛ فلا ينبذ لمنابذته ناجم ولا يعزم على مقاطعته إلّا اكتنفَتْه المعاطب من شماله ويمينه ، صنعٌ من الله تعالى جميل أَجرى به عوائده الجميلة له على اطّرادها ، وأَدامها على متعرّفها الكريم ومعتادها ، وأَظهر في كلّ متنـاوَل ، ومقصد مزاوَل ومحاوَل ، تضاعُف نمـوّها وازديادها ، والحمدُ لله على مِنَنه الذي لا يفي الوسع بإِحصائها وتعدادها .

ولمَّا عَنَتْ للفاسق الفرصة ، اغتنم بزعمه انتهازَها ، ولمَّا مكَّنَتْه الغرَّة ، حاوَلَ برأْيه البائس اقتناصها واحتيازَها ، وتطلَّب من أَمانيـه الكاذبة ، وأَراجيه الخائبة ، تأَتّيها وانتجازَها ؛ فكذَّب الله آمالَه ، وقلَّص أَفياءه القاصرة وظلالَه ، وقدَّر في سعيه الخاسر ، تلاشي أَمره الدائر ، واضمحلالَه ؛ فداخلَ أَوباشاً ممَّن كان ببجاية ممَّن رقَّ دينُه ، وضعف إيمانُه ويقينُه ، وزان على قلبه شيطانُه المضلّ وقرينُه ؛ فيسَّروا له تمهُّد صَهْوَتها ، وأَعانوه على تسنُّم ذَرْوَتها ، ووصلوا بسببه الضعيـف أَسباب قَهْرها وغَلَبَتها . ولمّا قرَّ فيها قرارُه ، وانتشر بها فسّاقُه وفجّارُه ، ووضح له من أَمله الكذوب في تملُّكها صبحُه ونهارُه ، تعاوَتْ إليـه ذئابُ الغارة وكلابُها ، واتَّصلَتْ به أَوغادُ الفتنة وأَوشابُها ، وتجمَّع له من أَشباهه في

الجهالة ، وأَعوانه في الضلالة ، أَوزاعٌ تمكَّنت بهم أَسباب غِرَّته وامتدَّتْ أَطنابُها ؛ فقوي طمعُه في الاستيلاء على ذواتها ، وسوَّلتْ له نفسُه الخبيثة الاستحواذ على جهاتها ، والتمكُّن من أَرجائها وجنباتها ، وامتدَّتْ أَطماعُ الكافر وآماله ، وغرَّه إملاءُ الله تعالى وإمهالُه ، وغطَّى على بصيرته العمياء جهلُه وضلالُه ؛ فتطوَّف على الجَزائر ومِلْيانة وأَشير والقَلْعة وكرَّ منها إلى بجاية ، وآبَ الخاسرُ الكافر وقد خاض هذه الجهات خوضَ المُذِلِّ ، واستباح حرمة أَهلها ، استباحةَ المستحِلِّ ، وعركها عَرْكَ الرحى بثفالها ، دون مراقبة ذمَّةٍ فيهم ولا إلٍّ ، يأْخذ أَموالهم بغير حقِّها ، ويصرِّفها في غير مستوجبها ومستحقِّها ، ويحملهم من كلف المغارم ، ومون الملازم ، ما لا طاقة لهم بحملها وأَوْقِها ، يمضي أَحكام الجور فيهم ، ويبسط أَشياعُه الاخسرون إليهم أَيدي تطاوُلهم وتعدّيهم ، ويسومهم العسف والخسفُ يُراوحهم ويُغاديهم ، راكباً رأْسه في الاغترار ، منخدعاً بما أُملي له من مدَّة الانجرار ، غافلًا عن قوله سبحانه : « وسَيَعْلَمُ الكافرُ لِمَنْ عُقْبَى الدار » .

ولمَّا استفزَّه بما تهيَّأَ له ببجاية وجهاته الغربيَّة طَمَعُه ، واستجرَّه حرصُه المُؤذي وجَشَعُه ، ووعدَته التملُّكَ لأَقطارها ، والاستيلاء على بواديها وأَمصارها ، ظنونُه الخائبةُ وخدَعُه ، قصد إلى قُسَنْطِينة - كلأَها الله - مؤمِّلًا اختداع أَهلها ، ومقدِّرا نفوذ حيله في خترها وختلها ، ومعملًا جهدَه ، ومصرفاً مكره وكيدَه ، فيما يصل حبله الواهي بحبلها ؛ فأَلفى بصائر أَهلها مستحكمة ، وعقائدهم على التقوى منبرمة ، وقلوبهم

على الطاعة الصحيحة ، والموالاة الخالصة الصريحة ، ملتئمة منتظمة .
فخاب بحمد الله سعيه ، وفال رأيه ، وبدا لأوليائه الأذلين فضيحته عليها وخزيه ؛ فداوم حصرها لزاما ، واستمطر من مساعيه المخفقة في خدعتها جهاما ، وفي كل ذلك يذيقه أهلها - أعانهم الله - حماما ، ويجرعونه من المذلة والاهانة كأسا رؤاما ، ويقتلون من شرذمته القليلة ، وجماعته الفليلة ، الجمل الجمة فرادى وتؤاما . وألح في الاقامة عليها راضيا بصفقة خساره ، مدرعا أثواب ذله وصغاره ، متسربلا سرابيل عاره وشناره ، محتملا لما ناله من فل غرب أرذاله الاخسرين وأغماره .

وكنا - وفقكم الله ويسركم لما يرضاه - عند ما أنهي إلينا أمره ، وتقرر لدينا خدعته ببجاية وغدره ، نظرنا في إغاثة المسلمين الذي تحكم فيهم جوره ، واستطال عليهم قهره وقسره ، وأخذنا في ذلك بواجب الاجتهاد ، من التأهب والاستعداد ، والنظر في كل ما يتمكن به أسباب الجهاد ، متيقنين أن الله تعالى لمن حاد أمره وعند عن سبيله بالمرصاد ، وأن معونته الربانية ، وتيسيراته الالاهية ، تغني عن العدد والاعداد ، وتقوم مقام الكتائب والاجناد ؛ لكنا أخذنا في ذلك بتعين الحزم جريا على المعتاد ، واثقين بعون الله وتأييده ، مستنجزين لصادق وعوده ، متوكلين عليه سبحانه في قريب التناول وبعيده ، متطلبين منه سبحانه عوائد توفيقه وتسديده ؛ فوجهنا من الطلبة - أعانهم الله - من نظر في أمر الأسطول المبارك وإعداده ، وتهيئته بما يصلحه من عدده وأعداده ؛

وأَمَرْناهم بالانحفاز في ذلك في أَقرب ما يمكن من أَوقات الزمان وآماده، وجرَّدْنا من الموحِّدين ـ أَعزَّهم الله ـ عَسْكراً منصورا، وجَمْعاً مباركاً موفورا، وقدَّمنا عليهم من الطَّلَبة ـ أَعزَّهم الله ـ مَنْ أَنْهضْناه لتدبيره، وعصَبْنا به النظر في أُموره، ووصَّيناهُ بتقوى الله تعالى في قليل أَمر وكثيره، وأَمَرْناه بالوقوف عند مراسم السُّنَّة وحدودها، والانتهاء إلى روابطها المحكمة وعهودها، والتقيُّد بأَحكام السياسة المصلحة وقيودها، وأن يبذلوا الأَمان لأَهل تلكم الجهات حاضرهم وباديهم، ويقدّموا الانذار والاعذار بين أَيديهم، ويشيدوا بها إشادةً يتساوى في العلم بها قاصيهم ودانيهم، إقامةَ للحجَّة عليهم، وأَخْذاً بالعدل والرفق فيهم؛ فنُفِّذوا على بركة الله ويمنه، وتوفيقه وعونه، ونصرُ الله تعالى يعضدُهم، وعونُه سبحانه ينجدُهم، وتوفيقُه ـ جلَّتْ قدرته ـ يسدّدهم ويرشدهم، ومخايل التيسير والتسهيل تبشّرهم بنجاح قصدهم وتَعمدُهم.

وفي خلال هذه المحاولات، وأَثناء هذه المآخذ السعيدة والموالات، طال الامدُ على الشقيّ فازداد تهوُّراً وخبالا، وجهل ما أَوقعَتْه الشقوة فيه أَملا، ليزداد إثْماً وإمهالا؛ فطلب الطعن وحده والجهاد، وطفق يتحلَّل القُرَى والبلاد، ويجوس الرُّبى والوهاد، ويعمّ بظلمه البلاء والعناد، جرأَةً على الله وكفراً به، وجرياً على عادته في الجور ومذهبه، وظنًّا كذوباً دلَّاهُ بالغرور في مطلبه. وكان من صنع الله لأَمره العزيز من حيث لا يحتسب، وفتحه الذي لا يعتري إلى القوَّة البشريَّة ولا ينتسب،

ونصره العزيز الذي لا ينال بحَوْل ولا قوَّة ولا يكتسب ، أَن أَلقى على قسنطينة ـ كلاَّ ها الله ـ عصا تسياره ، ولجَّ في مضايقته لها وحصاره ، وأَطاع في الطمع في مغالبتهـا أَمَّ مُغْريه المُضِـلّ وغرَّاره ، وشغل بها عمَّا كان يستروح إليه من هربه إلى جزيرته المستباحة وقراره ، حتَّى دهمه أَمرُ الله الذي لا ينجو منه هارب ، ولا يَعُزُّه مغالب ، وهو مستغرقٌ في سِنة غفلته واغتراره ، باقياً عليها طولَ ليله ونهاره .

واستمرَّ الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ على سيرهم المبرور ، وسَعْيهم الصالح المشكور ، وقصدهم الموقوف على رضا الله تعالى المنصور ، إلى أَن وصلوا مليانة أَوَّلَ البلاد الشرقيَّة ؛ فأَلقى أَهلُها وقبائلُها إليهم بالمقاليد ، ولاذوا بالاعتصام بهذا الامر السعيد ، وتبرَّؤوا إلى الله تعالى من الفرقة الغويَّة والشيطان المَريد ، وأَلَظُّوا بالمتاب والاستغفار ، واستمطروا من سحب العفو والاقالة كلَّ مدار ، واعتذروا أَنَّهم كانوا في قبضة القهر وربقة الاسار ؛ فقبلوا متابهم ، ووصلوا بأَسباب الصفح والقبول أَسبابهم ، وخصُّوهم من لزوم جادَّة النجاة ، والتزام الطاعة الصحيحة والموالاة ، على ما يُصلح حالَهم ، ويُسعد مآلَهم . وفرَّ الاشقياءُ الذين كانوا بها على وجوههم ، وساروا مُنْجرّين إلى مصارع حتوفهم ؛ فقَتَلَهم القبائلُ الذين على طريقهم بكلّ سبيل ، وأَتوا الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ بمن أَخَّره الحينُ منهم في ربقة الإِسار الخاضع الذليل ، ولم يفلت أَحدٌ من عددهم التافِه الحقير القليل . واقتدى الرعايا ـ وفَّقهم الله ـ بهذا الفعل السديد ،

وأشعروا كلَّ من قدروا عليه من الاشقياء شعار التثقيف والتصفيد ، وجاؤوا بهم إلى الموحّدين ـ أعزّهم الله ـ مَقُودين بأزمّة المهانة ، مَسُوقين بنسوع المَذَلَّة والاستكانة .

وكان طَلَبَةُ الأسطول المظفّر اجتمعوا بالموحّدين ـ أعزّهم الله ـ بتلمسان ـ كلأها الله ـ ورسموا لهم أن يكون اجتماعهم بالجزائر ـ كلأها الله ؛ فسبقت الأساطيل المؤيّدة إليها ، وأطلّت ببركة الله ويمن هذا الامر العزيز عليها ؛ فتيسّر لهم مرامها ، وانفرج للحين إبهامها ، وتجلّى بأنوار هذه الدعوة العليّة غَيْهَبُها الداجي وظلامها ؛ وبادر أهلها إلى فتح أبوابها ، والقبض على من أمكنهم ممّن كان عندهم من أوباش الضلالة وأوشابها ، وبان للشرذمة اللاعينة سوءُ مصيرها ومآبها . وكان ممّن حصل في ثقاف القهر ، وتمكّنت من عنقه الذليلة ربقةُ الاسر ، ابنُ عمّ الشقيّ الغويّ وجماعةٌ من أعيان شياطينه الرجماء ، وجملةٌ من كبار أصحابه الزعماء ـ مكّن الله من كافّتهم ، ومنَّ باستئصال شافتهم ، بمنّه .

وعرّفهم أشياخُ الجزائر وأعيانها أنّ الاشقياء الذين ببجاية عازمون على البعثة بالموحّدين ـ أعزّهم الله ـ الذين عندهم إلى مَيُورقة ـ فتحها الله ـ فسارعوا بالتوجّه نحوَها خوفاً ممّا ذُكر لهم ، ومبادرةَ أن يتمّم الاشقياء في ذلك أمَلهم ، ويعملوا مكايدهم فيه وحيلهم ؛ فلمّا انتهوا إليها ألفوا أخَوَي الشقيّ اللّذَيْن كانا بها قد أخذا فيما ظهر لهما بالاجتهاد ، وبالغا في الاحتياط والاستعداد ؛ فضربا أخبيتهما بخارجها ، ورتّبا رُتَبهما على

موالجها، وكتّبا كتائبها الفليلة أَثناءَ أَنقابها ومدارجها. وهيهات أَن يعصم من أَمر الله عاصم، أَو يروم مغالبته رائم، أَو يعازّه معازٌ أَو يقاومه مُقاوم؛ فهو أَمرُ الله المنجد على كلّ مُحارب، المظهّر على كلّ مُطالب ومُغالب، الموعود بالاستيلاء على ما روي لنبيّنا ـ عليه السلام ـ من المشارق والمغارب. فلمّا قرب الأُسطول المبارك منها تقدّم من طَلَبته ـ وفّقهم الله ـ الشيخُ أَبو محمّد عبد الله بن أَبي إِسحاق ـ أَكرمه الله ـ فخاطَبَ أَهل البلد ـ وفّقهم الله ـ بما بسط نفوسهم، ومكّن تأْسيسهم، وعرّفهم بالغرض الجميل فيهم، وما كان من بذل الامان لجميعهم؛ ورسم لهم أَن يدخلوا ديارهم، ويظهروا في الطاعة آثارهم؛ فثابتْ إِليهم بصائرُهم، واستحكمَتْ على التقوى نيّاتُهم وسرائرُهم، وخلصَتْ في الايمان والايقان طويّاتُهم وضمائرهم، وأَلقوا بيد المستسلم المبادر، ونابذوا الاشقياءَ المَيُورقيّين منابذة المباعد المنافر، وتبرّؤُوا إِلى الله تعالى وإِلى أَولياء أَمره العزيز من موالاة أَمره الغادر الكافر.

وكانَتْ للكفر ببجاية شَوْكةٌ اعتزُّوا بها، وَخُوَيلَةٌ تخيّلوا التمويهَ على الغُزاة ـ أَنجدهم الله ـ بسببها؛ فبرز الغُزاة ـ أَعانهم الله ـ إِليهم، واستعانوا بالله سبحانه عليهم، وناشبوهم القتالَ أَشدَّ مناشبة، ودافعوهم بأَتمّ المدافعة والمحاربة، وصدّقوا الله تعالى فيما قابلهم به من مطاعنة ومضاربة؛ فوالَى الفَسَقة عليهم الدفعات، ووا تَروا الحملات الصادقة والشدّات؛ فكان أَولياءُ الله صُبَراءَ أَنجادا، كراماً عند اللقاء مجادا، فصدّقوهم المكافحة

قِراعا وجِلادا ، واحتسبوا جهادهم ذخراً عند الله وعتادا ؛ فنصر اللهُ ناصره ، وقطع أَواخي الكفر وأَواصِره ؛ وانهزم الاشقياءُ ـ أَخابهم الله ـ لا يلوون على من تأَخّر ، ولا يأوون لمن تعذّر ، ولا يَرْثون لمن عجز عن سيرهم الخبيث أَو قصر ، يرومون اللحاق بغَوِيّهم ، ويأْملون الاجتماع بشَقِيّهم . وكان في هذه الجملة اللئيمة ، والشرذمة الذميمة ، أَخَوا الفاسق المذكوران ؛ ففرّا فيمن فرّ من أَغويائهم ، وطارا على وجوههم مع من انهزم من أَوليائهم الكَفَرة الفجَرة وأَشقيائهم ، والله يستأْصل جميعهم ، ويمحو بأَسياف هذا الامر العزيز تابعهم ومتبوعهم ، بمنّه .

وبادر الغُزاةُ ـ أَعانهم الله ـ إلى البلد فدخلوه ، واحتووا على من بقي فيه من الكفرة وتملّكوه ، دون عهدٍ يمنع منهم ، ولا عقدٍ يحجر عنهم ، وسارعوا إلى الطَّلَبة ـ أَعزَّهم الله ـ والموحّدين الذين كانوا معهم ـ وفَّقهم الله ـ فأَلفوهم بحمد الله على أَحسن أَحوال السلامة ، متعرّفين من الله تعالى كلَّ نعمة وكرامة ، مخوَّلين من عونه وصونه كلَّ عصمة مستصحبة وكلاءة مستدامة ، وحصل في أَيدي الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ ببجاية الضالُّ الغويُّ المسمَّى رشيداً عظيمُ الاشقياء ومديرُ أَمرهم ، وزعيمُ طغيانهم وكفرهم ، ومُوقِد نار فتنتهم وشرّهم . وأَلفوا أُسطول الخائن بجملته ، بجميع ما كان تأَهَّب له من أُهَبه وعُدَّته ؛ فنفلَهُ اللهُ أَولياءه ، وضاعف قِبَلهم بذلك نعماءه ، وعرَّفهم مزيد فضله عندهم ونماءه .

ولمّا سهَّل الله لهم استعادة بجاية وفتحَها ، وأَطلع تعالى بأَنوار هذا

الامر العزيز فجرَها وصبحَها، بادروا بإعلام الطَّلَبة الغُزاة - أعزَّهم الله - بهذا النبأ السارّ، واستعجلوا بتعريفهم بما منح الله فيه من البشر والمسارّ؛ فلقيَتْهم مخاطبتُهم بذلك وقد انتهوا إلى أوائل مَتِّيجة - مهَّدها الله - فطيَّروا إلينا بخطابهم المذكور، وأردفوه بكتابهم معلّمين بما لقوه في محاولتهم من التبشير والتيسير، وأوضحوا فيه ما عرَّفناكم به من صنع الله وتسهيله، وما سناه سبحانه من كريم الفتح وجليله، ووالاه - جلَّتْ قدرته - من متابع منّه وموصوله.

وبقي الخائن الخاسر بجهة قسنطينة - حاطها الله - مسلوباً محروبا، مفلولاً منكوبا، قد أوبقَتْه ذنوبُه وجرائرُه، وخذله مُعينُه وناصرُه، وأسلمَتْه إلى الحَيْن المُتاح، والموت المستأصل المجتاح، أقاربُه وعشائرُه، وانبهمَتْ عليه - خزاه الله - أوائل أمده الدائر وأواخره. وكأنَّ قد أمكن الله منه أسيراً أو قتيلا، إذ لا يجِدْ إلى مفرّ سبيلا، ولا يستطيع إلى نجاة تسبُّباً ووصولا؛ والله يعجل به إلى ما أعدَّ له من عذابه، ويصليه أليم نكاله وعقابه، بمنه وكرمه.

وعرَّفناكم - أكرمكم الله - بهذه البشائر، والصنع الكريم الباهر، والفتح المتناصر المتظاهر، لتأخذوا من المسرّة فيه بأوفى نصيب، وتفيضوا في شكر موليه سبحانه بسهم مصيب، وتوالوا حمدَهُ تعالى على ما أرَى الاعداء من هول ماحق ويوم عصيب. فاستديموا النعمة في ذلك بشكرها، ووفُّوها واجب التحدُّث بها ونشرها، وأشيدوا بها في أرجائكم وأنظاركم،

وخاطبوا بنُسَخها إلى بواديكم وأقطارهم ، واستشعروا حمد الله تعالى وشكره في إعلانكم وإسراركم ، ومَهِّدوا بالانقياد لأمر الله تعالى مَهْد استيطانكم في ظلّ أَمنته وقراركم ؛ والله يوفّقكم من ذلك إلّا يقتضي نجاح إيرادكم وإصداركم ، بمنّه وكرمه ، لا ربَّ غيره . والسلام العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

كُتب في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

الرسالة الثلاثون

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين – أَيَّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته – إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والكافَّة بمرَّاكش – أَدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه ، وأَوزعهم شكراً يكون كفاءً لمن منَّ به وأَولاه ، وأَمتع أَسماعكم ببهجات مسرّات هذا الامر العزيز وبشراه – سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على سيّدنا محمّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي صدق وعدَه ، ونصر أَولياءه وعبيدَه ؛ وأَعزَّ أَنصار الحقّ وجنودَه ؛ وأَخزى لعزَّة أَمره القاهر ، وحزبه المفلح الظاهر ، عددَ الباطل وعديدَه ؛ وسنَّى لأَمره العظيم ، من فتحه العميم ، ومنحه الجسيم ، قشيبَ صنعه

الكريم ، وجديدَه ؛ وقرن بالتأييد والظفر ، والعون المصاحب والنصر المؤزّر ، عزائمَه وقصودَه ؛ وعرّفه في كلّ محاولة ، وأثناء ما يزيغه من مبادرة ومطاولة ، متعالمَ تيسيره ومعهودَه ؛ وكتب ببطشته المُبيدة ، وغلبة دعوته المبدئة في نصرة الدين المُعيدة ، مناويَه وعنيدَه ؛ وخضد بما أولاه من إعلاء ، وآتاه من بسطة واستيلاء ، شوكة مُعانده وأعدم وجودَه ؛ وأصلاه في أولاه وأخراه عذاباً ضرّم له وقودَه ، وأعدّ له في سواء الجحيم ، أليمَ عقابه العظيم ، وشديدَه ؛ وصيّره عبرةً للمعتبرين ، وعظةً للمدّكرين المستبصرين ، يستفيق بها من رام إنكار هذا الامر العزيز وجحودَه ، ويقوم برهاناً قاطعاً على عناية الله به ، وصلته أسباب التأييد والتمكين بسببه ، فيكفي ترديدَ المقال فيه وتعديدَه ؛ ويستيقن المؤمنون الموفّقون أنّ الله تعالى قد أنار سعودَه ، وأعلى مقاماته وحدودَه ، وضاعف لديه طارفَ إظهاره وتليدَه ، وقدّر بقاءه منصوراً مظفّراً إلى قيام الساعة وخلودَه ؛ والصلاة على محمّد نبيّه المُصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبى ، الذي أظهر الله برسالته الحنيفة تنزيهه وتوحيده ؛ وعرّف الكافّة بنبوّته العامّة تقديسه وتمجيده ؛ وخصّه بأن يشفعه في المحشر ، ويبعثه يوم العرض الاكبر ، شريفَ المقام ومحمودَه ؛ وعمّ بملّته الرافعة للملَل ، ودعوته الناسخة للشرائع والنحَل ، أبيضَ البَشَر وأسودَه ، وسيّدَه ومسُودَه ؛ وعمر بوجوبها وإلزامها ، واطّرادها إلى يوم الدين وانتظامها ، تهائمَ العالمَ ونجودَه ؛ ووعدَه وَعْدَ الحقّ بلوغَ مُلْك أمّته روابي المعمور المروي له ووهودَه ؛ والرضا عن

الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الذي أَقام الله بنـوره منارَ الاسلام وعمودَه ؛ وجعله محييَ شرعه القديم ومُعيدَه ، وماحيَ الظلال ومُبيدَه ، ومُنيلَ الدين الحقّ وجودَه الاتمَّ ومُفيدَه ؛ وقضى أَن تظهر دعوتُه العليَّة ، وكلمتُه الهادية المهديَّة ، تشريدَ الباطل وتبديدَه ، وإعادة الاسلام بعد غربته الثانية وتجريدَه ؛ وعن خليفته الارضى ، وصاحبه الاتقى الاهدى ، سيّدنا أَمير المؤمنين الذي أَورثه الله خلافته وعهودَه ؛ واختاره لأَنْ يتمَّ تقعيدَ أَمره العليّ وتمهيدَه ؛ فاقتفى آثاره الكريمة وحدودَه ، ونهض بأَمر الله باذلاً في تمشية حدّه وبالغاً في نصرته مجهودَه ، حتّى انتشرَتْ في الآفاق كلمتُه ، وعمَّتْ هدايتُه المرشدة ودعوتُه ، قريبَ المعمور وبعيدَه ؛ والدعاءُ لنجله الطاهر ، وفرعه الطيّب المحاتد والعناصر ، سيّدنا الامام أَمير المؤمنين ابن سيّدنا الخليفة الامام أَمير المؤمنين الذي ارتضاه لمقامه وكساه بُرودَه ، وأَحلّه من اصطفائه واجتبائه سعيدَ مكانه الارفع وحميدَه ؛ وحباه في تميم أَمره ، وتمكينه وشدّ أَزره ، رشيدَ الرأْي وسديدَه ، بنصر يصحب راياته المظفَّرة وبنودَه . وتوفيقٍ يقتضي إِمدادَه بالمعونة الالاهيَّة وتأْييدَه ، ويستنجز له من وعد الله الصادق حاضرَه وعتيدَه ، ويمتري من عميم فَضْله ، وجسيم طَوْله ، مضاعفَ إِحسانه ومزيدَه ، ويُديم إِعلاءَ أَمره العـزيز وصعودَه ، ما اتَّصلت الايَّام ، وتعاقبت الشهـور والاعوام ، متراخيَ الزمن الاطـوَلِ ومديدَه .

وهذا كتابُنا إِليكم ـ كتب الله لـكم من بشائر هذا الامر العزيز أَسرَّ

مسموع ، وقاد إِليكم بتواتُرها ، وتقاطُرها ، خيرَ مجموع ، وعرَّفكم بورودها ، ووفودها ، عوارفَ فضْله الاتمّ غيرَ مقطوع ، ولا ممنوع ، وأَوْزَعَكم مِنْ شكر مُولّيها ، وحَمْدِ مُسبّبها سبحانه ومُسنّيها ، ما يثبت لكم في صحف القبول أَرعى عملٍ صالحٍ ودعاءٍ مرفوع - من مَنْزِل الموحّدين - أَعزَّهم الله - بظاهر قابِس - حرسها الله - والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكُّل عليه . ونحنُ نشكره تعالى على ما منح من مِنَن ومواهب ، أَعادَتْ من الدين بهذه الارجاء كلَّ ذاهب ، وأَحلَّت الحقَّ في مقاماته العليَّة المراتب ، واسترجعَتْ ما نهَبَتْه يدُ الناهب الغاصب ، وجدَّلَتْ كلَّ مُعاند لأَمر الله ومُناصب ، وأَحاقت المكر السّيّء بالمحارب له والمصالب ، وغادرت العُبَّاق المُرَّاق كأَمْس الذاهب ، وأَعْلَت الكلمة المهديَّة في سماء عزّها السامية المراقب ، وأَظهرَتْ أَولياءها المؤيَّدين وأَنصارها المكافحين عن الدين ، في مظاهر النصر والتمكين ، كالنجوم الثواقب ، وأَجْرَتْهم على معهودهم من النصر المُراكب ، والفتح المُصاحب ، وعرَّفَتْهم في كافَّة مآخذهم عوارفَ اليسر الراهن والعون الراتب .

وإِلى ذلكم - وفَّقكم الله وسدَّدكم ، وأَعانكم على شكر نعماه وأَنجدكم - فقد علمتُمْ ما كان من الاشقياء الغُزّيين ، وإِخوانهم في الضلالة المَيُورقيّين ، من التسحُّب على أَرجاء هذه الجهات الافريقيَّة وأَكنافها ، وشنّهم الغارات بأَوساطها وأَطرافها ، وإِجماعهم على اكتساح زروعها في هذا العام

وانتسافها، وما سوَّلَته لهم أَمانيهم الكواذبُ من قطعها بالحرابة وإِضعافها؛ فحال بينهم وبين ما أَمَّلوه من ذلك المنعُ الالاهيُّ والصدّ، والوصول إِليها في ذلك الوقت الذي كيَّفه السعد، والاوان الذي جرى على تقديره الحزم والجدّ، وخلص لله تعالى في إِعلاء كلمته، وإِطفاء متوقِّد شعلة الباطل وحيرته، النيَّة الصادقة والقصد. وكان من صنع الله العجيب، أَن انتهَينا إِليها عند بلوغ زرعها إِلى حال الكمال والطيب؛ فحماه الله من اختطافهم، وصانَهُ على أَربابه من اعتدائهم واتّلافهم، وصيَّرَهُ رزقاً واسعاً لأَحزابه المؤيَّدين موزناً بجمعهم وائتلافهم؛ وكانَتْ خيبة الاشقياء منه سبباً لتشتُّتهم واختلافهم، وصاروا إِلى جوعٍ أَشفوا به على تلفهم وانجعافهم.

وكان هؤلاء الاشقياء المتمرّدون، والكَفَرة المنخلعون، من ثوب الاسلام المتجرّدون، والجُنَباء المجرون بالخلاء وهم منفردون، والاوباش المتظافرون، على الحرابة المتعاقدون، قد استَنْزَلَهم الشيطان وأَغواهم، واستجرَّهم الطمع المُهلك واستهواهم، وصوَّر لهم أَن لَّا قامع يقمعهم فأَضلَّهم وأَرداهم. ولمَّا أَذن الله تعالى بهلكهم، وقضى بقهرهم على أَيدي أَوليائه المظفّرين وعزكهم، وإِراحة هذه الجهات ممَّا دهاها من زورهم وإِفكهم، عزم الموحّدون - أَعزَّهم الله - على النهوض إِليهم إِلى محالّ قرارهم، وغزوهم في عقر ديارهم، واستعانوا بالله تعالى على إِبادتهم ومحو آثارهم؛ فنهضوا من تونس - كلأَها الله - ودلائل نجحهم صادقة، وأَعلامُهم بالفتح والتأْييد خافقة، والنفوس بنصر الله وعونه واثقة،

وتيسيراتُه سبحانه مضايفة للرجاء في فضله وموافقة . ولم يكن التفاتٌ في هذه الحركة السعيدة إلى عدد وعُدَّة ، ولا استطهارٌ بقوَّة ولا شدَّة ، ولا تعويلٌ على ما تسكن إليه النفوس البشريّة من ركون إلى ما عند الاجناد ، وأَبناء الطعان والجلاد ، من بأس ونجدة ، بل تُوُحّد الاتّكالُ فيها على الله وحدَه ، واستحكمت النيَّة الخالصة في تطلُّب ما عندَه ، وتحقَّقت اليقينيَّة بأَنَّ الله سبحانه متمّم نورَه ومنجّز وعدَه ؛ فحقَّق الله تعالى الظنون ، وأَرأى من عجائب تسهيلاته الضروب المختلفة والفنون ، وأَحلَّ بمن حادَّ عن أَمره العزيز ، وخلع ربقته من الاعتصام بكهف طاعته الحريز ، الحُتوف المخترمة والمَنون ، وأَذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولَعَذابُ الآخرة أَكْبَرُ لو كانوا يعلمون .

وعند ما أَحسَّ الاشقياء بحركة أَهل التوحيد ـ أَعزَّهم الله ـ إليهم ، وإطلال راياتهم المظفَّرة عليهم ، وأَنَّ أَخذة الله الرابية قد أَتَتْهم من ورائهم ، ومن بين أَيديهم ، تحرَّكوا من مواضعهم مخيَّلين بزورهم ، منجرّين بحبل غرورهم ، منقادين بربق الصغار إلى مصارع تدميرهم ، وقدَّروا فكان حتفهم بحول الله في تقديرهم ، وتخيَّلوا أَنَّ كلَّ بيضاء شحمةٌ وكلَّ سوداء تمرة ، وتوهَّموا أَنَّ تخييلاتهم الكاذبة تنفعهم كلَّ مرَّة ، وانخدعوا بما أُملي لهم ليزدادوا إثماً من إمهال وتبرة ؛ فسقط العشاء بهم على سرحان ، وقادَهم الحَيْنُ المتاح لهم بأَرسان وأَشطان ، وعُوّضوا ممَّا قدَّروه من انتهاب مقرّ الجلَّاد وممرّ الطعّان ، وأَعمال ظُبَي القواضب

فيهم وعوامل المُرَّان ؛ وصارَتْ ضروحُ أَشلائهم الممزَّقة ، وأَوصالهم المفرَّقة ، حَواصِلَ الطيور وبطونَ الذُّؤْبان .

ولمَّا وصل الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ إلى القَيْروان ـ كلأَها الله ـ رأَوا أَن يقدّموا الانذار إليهم ، ويقيموا الحجَّة عليهم ، ويسلكوا على سنن الشرع في تقرير الدعوة إلى الله تعالى وإلى رسوله وبما جاء به لدَيْهم ؛ فكفروا نعمة الرفق بهم وغمطوها ، وازْدَرَوا المنَّة بذلك عليهم وسخطوها ، وجهلوا قدر المنحة الميسَّرة لهم فلم يتلقَّوها بالقبول ويرتبطوها ، واعتقلوا الرسول جرياً على عادة كفرهم ، واستمراراً على معهود خيانتهم وغدرهم ، وذهاباً إلى أَخفى حالهم المتبَّرة وأَمرهم ، ولم يعلموا أَنَّ عصا التوحيد تلقف ما يكون من سحرهم ، وأَنَّ الثقة بوعد الله قد أَثلجَتْ صدور المؤمنين بكَيْنهم وقَهْرهم ؛ وكانوا عند احتلال الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ بالقَيْروان ، بجِهات وادي ران ، وحلُّوا من هنالك على عادتهم في المخادعة والرَّوَغان ، وقد أَعمى بصائرهم وأَبصارهم ما غطَّى على قلوبهم من الحَيْن وَران ؛ وكانوا من قبل يُموِّهون على أَتباعهم بالمبادرة للنزال ، والمسابقة للنضال ، ويخدعون الضُّعَفاء ببوارق الزور والخلب والخيال ؛ فعرَّدوا تعريد الرِّئال عن الرِّئال ، وتاهوا في جبرة الجزع والهلع بين لابَتَى الجنوب والشمال . ثمَّ قصدوا قَفْصة ـ أَعادها الله ـ مخيّلين باللقاء عندَها ، ومشيّعين أَنَّهم يقارعون الموحّدين ـ أَعانهم الله ـ إن قصدوا قصدَها ؛ فاقتفى الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ آثارهم إلى مقربة منها ، وأَخذوا على طريق لم يخطر ببال

الاشقياء السلوك عليها ، ولا احتلج في صدورهم اهتداءٌ إليها ؛ فسُقط في أيديهم ، واختلّتْ آراؤُهم واضمحلّتْ دعاويهم ، وتوفّرَتْ على الهرب إلى قابس ـ كلأَها الله ـ هِمَمُهم الفَسْلة ودواعيهم ، والاقدارُ تسوقهم مَصارعهم أَحَثَّ سوق ، وتعوقهم على الفرار بكلّ عوق ، والشيطان يخيّل لهم الاستقلال بما لا قِبَل لهم به ولا طوق ، حتّى انتهى بهم السير إلى حَمّة مَطْماطة حيث حُمّ حِمامُهم ، وتصرّمَتْ أيّامُهم ، وتزلزلَتْ أقدامُهم ، وملأَت الاباطح والرُّبى أجسامُهم المعفّرة وهامُهم ؛ فألقوا بها حرانهم ، واستصرخوا صعاليك سُلَيم وذؤبانهم ، وكلّ من وافقهم على ضلالتهم من الاعراب وأعانهم ، من أهل الباطل وأعوانهم ؛ واستمطر بَعضُهم من نُصرة بعض جَهاما ، وهزّ كلٌّ منهم عليه سبحانه وإقداما ؛ فعادَتْ بعون الله بسالتُهم جُبْناً وإقدامُهم إحجاما .

واستمرّ بالموحّدين ـ أعزّهم الله ـ مسيرُهم المبارك في اتّباعهم إلى مقربة من الحمّة المذكورة فضربوا أَبْنيَتَهم ، وباتوا هنالك لَيلَتَهم ، وجدّدوا في جهاد أعداء الله نيّتهم ، وصدّقوا عزمتهم ، وأصبحوا على بركة الله وعونه وقد استعدّوا للمُكافحة وتأهّبوا ، واستلموا للمُماصعة وتلبّبوا ، وترتّبوا ترتُّباً أقرّ عيون المسلمين وتكتّبوا ، وساروا إلى عدوّهم والتوفيقُ يسعدُهم ، والعونُ الالاهيُّ ينجدُهم ، والاستسلام إلى الله تعالى يرشدُهم ويسدّدُهم ، وصرْفُ الحول والقوّة إليه سبحانه يُعينُهم ويُؤيّدُهم ؛ وأعداءُ الله قد أطغاهم الانجرار ، وثبّطهم لهلكتهم الاغترار ،

وصرّفهم القدرُ عمّا كانوا معوّلين عليه من الاباق والفرار ؛ فاحتلفوا في إظهار جمعهم القليل وترتيب حزبهم الحقير الذليل ، واعتمدوا على ما أَرداهم من التمويه والتخييل . وهيهات أَن تثبت عند الحقائق من خفرات الاباطيل ! وعند ما ناوشَتْهم سرعان الاجناد ، وشاهدوا ما أَذْهَلَهم من صدق القراع والجلاد ، وتبيَّنوا ما أَجمع أَولياءُ الله عليه من الحرص على الشهادة والرغبة في الجهاد ، تَزَلْزلوا تَزَلْزُلَ الذئَاب من الآساد ، وأَنَّى تستقرُّ لسطوة الليوث الغُلْب قلوبُ النِّقاد ؛ فلاذوا بالفرار ، واستسلموا لحكم الشفار ، وتخيَّلوا النجاة في تولية الادبار ؛ فأَتبعهم أَولياءُ الله يقتلونهم في كلّ غور ونَجْد ، ويجدلونهم في كلّ ربوة ووَهْد ، ويصرعونهم حيث ما تيمّموا من منتحى وقَصْد ، ولاقَتْ ريحُهم إعصارا ، وصار نَبْعُهم بزعمهم مَرْخاً وعَفَارا ، وما زادَتْهم جموعُهم المضلَّلة إلَّا تَبارا ، وعاد ما قدَّروه من نجاة هلكةً وما أَمَّلوه من ربح خَسَارا .

واستمرَّ الموحّدون ــ أَعزَّهم الله ــ على اتّباعهم سَحابة يومهم وليلتهم ، وسيق العددُ الجمُّ من رؤوس أَبطالهم وخيلهم ، والناجون منهم بجريعة الذَّقَن وَهُمُ الاقلُّون يدعون بثبورهم وويلهم ، قد أَرَتْهم الاحوال حقائقها ، وأَذهبَتْ عنهم الايّام مخارقها ، وأَذاقَتْهم محنها الكريهة وبوائقها ، وعرَّفتهم مذاهِبَها في إهلاك من عانَدَ أَمر الله وطرائقها . وما لهم بعد هذا الاخذ الوبيل وَزَر ، ولا عَيْنٌ تبقى لهم بفضل الله ولا أَثَر ، ولا ضرمٌ يكون لحرابتهم بعد هذا الاثخان فيهم ولا شَرَر . بعون الله

ومنّه . والطلب لا يَني في أَثَر من بقي من حثالتهم ، واستيصال من اغترّ بجهالتهم ، وانخدع بسَراب محالّهم وزور ضلالتهم . وأَمْرُ هذا السُّؤر النَّذْر منهم حدٌّ يسير . وتطهير هذه الارجاء من غيرات أَدناسهم بحول الله غير عسير ؛ فلم تُبْقِ هذه الحركة منهم بحول الله إِلّا كلّ منحوب الفؤاد حسير .

وفي صبيحة الليلة التي أَذلّ الله في يومها الاشقياء ، وأَعزّ فيها الاولياء ، ومنحهم الظفر عليهم والاستيلاء ، وهو يوم الخميس العاشر من شهر تأْريخه ، وُصِلَ إِلى قابس ـ كلأَها الله ـ فلحين الاطلال عليها خرج أَهلُها راغبين في الامن والامان ، مُعلنين بكلمة التوحيد والايمان ، مُتطلّبين لعوائد هذا الامر العظيم في العفو والاحسان ؛ فشملهم من الرفق والامان ما أَقرّ قرارهم ، وعمّر بالسكون والهدون ديارهم ، واستقبلوا في ظلّ الدعة والعدل أَيّامهم المستجدّة وأَعمارهم .

وكان بقابس بنو الشقيّ قَراقُوش وأَهلُه ، وجملةُ ما قمّشه انتهابُه وضمّه حبلُه ؛ ومعهم جماعةٌ من أَوباشه الذين يعتمد عليهم ، ولا يثِقُ بأَهله وولده وماله إِلّا إِليهم ؛ فتحصّنوا بقَصَبةٍ بها منيعة الجوانب ، سامية المراقب ، مستصعبة على المُنازل لها والمُحارب ، وأَجمعوا على الاستماتة فيها ؛ فأَحدقَتْ بهم أَجنادُ الله من جميع جهاتها ونواحيها واستُنْزلوا منها على الأَمن في رقابهم ، واستقصاء كافّة أَموالهم وأَسلابهم ، واسترقاق نسائهم وأَبنائهم وعيال من شهد الوقيعة من مقتولهم وهرّابهم . وحصل أَهلُ

قراقوش وبنوه وماله غنماً لاولياء الله ونَفَلا . وملكاً لطائفة الحقّ وخَوَلا .

وهذه المدينة العتيقة روحُ هذه الجهات الافريقيَّة ومعناها ، وقُفْلُها الذي يحمي حوزَتها ويكفُّ عِداها ، ومنعتُها التي لا يتهيَّأُ لمُفسدٍ أَنْ يتخطَّاها إلى أَذيَّتها ويتعدَّاها ، وما تمشَّى للاغزار ـ أَبادهم الله ـ ما تمشَّى إلَّا بملكها ، ولا توصَّلوا إلى ما اغترَّهم إلَّا بانتثار سلكها . وهي جامعةٌ مع هذه الفوائد الجمَّة ، والمنافع الكاملة المستتمَّة محاسنَ يروق الناظرين رواؤُها وتملأُ الاعيُن بهجتُها المُؤنقة ولألأُوها ، يتفجَّر خلالها الماء العذْب ، ويلتقي بها الركاب والركْب ، وتحدق بأَرجائها الجنّات الالفاف والحدائق الغلْب ، وتجتمع فيها أَصناف الثمر المتخيَّر والحبُّ . وقد طهَّرها الله بانتظامها في سلك التوحيد ، وإعادتها إلى هذا الامر السعيد ، واستنقاذها من لِصِّ الفتنة الغويّ وشيطانها المَريد . وكان من صنع الله الذي لم يُدْرَ في خَلَد ، ولا يُسبّبه إلّا التوكُّل على الواحد الصَّمَد ، أَن لم يفقد من الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ أَحَد ، ولا انتقص لهم بفضل الله عَدَد ، ومن خصائص توطُّد هذا الامر العزيز على الاطوار وتجدُّده ، وعلامات تمكُّنه مع تعاقُب الادوار وتأَكُّده ، وتمام ما وُعد به من دوامه إلى يوم الدين وتمهُّده ، أَن ذخر الله قتال الطوائف التي قوتلَتْ في بدء الاسلام ، وقام عليهم في دعوة أَمر الامام ، وهُم الفُرْس المجَوس والفَسَقة أَهل اللِّئام ، وفي ذلك بصائرُ لأُولي الاحلام ، واعتبارٌ بيّن لذوي الالباب المدركة والافهام .

وعَرَّفناكم - وفّقكم الله - بهذا السرور المتتابع ، والفتح الناظم لأَسباب الخير الجامع ، والظفر المروي لغَلَل النفوس الناقع ، لتأْخذوا من الحظّ فيه بأَوفر نصيب ، وتضربوا في المشاركة بالابتهاج فالمسرّة بسهم مصيب ، وتشكروا الله تعالى على ما أَرى الاعداء من هول ماحق ويومٍ عصيب . فاستقبلوا - وفّقكم الله - هذه النِّعَم بواجب شكرها ، ووفُّوها حقَّ بثّها ونَشرها ، وافعموا أَرجاءكم ونواحيكم بريّاها العبق ونَشْرها ، وأَجيلوا في نواديكم ومَحاضركم ، وبين بواديكم وحواضركم ، قداح التحدُّث بها وذِكرها ، إن شاء الله تعالى ؛ والربُّ سبحانه يجعلكم من الشاكرين لنِعَمِه ، المتحدّثين بآلائه وقِسَمِه ، المستدعين بحمده سبحانه عوارف جوده وكَرَمِه ، بمنّه وفضله ؛ لا ربَّ غيره . والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

ونُفِّذ من نَفزاوة - كلأَها الله - في الثامن عشر من شعبان المكرَّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

الرسالة الحادية والثلاثون

وهي أَيضاً من إِنشاء الكاتب أَبي الفَضْل بن طاهر بن مَحْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين - أَيّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته - إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والكافّة بتونس - أَدام الله كرامتهم بتقواه ، وأَعانهم على شكر ما منحه من فضله

وآتاه، وتابع لهم المسرّات بترادُف فتوح هذا الامر العزيز وبشراه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أمّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على سيّدنا محمّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي واتر لهذه الدعوة العليّة فتوحَه السنيّة ووالاها؛ وقرّب لها الآمال القصيّة وأدناها ؛ وتمّم عندها نِعَمَه الجمّة ووفّاها ؛ وأَجزل عطاياها من مِنَحه الجسيمة وسهّاها ؛ وسهّل لها مراماتها على أفضل ما يتهنّأ متخيّرٌ أن يكون وَسَناها ؛ وقضى أن يكون في إعلاء كلمته ، وإذلال أَتباع الباطل وشيعَته ، قصْدَها المحتسب ومسماها ؛ وقرن بالتوفيق والتأييد ، وانتظام الإغراض على أتمّ مراد المُريد . مبادي مآخذها الميمنة وعُقْباها ؛ وجعل إلى المآل الميسّر ، والمصير المضلّل المدمّر ، مَغَبّة مشاقّيها وعداها ، وأَذلّ فئتها الخاسرة بأَيدي أوليائه المُريدين وأَخزاها ، وأَوقفها على عاقبة هلكها ورَداها ، وروّى من دمائها المُسالة قناها ، وحكم في طُلاها المُذالة صوارمَها العَضْبة وظُباها ، وكشف غمّاء شرْكهم وغيابةَ زورهم وإفكهم بحقّها الواضح وجلاها ، وأَراح بنظرها السعيد ، ورأْيها الموفّق السديد ، كَرْبَ هذه البلاد وباراها ، وأَبرأَها من عِـلَلها الفادحة وشفاها ، ونقع بزُلال المنّ ، وسَلْسال العدل والامن ، غَـلَلَها المُبرّحة وروّاها ؛ والصلاة على محمّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبي ، مُبصر الأُمّة من عَماها ، ومُجلي غَيْهب الحَيْرة ودُجاها ، ومُرشد الكافّة إلى سبيل هُداهـا ،

ومُعرفها بخيبة مَنْ أَوبق نفْسَه ودَسَّاها ، وفلاحِ مَنْ طهَّرها بالطاعة وزَكَّاها ، ومُزهّدها في عاجلةٍ قصيرٌ مَداها ، قليلٌ نَداها ، نَزِرٌ جَناها ، مُغْتَصَر بيد الاسترجاع والانتزاع عَطاها النَّزْر وجَداها ، ومُرغّبها في آجلةٍ لا نفاد لرزقها ولا انقطاع لحياها ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الذي أَعاد ملّته الحنيفيَّة وأَحياها ، وأَظهرها وأَبداها ، وأَوضحها بيضاء نقيَّة بعد أَن حجبها الجهْلُ وغطَّاها ، وصيَّرها بيّنة جليَّة وقد كان الضلالُ أَضمرها وأَخفاها ، وحدّ الكافَّة على مصالح دينها ودُنْياها ، ودعاها إلى ما يحييها وينجيها وهداها ؛ وعن صاحبه الاهدى ، وخليفته الاعدل الاتقى ، سيّدنا الامام أَمير المؤمنين أَحقّ البريَّة بخلافته العليَّة وأَولاها ، ومُمشّي كلمته المهديَّة إلى غايتها الشريفة ومُنْتَهاها ، ومُرقّيها في درج النماء والعلاء إلى أَبعد مرقاها ، وأَصعد مسماها ، ومُؤَدّي تعليماته النافعة ، ومقالاته الناظمة للخير الجامعة ، كما سمعها ورعاها ، والمُناضل بالادلَّة الباهرة ، والاسنَّة الباترة ، كلَّ من عانَدها وأَباها ، حتَّى استقرَّتْ في نصابها الاكرم ومعناها ، واستمرَّتْ على نهجها الاقوم ومغناها ، ملقيةً أَزمَّتها إلى من يحفظ حوزتها ويحمي حماها ؛ والدعاءُ لسيّدنا الامام أَمير المؤمنين بن سيّدنا الخليفة أَمير المؤمنين وارث مقاماته الكريمة وعلاها ، ومُشيّد أَركان مآثره العميمة ومبناها ، بدوام سعوده الصاعدة وبقياها ، وترادُفِ الفتوح المتناسقة ، لدعوته السامية السابقة ، موفياً على أُولاها أُخراها .

وهذا كتابُنا إليكم - عرَّفكم الله من فتوح الامر العزيز ونشره ، ومحمود مقاماته في نصرة الدين وجميل إثره ، ما يفعم أرجاءكم بطيب عونه الارج وعطره ، ويملأ مسامعكم بمتعذّب مسموعه الذي لا يُمَلُّ وخبره ، ويُوزعكم شكراً يُؤَدّي حقوق ما أَولاكم من خصائص الاستناد إلى طائفته المنصورة وأَثره - من مَنْزِل الموحّدين - أَعزهم الله - بظاهر قَفْصة - فتحها الله - والذي نوصّيكم به تقوى الله ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكُّل عليه ، وأَن تُوقنوا بأَنَّ لله تعالى في طيّ محاولات هذا الامر العزيز أَسراراً يُمحّص بها عبادَه ، ويحقّق رجاء من أَخلص نيَّته في التوكُّل عليه واعتقادَه ، واحتسب في طاعته ، وابتغاء مرضاته ، سعْيَه وجهادَه ، وأَلقى مستسلماً في يد الرضا بما اختاره الله لأَمره العزيز زمامَه ومقادَه ، وعلم أَنَّ الله - جلَّتْ قدرتُه - لا يخذل أَمره ولا يخلف ميعادَه ، ليزداد المؤمنُ إيمانا ، والراضي بالله ربًّا وبمحمَّد نبيًّا تسليماً وإذعانا ، ويَثِق بنجاز ما وعد من إظهار دعوته ، وإعلاء كلمته ، ثقةً لو كشف له الغطاء معها ما ازداد إيقانا ، ولا يطلب على ما ثبت منها في روعه ، وانطوَتْ عليه أَحناء ضلوعه ، دليلًا وبرهانا ؛ والله يجعلنا ممَّن استدام بالشكر الاتمّ ما أَنعم به إسراراً وإعلانا ، بمنّه وجوده .

وكانَتْ - وفَّقكم الله - هذه الحركة المباركة مبنيةً على التجرُّد فيها لقمع المعتدين ، ووقْم العابثين والمفسدين ، والقيام لله تعالى بما أَوجب من حماية الحقّ ونصرة الدين ؛ فسنَّى الله سبحانه فيها من التيسيرات الخارقة

للعادة ، المربية على أَقصى الفتوح ونهاية الارادة ، والمكتّفة على أَوفى متخيَّر من تأَتّي الآمال المصحبة المنقادة ، الجارية على إِدلالها في عموم الخير وانتظام السعادة ، وتعرُّف النماء في كلّ حالة وظهور الزيادة ، ما شفى صدور المؤمنين ، وصدق ظنون الموقنين ، وحقّق الثقة بربّ العالمين ، وعرَّف أَنَّ العاقبة للمتّقين المحسنين . ولمّا منّ الله تعالى بدمار الاعداء وتَبابهم ، وقضى بقهرهم على أَيدي أَوليائه المؤيَّدين وغلابهم ، وصيَّرهم إلى عاقبة خسرهم وسوء مآبهم ، وأَراح هذه الاصقاع من إِشاباتهم الخبيثة وأَوشابهم ، على ما تقدَّم به إِليكم خطابُنا ، وتضمَّن شرحه أَرسالُنا الواردون عليكم وكتابُنا ، نهض الموحّدون ـ أعزَّهم الله ـ من قابس ـ كلأَها الله ـ آخذين على صحرائها ، وقاصدين إلى البلاد الجَرِيديَّة من ورائها . على طُرق لا عهد لها بالعساكر ، ولا علم فيها لعامر ، ولا منفذ أَمامها لوارد ولا صادر ، بحيث منقطع التراب ، ومتّصل القفر اليباب ، ولا ماءٌ ينبع في الارض ولا يستقرُّ من صوب السحاب ، وإِن سلكوها لَمن العجائب العجاب ، وآيات هذا الامر الميسّر الطلاب ، المذكّر ببراهينه الواضحة لأُولي الالباب ، المنصور اللواء الممكَّن الاسباب .

وعند ما شارَفَ الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ الجهات المذكورة ، جاءت الفتوح تبارى في شدّها ، وتُنظّم لآليءَ الاقطار الجَرِيديّة في عقدها ، وتنجز لاولياء الحقّ وأَنصاره صادق وعدها ؛ واستُنقذَتْ نَفزاوة وقَسْطِيلية ـ كلأَهما الله ـ من وبش الفتنة ووعدها . وأَلقَتْ بلاد نَفْزاوة

وتَنوزَر وتَقْيُوس والحِمَّة ونَفْطة بأَزِمَّتها ، وتطلَّبَتْ من هذه الدعوة العليَّة معلومَ منَّتها ، واستنزلَتْ بتحقيق توبتها متعارفَ رفقها ومعهودَ رحمتها ، وحقَّقَتْ أَنّها لم تُبدّل دينها ولا فارقَتْ إيمانها ويقينها في حالتَيْ سكونها وفتنتها . فعمَّهم من هذا الامر العزيز وأَمنه ما مهَّد أَرجاءهم ، وصدَّق في فضل هذا الامر العظيم رجاءهم ، وعرَّفهم ببركة ما أَمَّهم من الخير العميم وجاءهم . وثاروا بمن كان عندهم من الاشقياء يقتلون فريقاً ويأسرون فريقا ، ويوسعونهم تشتيتاً بجموعهم اللَّئيمة وتفريقا ، ويوردونهم بإرهاق نفوسهم الخبيثة سعيراً لا يخبو اتّقادُه وحريقا . وكلَّما مرَّ الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ ببلد من هذه البلاد المذكورة ـ كلاَّها الله ـ أَتوهم بالعدد الجمّ من أَساراهم وبقاياهم ؛ فتَقَطُّ الرقاقُ طُلاهم ، وتنظّم الصِعادُ كُلاهم.

وكانت بتَوزَر منهم جملةٌ ذميمة فادَّرع بعضُهم جنح الظلام وفرُّوا من الحِمام إلى الحِمام ، وتوغّلوا في الصحراء المُهلكة كشارد الانعام ؛ والله يعجّل لهم ولمن أَمهله الأَجَل من حُثالتهم بوادر الانتقام ، ويجرّعهم كما عوَّد بأَيدي أَولياء هذا الامر العزيز أَكْؤُسَ الموت الزؤام ، بمنّه وجوده . وتركوا جميع أَحوالهم وأَموالهم ، وكافَّة ما تأَثَّلوه من أَثاثهم وأَثقالهم ، ونفل الموحّدين عامَّة أَسلابهم وأَنفالهم ، وملَّكهم رقَّ أَهليهم وبنيهم وعيالهم ؛ وأَجْلَتْ بهم الغِيَر مثلاتها ، وأَرتْهم العبَر عجائبها الغريبة وآياتها ، ونفَّس مهلهم القدر إلى انتزاع أَرواح الخبيثة لأَجَلها المكتوب وميقاتها ، بحول الله وقوَّته .

وهذه البلاد الجَرِيديَّة لم يكن الوصفُ يعرب عن صِفَتها ، ولا يؤدّي كُنْهَ صورتها ، ولا يطلع السامع على ما يجتليه المُعاين من حقيقتها ، وغاية كلّ عبارة وإن بالغت التقصير على تبيين جليَّتها ، فحقّقت المشاهدة أنَّها إقليمٌ متَّسعُ الاكناف ، رحبُ الاوساط والاطراف ، كثيرُ المنافع والمرافق والالطاف ، جمٌّ الحدائق الغُلْب والجنَّات الالفاف ، وكلُّ مدينة منه مستقلَّةٌ بذاتها ، مكتفيةٌ بأقواتها ، مستغنيةٌ عن غيرها بما جمعَتْ من ضروب غلَّاتها ، محتاجٌ إليها لِمَا يُجلب منها من أنواع فوائدها وصنوف ثمراتها . وتَوزر ـ حاطها الله ـ حاضرةُ هذا الاقليم العظيم وقطبُه ورُوحُه وقلبُه ، ومركز دائرته الذي عليه يستدير مُحيطُه وبالاستناد إليه يتمهّد رحبُه ؛ وقد توطّدَتْ بعوده إلى هذا الامر العظيم أَقطارُه ، وعُمِرَتْ بالامنة والهدنة ديارُه ، وطُهّرَتْ أدناسُ الكفر من أرجائه ومُحِيَتْ آثارُه ، بحول الله وقوّته ، وجوده ومنّته .

واستمرَّ بالموحّدين ـ أعزَّهم الله ـ سيرُهم المبارك من تَوْزَر ـ حاطها الله ـ إلى قَفصة ـ أعادها الله ؛ فألفوا بها جملةً ذميمةً من أشقياء الأغْزاز وأتباعهم قد رانَ على قلوبهم هواهم ، واستغواهم الشيطانُ واستهواهم ، وسوَّل لهم مغالبةَ الغُلَّاب فوعدهم غروراً ومنَّاهم ؛ فأظهروا ما عندهم من الامتناع ، واستشعروا شعار المصارمة والدفاع ، واغترُّوا بجدراتهم السامية الارتفاع ؛ وهيهات أن تُعَزَّ هذا الامر العزيز شامخاتُ البواذخ وطامحاتُ القِلاع ! فعزم الموحّدون ـ أعزّهم الله ـ على مُنازلة هذا المَعْقِل

وحصره . واستعانوا بالله تعالى على أمره ، وسألوه سبحانه معهودَ تسهيله كما عوَّده ويُسْره . ومرامُه بحول الله أيْسَرُ مُحاوَل وأقْرَبُ مُتناوَل ، وأدْنى مَروم وأسْهَل مُزاوَل ، بحول الله وقوّته .

وفي يوم الحلول به وصل خطابُ قَراقُوش وأرسالُه راغباً في التوحيد خاضعا ، مادًّا يد الاستكانة إلى هذا الامر السعيد ضارعا ، مُعلِماً أنَّه إنْ قُبلَتْ توبتُه ، وأُجيبَتْ رغبتُه ، جاءَ إلى الموحّدين ـ أعزَّهم الله ـ مُطيعاً سامعا . ووصلَتْ في غده أرسالُ أبي زَيَّان ومخاطبتُه مُعرِّفاً بركونه إلى هضبة هذا الامر العظيم وركنه ، واعتلاقه بذمَّة أمانه وأمنه ، وإيوائه إلى كهفه الارقى وحصنه ؛ وهو زعيمٌ من زعماء الاغْزاز يُضاهي قَراقُوش في قدره ، ويُقاسمه في أمره . وكان قد انتبذ عنه أنَفَةً من مُشاركته ، وعزماً على مُصارمته ومُتاركته ؛ واستبدَّ بطَرابُلُس ـ كلأَها الله ـ ونواحيها ، وأظهر دعوة التوحيد فيها ، وصارَتْ ـ والحمدُ لله ـ هذه البلاد كلُّها إلى معهودها من الطاعة ، والانتظام في سلك الجماعة ، والفيئة إلى ملكة هذه الدعوة العليَّة المُطاعة . وأفاقَتْ ممَّا خامرها من الادواء ، وأفلتَتْ من سقم الفتنة المُعْضِل ودائها العياء . وكمل المقصود لها من تمهيد الاكناف وتوطيد الارجاء ، وتأمين الجهات وسكون الدهماء ، بفضل الله ذي المنّ والآلاء .

وعرَّفناكم ـ وفَّقكم الله ـ بهذه الفتوح الجمَّة التي عظمَتْ قدْرا ، وأعجزَتْ حمداً وشكرا ، وخرقَت العوائد تسهُّلاً غريباً ويُسْرا ، لتضربوا

بقداح المُساهمة فيها ، وتذيعوها في أَداني جهاتكم وأقاصيها ، وتجدّدوا حمد مُخوّلها ـ جلّتْ قدرتُه ـ ومولّيها ، وتقوموا بالواجب من شكر مُسبّبها سبحانه ومُسنّيها ؛ والله تعالى يُعينكم من ذلك على ما يتكفّل لكم بتضاعُف نِعَمه عليكم وتواليها ، بمنّه وجوده ، لا ربَّ غيره . والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

كُتب في الثاني من شهر رمضان المعظَّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

الرسالة الثانية والثلاثون

وهي أيضاً من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيَّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والاعيان والكافَّة بمرَّاكش ـ أَدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه ، ووالى عليهم من فتوح هذا الامر العظيم وبشراه ، ما يُربي على أُولاه أُخراه ، وتكرم مغبَّتُه وتحسن عقباه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

أَمَّا بعدُ فإنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلَّا هو ، ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي فرَّج لهذا الامر العزيز مُبْهَمات المَغالق ، وذَلَّلَ لوطأته وسطوته ، مُشْمَخرَّات الشواهق ، واستنزل العزَّة ورهبته ، من اعتصم بشُمّ البواذخ وطامحات الحوالق ، وحكم بإعلاء كلمته ، واستيلاء أَمره المؤيَّد وملكته ،

على من ترفَّل في اليَفاع الممنع أَو توغَّل في البيد السَّمالق ، وحكم صوارمَه البتار في طُلَى كلّ مازق ، وروى مُنْصُلَه الظَّمِيءَ وأَسَلَه الحَرَّان من عَلَق كلّ مُنافق ، وأَحلَّ بمن عانَدَ أَمْرَه العظيم ، وخالف نَهْجَه القويم ، مُجْحفات البوائق ، ومستأْصلات المواحق ، وقضى لدعوته المهديَّة ، وإِيالته المظفَّرة العليَّة ، في إِلّهِ السابق وَوَعْدِهِ الحقّ الصادق ، أَن يبلغ ملكُها الثابت القواعد ، وأَمرُها المحكم المعاقد ، ما روي لنبيّنا ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ من المغارب والمشارق ؛ والصلاة على محمَّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الأكرم المجتبى ، الذي أَذهب الله بنوره كلَّ مظلم من الكفر غاسق ، وجعل شرعه الحنيفيّ ، ودينه الواضح الجليّ ، آخر ماحٍ للشرك ماحق ، وأَلزم ملَّتَه الخاتمة للمِلَل ، وشريعتَه الناسخة للاديان والنِّحَل ، كافَّة الخلائق ، ودعا الاحمر والاسود إلى ما يُحييهم ويُنجيهم من توحيد الباري الخالق ، وتمجيد الواحد الصمد الرازق ؛ وعلى آله وصحبه الكرام البَرَرة الاصادق ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، مُبيد المخارق ومُعيد الحقائق ، ومتلافي رَمَق الدين الزاهق ، والمحيي من شريعة جدّه ـ عليه السلام ـ ما أَماتَهُ كلُّ جاهل مائق ، ومُصيرها بعد الدروس والطموس إلى أَصلها الراسخ وفرعها الباسق ، ومُبديها غِضةً جديدةً تلوح في جمالها الرائق ، وكمالها الفائق ، لكلّ موفَّق ناظر بعين البصيرة إليها رامق ؛ وعن خليفته الاهدى ، وصاحبه الاكرم الارضى ، سيّدنا أَمير المؤمنين ممشّي أَمره العزيز على نهجه الواضح الطرائق ، ومبلّغه إلى غاياته الشريفة المبادىء

واللواحق ، والحائض لاسمائه وإعلائه لجم المضايق وغمرات المآزق ، والمُناضل دونه أعلام المهارق ، وبُهَم الفيالق ، بكلّ دليلٍ قاطع وغضبٍ فالق ، حتّى خَرِسَتْ هَزَّةُ الشقاشِق ، ببُرهانه الباهر الفارق ، وانحسمَتْ عِلَل العلائق ، بسِنانه الباتر الخارق ، وانقاد لحقّه الواضح كلُّ جامح ورجع إلى جماعته الدينيَّة كلُّ مفارق ، وخلّص أمره العزيز من شوب الشوائب وعوق العوائق ؛ والدعاء لسيّدنا الامام أمير المؤمنين بن سيّدنا الخليفة أمير المؤمنين ، وارث مقاماته السوامق ، ومآثره البواسق السوابق ، ومتقبَّله في كريم الضرائب وعظيم الخلائق ، بنصرٍ مؤازر وسعدٍ مرافق ، وفتحٍ مصاحب وظفرٍ موافق ، وجدٍّ يقضي بتأييد لوائه الخافق ، على كلّ خارج عن طاعته ناعق ، ما اطّرد بزوغُ البازغ ودرورُ الشارق .

وهذا كتابُنا إليكم ـ أسمعكم الله من تواتُر البشائر ، وتقاطُر فتوح هذا الامر الظاهر الظافر ، ما تستغرق بالمسرَّة به أوقاتُكم ، وترتفع بالشكر لمسنّيه أصواتُكم ، ويطول لمولّيه سبحانه تضرُّعُكم في إدامته وإخباتُكم ، ويُعيد عليكم من السكون والهدون ما تؤهّل به حلالُكم وأبياتُكم ، ويطيب معه في ظلّ الامنة ومهاد الدعة عيشُكم الارغد وحياتُكم ـ من قفصة ـ مهّدها الله ـ والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكّل عليه . ونحنُ نحمد الله تعالى على ما عرّف أولياء دينه وحُماةَ دينه من إظهار وإعلاء ، وتسديد مذاهب وتأييدِ آراء ، وتيسير مآربَ وتيمينِ أنحاء ، وقهرِ مُناوينَ وكَبْتِ أعداء ،

وإصحابِ أَمره العزيز الانجاد والاسعاد ، أَيَّة سَلَك ، وإشعارِهِ التوفيق والارشاد ، فيما أَخذ أَو تَرَك ، واقترانِ التيسير والتسهيل بمحاولاته والنجحُ ـ والحمدُ لله ـ يضمن النيل لمَطالبه والدَّرَك .

وإلى ذلكم ـ وفَّق الله مقصدكم ، ويمَّن في طاعته مصادركم ومواردكم ـ فقد تقدَّمَتْ مُخاطَبَتُنا إليكم بنُبَذٍ ممَّا سنَّاه الله تعالى في هذه الحركة السعيدة ويسَّره ، وقضى به من قهر أَعدائه وقدَّره ، وأَبداه سبحانه من عنايته بهذا الامر العظيم وأَظهره ، وعقَّب ـ وفَّقكم الله ـ تلكم الفتوح العظيمة ، والمنوح الجسيمة ، والعوارف الجمَّة ، والمواهب الكريمة ، فتح هذا الابلق الفرد ، والمرقب المتجاوز في الحصانة كلَّ حَدّ ، والعَلَم الباذخ والخصم الأَلَدّ ، المُدافع من رام نزاله ، وحاول قتاله ، بأَلْسِنةٍ لُدّ . وكان فيه على ما أَعلَمْناكم به ضروبٌ من الفَسَقة وأَصناف ، وأَوباش جمَعَتْهم الفتنة وأَخياف ، وأَغمار استجرَّهم الطغيان وأَحلاف ، ولصوص نظَّمهم على الحرابة ، وصرَّفهم عن التوبة والانابة ، الشقاق والخلاف ؛ فركبوا في العصيان رؤُوسَهم ، وبذلوا في طاعة الشيطان نفوسَهم ، ولم يفارقوا وقد أَرَتْهم الحقائقُ وجوهها ، وحذَّرَتْهم الايَّام صروفها ، تلبيسَهم وتدليسَهم ؛ وتتابعوا على الهوى في مساقط الردى ، وهُدوا فاستحبُّوا العمى على الهدى ، وتجاوزوا في الانخداع بجدراتهم المنيفة ، والاستنامة إلى خنادقهم المطيفة ، كلَّ غاية ومدى ؛ فسُلِك معهم على مناهج هذا الامر العزيز في إقامة الحجَّة ، والدعاء إلى سواء المحجَّة ، وبُذِلَ لهم من العفو والتأمين ،

في النفوس والاموال والاهلين ، ما تسكن إليه نفوسُ المؤمنين ، وتطمَئنُّ به قلوبُ الموقنين ، وتنشرح له صدورُ الباخعين بالطاعة المذعنين ؛ فأَصمَّهم العينُ وأَعماهم ، وغرَّهم أَملُهم الكذوب واستهواهم ، وغلب للشقوة الغالبة عليهم على عقولهم هواهم . فلجُّوا في طغيانهم ، واستمرُّوا على خذلانهم ؛ فأَلقوا بمقاليدهم وأَشطانهم ، إِلى مغويهم المُضلّ وشيطانهم .

فرفَّهْنا الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ عن قتالهم ، وَرَبَأْنا بهم عن مصاعهم ونزالهم ، ورأَينا أَنَّ محاربتهم بالآلات المتَّخذة أَبلغ في نكايتهم وإِذلالهم ، وأَسرع في إِبادتهم بعون الله واستئصالهم ، وأَخِذَ فيما يُمَهِّد مقام الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ من تأْمين المذاهب ، وتسكين المسالك والمسارب ، وحسم كلِّ ما يتوقَّعه كلُّ جاء وذاهب ، من العوائق في طريقه والنوائب . فدَرَّتْ . . . .(١) من كلّ الجهات والجوانب ، وكثرت الاقوات والمرافق بسَبْق السابق وجلب الجالب ، ولم يعدم الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ عيشةً واسعة ، وخيرات متتابعة ، وأَحوالاً ناظمةً لكلّ خير جامعة ؛ وضاعف الله أُجور صومهم وإِفطارهم ، وعدُّوا مُدَّة رباطهم أَفْضَلَ ماضٍ من أَعمارهم ، واحتسبوها عند الله تعالى أَزكى أَعمالهم وأَنفع أَذخارهم . وشُرِعَ في إِقامة الآلات المذكورة على اختلاف ضروبها وأَشكالها ، وبولِغ في تمام أَوصافها وكمالها ، وتُوخِّيَ فيها أَن تكون على أَحسن ما عُهِدَ من أَحوالها ؛ فاجتمع منها فوق ما كان الظنُّ يقضي بوجدانه ، وتُعجّل في أَسرع

(١) هنا وقع قطع نحو نصف سطر في الاصل المنقول عنه .

أَوقاته وأَعجل أَحيانه ، وتهيَّأَ المُراد منه على معهود هذا الامر السعيد في تيسير مقامه وإمكانه . ونحنُ نتخيَّل في خلال محاولتها أَن ينوب للمَرَدة ثائبُ استبصار ، ويَزَعهم وازعُ إقلاع على الغواية وإقصار ، ويصرفهم عن الارتباك في الضلالة ، والتمادي على الجهالة ، صارفُ ازدجار وادّكار ، فيَسَعهم العفو الرحبُ المحلِّ الفسيحُ المضمار ، ويروي ظَماهم الصفحُ الشاملُ بكلّ ديمة هَطْلاء ووا كف مِدْرار ؛ فرانَ على قلوبهم ما أَرداهم من الاهمال والاغترار ؛ أَفمن حقّ عليه كلمة العذاب أَفأَنت تنقذ من في النار ؛ وما ازدادوا إِلّا ضلالاً وخبالا ، وتمادياً في الغيّ واسترسالا ، وإضاعةً لحظوظهم الدينيّة والدنياويّة وإهمالا ؛ ووعدُ الله يأْبى إِلّا أَن يوبقهم بما كسبوا ، ويذيقهم وبال ما حملوا من الاوزار واحتقبوا ؛ وظنُّوا أَنَّهم مانعتْهم حصونُهم من الله فأَتاهم ....(١)

وفي أَثناء ذلك شُرع في العمل بالآلات المذكورة فنُصبَتْ إليهم مجانيق ، يُنْهَد من جنادلها النيق ، ولا يَبِلُّ كليمُها ولا يستفيق ، فيذهب بها كلَّ يوم منهم ومن أَسوارهم طائفةٌ منهم أَو فَريق ، ويُصبُّ عليهم منها عذابٌ واصبٌ وحريق ، وتُصيبهم منها صواعقُ لا تستطيع نفوسُهم المحروبة ، وقلوبُهم المنحوبة ، صبراً على إحمال بلائها المُهلك ولا تطيق . واستمرَّتْ مدَّة على نكايتها فيهم ، وقتْل مقاتلتهم وهدْم مبانيهم ، وأَحدق بهم أَذاها الملازمُ من جميع أَرجائهم ونواحيهم ، حتَّى أَلحقَتْ بالارض

(١) بتر نحو كلمتين أو ثلاثة بسبب القطع المذكور .

مسافات من جدارهم ، وثلمَتْ فَرْجاً جمًّا في أَسوارهم ، وهدمَتْ عدداً من أَبراجهم الشاهقة ودِيارهم ، وآذَنَتْهم بتبابهم وأَشعرَتْهم بدمارهم . وكان لها من عظيم الأثر وكريم الغناء ، ما لم يُعهد في سالف الازمان والآناء ، ولا تيسَّر ببركة الامر المطَّرد التجدُّد والنماء ، الدالّ بتصرُّف حالاته ، وتطوُّر مآخذه في جُزْئيَّاته وكلّيَّاته ، على ما لله تعالى به من الاعتناء ، وأَنَّه المؤَيَّد العزائم المسدَّد الآراء ، المظفَّر الاحزاب المنصور اللواء .

ولمَّا تُمّم بعضُ الآلات المباركة وكُمّل ، ووُشّح بضروب الاسلحة وجُلّل ، وسُتّر بأَنواع الخيس الواقية وظُلّل ، قُرّب إِليهم لردم حفيرهم وتسهيل الطرقَ إِلى هلكهم وتدميرهم ؛ فَللفور تمكَّن الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ من خندقهم وسورهم ، وأَذهب الله ما كان في ظنّهم أَنَّهم لا يُرامون وتقديرهم ، وهناك أَذاقهم المَنون ، مُرَّ نكالها ، وعرَّفَتْهم الحربُ الزبونـ ، عَرْكَ الرحى بثفالها ، وأَرَتْهم عيْنُ اليقين ، حقيقة اصطلامها واستئصالها ، وعرَّفَتْهم وخيمَ مراتعهم في الضلالة وذميمَ مآلها . وأُدْني البُرْج المبارك إِليهم يسيرَ إِدناء ، فأَطلَّ على أَرجائهم إِطلال الفتخاء ، وخاتَ عليهم فرَغا فَوقهم سقفُ السماء ، وُرُموا منه بالموت الزؤام والداهية الدهياء ، وكان وإِيَّاهم كالبازي المصَرْصَر فوق نبات الماء ، وتيقَّنوا بمَرآه أَن لا طمع لهم في حياة ولا أَمل في بقاء ، وأَنَّه يستأْصل ما أَسارَت المجانيق فيهم من رمق وغادَرَتْ من دماء ؛ وتهيَّأَ للموحّدين ـ أَعزّهم الله ـ بمكانه توطئته ردمُ الخندق على اعتدال واستواء ، وجازوا إِلى ستارتِهم

وضرّموا النار بأعلى بُرْج ابن زواج ، وهو بمنزلة الأكليل من المدينة والتاج ؛ فاضطرم في جوانحهم من نيران الجزع والهلع كلُّ متوقّد وهاج ، وتعجّل الفتح الميسّر فيهم بفضل الله وباج ، وعند ما تحقّقوا أَنَّ أَخذة الله الرابية أَحاط بهم سُرادقُها ، وأَخذَتْ بمخنّقهم مخانقُها ، وطرّقتْهم بالحوادث النكْر والمنايا الحمْر طوارقُها ، وأَظلّتْهم بالازمات الشديدة ، والهلكات المُبيدة ، رواعدُها المتلفّة وصواعقُها ، وأَنَّ هضبتهم المنيعة قد مُلكت عليهم أَسوارُها وخنادقُها ، مدُّوا أَعناق الاستكانة والخضوع ، وأَبدَوْا صحفات الانابة والخنوع ، ولاذوا بالاَوْبة إِلى الطاعة والرجوع . وكثُر في سؤال قبول متابهم استصراخُهم وتَداعيهم . وأَهلّ بالاسترجام والاستصفاح داعيهم ومناديهم ، واستنزلوا رحمة هذا الامر العزيز برفع أَصواتهم وبسْط أَيديهم ، متحقّقين أَنَّ عفوه الواسع أَعْظَم من ذنب مُذنبهم وجناية جانيهم ؛ فشملهم عفوُه الذي لا يضيق عن مستقيل تائبٍ مجالُه ، وعمّهم صفحُه الذي لا يتعذّر على مستقبل آئبٍ منالُه ، وغمرهم منُّه الذي لا تتقلّص لمُسْتَفْيِء زاعبٍ أَفياؤُه وظِلالُه . وبُذل لهم من الامان الاتمّ ما أَقرَّ بجسومهم أَرواحهم الداهية ، وردَّ عليهم عقولهم الطائشة وأَلبابهم الغاوية ، وعرّفهم أَنَّ شيمة هذه الدعوة العليّة الاحسان والاسجاح وإِن كانت المدركة الغالية .

وانْدَرَجَ هذا التأْمين على الاغزاز وأَتباعهم وجميعهم وجميع أَهل قَفْصة وكافّتهم وعامّة من كان معهم من قبائلهم وأَهل باديتهم ، واستُثْنِيَ

المرتدُّون المارقون ، والضالُّون المَيُورقيُّون ، وكانوا قد اعتقدوا معهم وارتبطـوا ، وانتظمـوا جميعاً في سلك التألُّف والتعصُّب وانخرطوا ، واذَّكروا تأْمينهم معهم فيما رغبوا فيه وأَشرطوا ؛ فروجعوا بأَن لا أَمان لهم إِلَّا بإِسلامهم ، وأَنَّ رحمة هذا الامر العظيم لا تنالهم لعظيم اجترامهم ؛ وأَنَّ حُكْمَ الله الحقَّ فيهم تمزيقُ أَوصالهم وتضريبُ هامهم . فلمَّا رأَوا عين اليقين أَسلموهم وتبرَّؤُوا منهم ، واغتنموا سلامة حشاشتهم بالافراج عنهم . وكانوا عدداً كثيرا ، وجمًّا غفيرا ، وجمعاً كبيرا ؛ فغزاهم الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ غزواً شفى صدورَهم ، وأَذهب غيظَ قلوبهم وأَعظم أُجورَهم ، وضاعف جذْلَهم وأَكَّد حبورَهم . وعاد إِلى ملْك الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ هذا المَعْقِل الاشَب ، وقفلُ هذه البلاد المتنع المستصْعَب ، وجامحُها الذي لا ينقاد لرائضٍ ولا يصحَب ، قد سَمَتْ جدراتُه ، واحتمَتْ عن المحاربين جهاتُه ، وحادَّت البروجَ أَبراجُه الباذخة وشرفاتُه ، أَربى في الاباء على كلّ حصن ، وحوى من ضروب الحصانة كلَّ مَعْنًى لا تؤدّيه العبارة وفَنّ ، إِذا شاءَ فيه شارب مدَّ كفَّه فيغترف الماءَ الزُّلالَ من المُزْن ؛ ولولا بركة هذا الامر الذي لا يعانَد ما ذلَّ جامحُه ، ولا تَطَأْطأَ طامحُه ، ولا حَوَت المتوقّلين بأَذرائه والمتمنّعين بجنباته السامية وأَرجائه ، أَجارعُه السهلة وأَباطحُه ؛ وطال ما اتَّخذ الناسُ سورَ هذه المدينة وخندقَها عُجْبا ، واستمرَّ اغترار قاطنها بها سنين متطاولةً وحُقْبا . وظنَّ الجميع مَن ساكنيها وحاضريها ، على تقادُم الايَّام وتماديها ، أَنَّ طالِبَها لن يستطيعَ لها طلبا ،

ولا يبلغ من قهرها أَملًا ولا ينال من غلبتها أَرَبا ؛ فأَظهر الله فيها من كرامات أَمره العزيز ما صيَّر الثقةَ بمنعها غرورا ، والحديثَ عن حصانتها كذباً وزورا ، وحقّق أَنّ هذه الدعوة المهديّة لا تلقى دون مرادها موانع وإن عظمَتْ ولا حجبا ؛ وكان في أَخْذها من انخراق العوائد ما غدا أَمراً موجَبا ، لثبوت إيمان من ضعف يقينُه وسَبَبا . وأَيقن أُولو البصائر والابصار ، أَنّ حركات هذا الامر العزيز لا تخلو من اعتبار ، ولا تنفكّ من تنبُّه واستبصار ، وأَنَّها مع تناوُب الادوار ، وتعاقُب الاطوار ، غير عريّة عن إيقاظ العقلاء وادّكار .

وبتملُّكها تمّتْ هذه الحركةُ المباركة تماماً على الذي أَحْسَن ، وظهر عظيمُ صنع الله فيها لاوليائه المؤيّدين وتبيَّن ، وتحقّق كلُّ مؤمن لطيفَ عناية الله بهم وتيقّن . ولم يَبْقَ في هذه الجهات كلّها من الاغْزاز من ينفخ للفتنة في ضَرَم ، ولا من يستقلّ للسعي إليها على قَدَم ، إذ أَذهبَتْ هذه الغزوة المباركة يومَ الفتح الاعظم أَنجادَهم وأَعيانَهم ، وتملّكَتْ بقابِس وقَفْصة أَشدّاءهم وشجعانَهم ؛ فصار جماهيرُهم وأَهلُ البسالة والنجدة منهم ، خَوَلَ الموحّدين ـ أَعزّهم الله ـ وعبدانَهم ؛ واجتمع منهم عندهم جملةٌ وافرة ، وجماعةٌ ظاهرة ، وأَعدادٌ جمّة متكاثرة . وأَذهب الله كلّ ما كان بهذه البلاد من أَثر الفتَن وغيْن ، وأَبطل ما كان عويّها المَريد يخدع به الضعفاء من شبهةٍ ومَيْن ، وتبيّن برهانُ الحقّ الباهر ، وصبحُه الظاهر ، لكل ذي قلب وعَيْن ؛ ومهّد التقويم تأمينها وعدّل منآدَها ،

وطرّح عن كواهلها ما أثقلها من المحن وآدَها ، وصيّرها إلى معهودها من الهدنة والدعة وأعادَها . وظهر من إخوانكم الموحّدين - أعزّهم الله - من الاقدام على أعدائهم ، والمبادرة إلى مصاعهم ولقائهم ، والتعطّش إلى إرهاق نفوسهم وإراقة دمائهم ، ما حملهم عليه خلوصُ السرائر ، وصحّةُ العقائد والضمائر ، واستواءُ البواطن في طاعة الله تعالى والظواهر . والله تعالى يُذخر لهم أجور احتسابهم ، وينفعهم بما قدّموه في هذه الغزوة المباركة من رابح اكتسابهم ، ويُجنيهم ثمرة مساعيهم الناجحة ، وأعمالهم الصالحة ، في حالهم ومآبهم ، بمنّه وكرمه .،

وعرّفناكم - وفّقكم الله - بهذه البشائر ، والفتوح العظيمة الاوائل والاواخر ، لتأخذوا من المسرّة بها بقسم وافر ، وتوالوا حمد الله تعالى على فضله الشامل ومنّه الغامر ، وتستوزعوه سبحانه شكرَ عوارفه المستغرقة حمدَ الحامد وشكرَ الشاكر ، ونعمِه التي لا يفي بإحصائها عدُّ العادّ وحصرُ الحاصر . والله تعالى يجعلكم ممّن استدام بالشكر الاتمّ دون إحسانه السابغ وجوده المتواتر ، بمنّه ، لا ربَّ غيره .

وكانَتْ - وفّقكم الله - أسوارُ هذه البلاد لهفةَ على ساكنيها ، وفتنةً لعامريها وقاطنيها ، وسبباً لمحنتهم بكلّ ناعق يروم الانتزاء والامتناع فيها ؛ فَرُبَّ نعمة في طيّها نَقَم ، وراحةٍ ينشأ عنها ألَمٌ مُلازمٌ وسَقَم ، وحالةٍ تُظَنُّ وجوداً وهي في الحقيقة عَدَم . فأجمع رأيُ الموحّدين - أعزّهم الله - على إراحتهم من شرّها ، وإزاحة مكروهها عنهم وضرّها ، وتصييرها في

تمهيد أَحوال هدنتها ، وتوطيد أَسباب معيشتها ، كَسوها من البلاد وغيرها ؛ فاقتسموا سورَها بالقبائل ، وصيَّروه في يوم أَو بعض يوم كرجّاف من الرمل سائل . وإنَّ من أَعظم العِبَر ، وآيات هذا الامر الكريم الكُبَر ، أَن يسر هدمُه في المدّة المذكورة وما كان يظنُّ ذلك به في أَمد متطاول ؛ والله تعالى يحوط الكافّة بنظر هذا الامر الشامل الكامل . لا ربَّ غيره . والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتِب في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

الرسالة الثالثة والثلاثون

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيَّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والاعيان والكافّة بمرّاكش ـ أَدام الله توفيقهم بتقواه ، وأَوزعهم شكر ما منحه من فضله وآتاه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ونشكره على آلائه ونِعَمه ؛ ونصلّي على محمّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي رفع بهذا الامر العزيز قواعد الاسلام ودعائمَه ، وأَبان بإظهاره مناهجه ومراسمَه ، وعفّى بهدايته النيّرة ، ودعوته المؤيّدة المظفَّرة ، رسومَ الضلال ومعالمَه ، وقرن بتأييده المتظاهر ، وتسديده المُنجز المؤازر ، مُناجيه وعزائمَه ،

وتحكّمَ في أفئدة الملحدين ، وطُلى الفَسَقة المرتدّين ، مناصله وصوارمَه ، وهدّى بأيدي أوليائه الموحّدين ، وأشياعه المناضلين في سبيله المجاهدين ، مباني الكفر وقوائمَه ، وقطع بهم علائقَه وشكائمَه ، وقصّ بنصرهم أيّة سلكوا وتأييدهم فيما أخذوا أو تركوا خوافي الشرك وقوادمَه ، وسكّن بهذه الحركة التقويميّة مرتجّ بحر الفِتَن بهذه الارجاء الافريقيّة ومتلاطِمَه ، وأطفأ من سعيرها المحتدمة ، ونيرانها الملتهبة الملتطمة ، ما أرّثت الضلالةُ وقودَه وأجّجت الغوايةُ جاحِمَه ، وأوطأ بسَباسِبها اللقاح ، وفَراقِدها التي أنفت التجاوز والطماح ، سنابِك عَرَمْرَمه اللُّهام ومناسِمَه ، وجعل الجحافِل والمقانِب ، والقبائل الجمّة والكتائب ، أنفاله ومغانِمَه ، ونظم في حبل مقاده ، وعلى طوع إيثاره وحكم مُراده ، كُماة الابطال ، وآساد النزال ، وضراغِمَه ، وأفاء على أحزابه المفلحين ، وأوليائه المؤيّدين المنجحين ، عجائب النَّفَل وعظائمَه ، ونِعَمَه الحُمْرَ ونعائمَه ، وذخّر لهم أجوره وأجزل عندهم غنائمَه ؛ والصلاة على محمّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبى ، الذي أزاح الله به سحائب الكفر وغمائمَه ، وأذهب بنبوءته الخاتمة للنبوءات وشريعته الناسخة للمِلَل والديانات ، قوادِحَ الشرك وقواصِمَه ، وأضاء بأنوار حنيفيّته السمحة القياد ، ونذارته المصلحة المبدأ والمعاد ، مسودّ غَيْهَب العَمَى وفاحِمَه ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الذي نظم الله به من روابط العقائد والضمائر ، ما حلّ الضلال مناظمَه ، وطحر بهديه عن نواظر القلوب والبصائر ، متكاثِفَ رَين الهوى ومتراكِمَه ،

وجلّى بأضوائه المهديّة ، وعلومه الواضحة الجليّة ، مُدلَهِمَّ ظلام الجهل وعاتمَه ؛ وعن صاحبه الاهدى ، وخليفته الاعدل الارضى ، سيّدنا أمير المؤمنين الذي شاركه في نسبه الكريم وقاسمَه ، وعاونه في تمشية أمر الله تعالى وساهمَه ، وأعمل في إعلاء كلمته وتمهيد أمره ودعوته قواضبَه ولهاذمَه ؛ والدعاء لسيّدنا الامام أمير المؤمنين بن سيّدنا الخليفة أمير المؤمنين الممنوح من الانتهاض بخلافته ، والوفاء بعظيم أمانته ، خصائص الارتضاء وكرائمَه ، بنصر تمُرّ له السعود المساعدة ، والحدود السامية الصاعدة ، متّصلة ودائمَة ، وتأييد لا يزال يكبت مقاومَه ، ويرغم مراغمَه ، ويستنجز له من وعد الله الصادق ما يُعرّفه تصاحُبَ الفتح المبين في كلّ مروم وتلازُمَه .

وإنّا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من مسرّات هذا الامر العزيز ما تملأ بشراه أسماعَكم ، وتعمر ذكراه أصقاعَكم ، ويجعل على بثّ منحه ونشرها ، وذكر نعَمه التي لا يحصيها العدّ وشكرها ، انتظامَكم أبداً واجتماعَكم ـ من مَنْزِل أبي سعيد ـ يمّنه الله ـ ونحن نحمد الله تعالى على ما يسّر من محاولات هذه الغزوة السعيدة وسهّل ، وتمّم من أرغابها الحميدة وكمّل ، وأولى من عوارفه الجسيمة فيها وأجمل ، حَمْداً يكون كفاءً لما خوّل من إحسانه الاتمّ وأجزل . والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكُّل عليه .

وكانَتْ ـ وفّقكم الله ـ هذه الحركة السعيدة التي آلَتْ بها أمورُ هذه الارجاء خيرَ مآلها ، وأقرّتْ لها قدوم الكفر بعد تخمُّطها وصيالها ،

وأَذاقَتْ زعماءَ الـكَفَرة ، وصناديدَ الفَسَقة الفَجَرة ، وبال أَمرها وَصائب نـكالها ، واسترجعَتْ من البلاد المُغتَصَبة ، والاقطار المُنتَهَبة المُستَلَبة ، ما امتدَّت الايدي الظالمة إلى اختلاسها واغتيالها ، على ما أَعلَمْناكم به من التجرُّد فيها لنصرة الدين وحمايته ، وإزهاق الباطل وإبادته ، وإحياءِ الاسلام الذاهب بهذه الاصقاع وإعادته ، وتحقيق التوكُّل فيها على إنجاد الله وإعانته ، والثقة بما وعد سبحانه مَنْ تبرَّأَ من الحول والقوَّة إليه من عضده وكفايته ، وإرشاده في كلّ مقصد وهدايته ؛ فسنَّى ـ جلَّتْ قدرتُه ـ فيها من لطفه الخفيّ ، وصنعه الجليّ ، وفتحه السنيّ ، من حيث لا يحتسب لأَمره العليّ ، ما تواتَرَتْ به مخاطبتُنا إليكم ، وأَوْرَدْناه على معنى الاقتضاب عليكم ، وعرَّفناكم بمـا ولاه سبحانه من فتـوح تَناسَقَ ورودُها ، وتلاحقَتْ وفودُها ، وتلاحقَتْ على التيسير والتسهيل قلائدُها وعقودُها . وأَبلغْنا لـكم بنُبَذٍ ممّا كان فيه من الخوارق التي لا شبيه لها ، والحقائق المُنَبِّهة لمن تدبَّرها وتأَمَّلها ، على أَنَّ هذه الطائفة المباركة هي المنصورة المُصيبة المفتوح لها التي لا يضرُّها مَنْ خالَفها ولا من خذلَها . وإنَّ من أَعجب العجائب وأَغرب الغرائب ، وأَبدع الأُمور التي لم يُعهد مثلُها في العصور الذواهب ، ولا تعلَّق بها لبعدها أَملُ آمِلٍ ورغبة راغب ، أَن كانت الجحافلُ المجرَّدة في هذه الغزوة السعيدة بعضَ المغانم ، والعساكرُ الجمَّة مقودةً بشكائم الغلبة والخزائم ، وأَهلُ البسالة والنجدة ، والحماسة المشهورة والشدّة ، مسوقين في ربق الخضوع والنخوع كالخَوْد النواعم ؛ وما ذلك

إِلّا يسر الله تعالى في هذا الامر العزيز أَرغم له به شُمَّ المَعاطِس ، وأَذلَّ لرهبته وهيبته كلّ جامح شامِس ، واستنزل بعزّته وسطوته من اعتصم بشُمّ البواذخ ونازحات البسابِس .

وكُنَّا ـ وفَّقكم الله ـ قد عرَّفناكم بمن استُولي عليه بقابِس ـ كلأَها الله ـ من الاغْزاز ومن استُنزل منهم بقَفْصة ـ حاطها الله ـ وهُمْ معنى من كان منهم بهذه الجهات وأَعيانُهم ، وجماهيرُهم وفرسانُهم ، وأَشدّاؤُهم المشهودون وشجعانُهم ؛ وقد انتظم كُلّيٌّ العفـو رئيسَهم ومرؤوسَهم ، وملك غامر الاحسان ، وشامل الامتنان ، قلوبَهم واستحقّ نفوسَهم ، وظهر من توحيدهم ومتابهم ، ورجوعهم عن الغواية وإيابهم ، ما يستدر كون به بحول الله تعالى في خدمة الامر السعيد صلاح حالهم ومآبهم . وقد اجتمَعتْ منهم كتيبةٌ جَأْواء ، وفَيْلَق شَهْباء ، وجَحْفَل نَجْباء ، تَرْتَعص منه الاباطح ويفضل منه الفضاء ، وحصلوا في ملكة هذا الامر العزيز بكافّة أَحوالهم ، وجميع من معهم وما عندهم من بنيهم وأَهليهم وأَموالهم ، وكلٌّ منـه قد استَعْبده الامرُ العظيم واستَرَقّه ، واستَوْجبه بالغلبـة القاهرة واستحقّه ، ومنحه بعد الملك ، والاشفاء على الهلك ، حياتَه وعَتَّقه ؛ وقد قدموا بين يدي الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ غنماً يروق أَهلَ المغارب منظرُه ، ومَرْأًى يقصر عن مشاهدةٍ خبرُه ، ودليلًا على عظيم المنّة في التمكين من نواصيهم ، وكريم المنحة في استنزالهم من صَياصيهم ، لا يُطْلَب بعد عَيْنه أَثَرُه ، وأَنّها لَفتوحٌ خرقت المعتاد ، وتجاوزت الامل والمراد ، وأَربى

ميسّرُها العجيب ، ومسهّلُها الغريب ، على ما يتمنّى مُخَيّرٌ أن يكون وزاد .
والحمد لله على نِعَمه المتواترة الاطواد ، حَمْداً يمتري التضاعُف من فضله
والازدياد ، ويتجاوز في ترداد ذكرها ، وتعداد شكرها ، الغايات البعيدة
والآماد ، بمنه ، لا ربّ غيره .

ولمّا أنجح الله مقاصد هذه الحركة الميمونة التي رفّع منارها ، وحسّن
بفضله ورحمته آثارها ، ووفّق على إعلاء دينه وتمهيد أَمره وتمكينه إيرادها
وإصدارها ، وكان فتح قَفْصة ـ مهّدها الله ـ لبنة تمامها ، ومسكة ختامها ،
وأقصى رومها ونهاية إقدامها ، ولم يَبْقَ للفتنة بهذه الجنبات من عَيْن ولا
أَثَر ، ولا لغُواتها الشقاة استقلالٌ فيها بورد ولا صَدَر ، وكمل تمهيدُها
بعون الله وتوطيدها على أوفى بغية وأتمّ وَطَر ، رأينا ـ والله المستعان ـ
أنَّ من كمال النعمة على أَهل هذه الارجاء ، وتمام ما يُراد لهم من اطّراد
الامنة وسكون الدهماء ، وتَمَشّي تسديد أَحوالها على ما يعود عليهم بانبساط
الامل وامتداد الرجاء ، أَن يتلوّم بها إلى استحصاد زروعها التي آذنَتْ
بكمال الرفع والنماء ، وحملهم الامر الشامل ، والرأي الكامل ، على البلوغ
إلى غاية الاستكثار منها والانتهاء ، وازدعاع جميع محرثاتهم على الاستيعاب
والاستيفاء . وعَيَّنّا لهم في خلال ذلك من الطَّلَبة ـ أَعزَّهم الله ـ مَنْ
رَجَوْنا استضلاعَه بما أَسنَدْنا إليه من أُمورهم ، وانتهاضَه بما نُطْنا به من
مصالح كافّتهم وجمهورهم ، وقدَّرْنا اكتفاءه بما قلّدْناه من النظر الشامل
لمواسطهم وثغورهم .

ثمَّ استخَرْنا الله تعالى في الوصول إلى المهديَّة ـ حرسها الله ـ لمطالعة أَحوالها . وترتيب أَشغالها . فكان من بركة قصدها ويمن احتلالها أن أَرَت السعادة لقبائل عَوف والشَّريد من سُلَيم ـ وفَّقهم الله ـ محيَّاها ، وأَنشقَتْهم رائحتَها العبقة وريَّاها ، وسفَرَتْ لهم عن نورها الباهر وَسَناها ؛ فمَشَوْا مستبصرين إلى أَضوائها ، وهَدَوْا مسترشدين بهدْيها المُنْجي من مَداحض الفتَن وأَهوائها ، وانخرطوا مسلمين مستسلمين في سلك طائفة هذه الدعوة العليَّة وأَوليائها . ففاز بخير الدنيا والآخرة قِدْحُهم ، وأُوري بعد الصلود والاكباء قَدْحُهم ، وبيَّن لهم الحقائق فجْرُهم المستنير وصبحُهم ، ولُقُّوا من قبول هذا الامر العزيز وإقباله ، وتأمينه الشامل وإجماله ، ما استمرَّتْ به عوائدُه الكريمة لمن تمسَّك بحباله ، وآوى إلى ركنه واستند إلى ظلاله . وهاتان القبيلتان ـ وفَّقكم الله ـ صدْرُ سُلَيم وكاهلُهم ، وأَسِنَّتهم المذروبة وعوامِلُهم ، ومقدَّموهم على قديم الأيَّام وأَوائلُهم ؛ وبانقيادها بحول الله ينقاد أَبِيُّهم ويستبصر جاهلُهم ، بمنّ الله وفضله .

وما زَلْنا ـ وفَّقكم الله ـ وهذه الآفاقُ الافريقيَّة مطالعُ العزمات المؤيَّدة ، ومأَمُّ المقاصد الميمَّنة المسدَّدة ، ومجالُ الفكَر المُعانة بتوفيق الله المنجدة ـ نلتفتُ إلى تلكم الارجاء ، ونصرف إليها جانباً من التهمُّم والاعتناء ، لتأْخُذَ كلُّ جهة بقسطها من النظر النافع ، والتقوى العامّ الجامع ، على سواء ؛ فعند ما أَبرأَ الله تعالى سقم هذه البلاد واعتلالَها ، ورأَب ثأْءها

وأَصلح اختلالَها ، وأَباد أَعداءها ومحق أَقتالَها ، تميَّن النظرُ لسواها ، ووجب تسديدُ العزائم إلى غير مرماها ، واستَدْعَت الاحوالُ المحاولة ، والمصالحُ المزاولة ، أَن يـمّ الالتفات الكريم أَقصى بلاد أَهل التوحيد ـ بسطها الله ـ وأَدناها ؛ فاستخَرْنا الله على أَن تعمل إلى الجهات الغربيّة المَطيّ ، ويقرب بصِلة التأْويب بالاسناد خَرْقها النَّطِي ، وتطوى بأَيدي السُّبّق العناجيج ، والمضُمَّر الهماليج ، شقَّتها البعيدة ومداها القَصِيّ .

فاستَبْشِروا ـ أَعزَّكم الله ـ بقدوم إخوانكم الموحّدين ، واشكروا الله تعالى على ما ذخر لهم من نصرة الدين ، وحَمّدوه سبحانه على إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، بأَيدي أَنصار الحقّ وأَوليائه المؤَيّدين ؛ فقَدْ أَحرزوا ـ والحمدُ لله ـ من أَجر هذه الغزوة السعيدة وفخرها كلّ خَصْل ، وتقلّبوا في تضاعيفها من رحمته سبحانه في أَسبغ من غامر وطَوْل ، وانقلبوا والله المشكور بنعمة منه ـ جلّتْ قدرته ـ وفضْل . واعلموا ـ وفّقكم الله ـ أَنّهم وإن آبوا إلى ديارهم ، وعادوا إلى محالّ سكناهم ومواطن استقرارهم ، فإنّ صدورهم معمورةٌ بنيّة الجهاد ، في جهرهم وإسرارهم ، وعزماتهم مصروفةٌ إلى التأَهُّب له والاستعداد ، في إيرادهم وإصدارهم ، وأُجورهم بين الله موفورةٌ على ما ينوُونَه من حسبتهم في سبيله تعالى وإيتجارهم ؛ والربُّ يبلغ الامل في مُكافحة أَعدائه ، والمُنافحة لاعزاز دينه وإعلائه ، وإظهار أَمره على كلّ مُعاند وجاحد وإسمائه ، بمنّه وفضله .

وعرّفناكم ـ وفّقكم الله ـ بهذه العوارف الجمّة ، والمواهب المستكملة

المستتمّة ، لتأخذوا بحظّكم من المُشاركة فيها ، وتضربوا بسهمكم في شكر مُولِّيها ـ جلّتْ قدرتُه ـ ومُسَنِّيها ، وتعتبروا بما أَظهر الله فيها من آياته ، وعرَّف من عناياته ، وأَنجح من مقاصد هذا الامر العزيز ومراماته ، وأَبداه سبحانه من إعلاء مقامه وإبانة كراماته ؛ فأَقدروها حقّ قدرها ، وأَشيدوا في جميع نواحيكم بواجب حمدها وشكرها ، وخاطِبُوا بها إلى كافّة جنباتكم معلمين ببثّها ونشرها . والله يُعينكم من موالاة حمده ، على ما يجزل حظوظكم من رفده ، ويهديكم إلى اتّباع سبيل رضاه وانتهاج قصده ، بكرمه وجوده ومجده ؛ لا ربّ غيره . والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

كُتب في العاشر من شهر ربيع الاوّل سنة أَربع وثمانين وخمسمائة .

الرسالة الرابعة والثلاثون

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة المذكور :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيَّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاعيان والاشياخ والكافّة بسَبْتة ـ أَدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه ، ويسَّر لما يحظي برحمته ويدني من رضاه ـ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أَمّا بعدُ فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو ونشكره على آلائه ونِعَمه ، ونصلّي على محمّد نبيّه المصطفى ورسوله . والحمدُ لله الذي أَرغم لهذا الامر العزيز شُمّ المعاطِس ، وأَلان بأَيْده قَباح الجامح الشامِس ،

وأخضع لعزّته وسطوته كلّ جيد متطاول وأخشع كلّ لحظ مشاوِس ، وحكم بظهور أَمره ، واستيلاء غلبته وقهره ، على ما توقّل في الشُّمّ الشوامخ وتوغّل في البيد البسابِس ، ويسّر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزمامي البركة والسعادة ، ما تجاور تقدير المقدّر وقياس القائس ؛ والصلاة على محمّد نبيّه المصطفى ، ورسوله الاكرم المجتبي ، المختار من أَشرف المحاتِد وأَطيب المغارِس ، المُسكتّ بفُرْقانه المُعجز ، وبيانه المُوجز ، كلّ نافِس ، والماحي بنور نبوءته الخاتمة للمِلَل ، وشريعته الناسخة للاديان والنحَل ، مظلمات الغياهب ومُدْلَهِمّات الحنادِس ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الذي أَحيى الله به من مراسم الاسلام كلّ دارس ، وأَبان بظهوره من معالم الايمان ، ومناهج التوحيد والايقان ، كلّ طاسم طامِس ، وختم بأَن لّا نجاة في العاجلة ، ولا مفاز في الآجلة ، لمتوقّف عن طاعته متقاعِس ؛ وعن خليفتَيْه سيّدَيْنا الامامَيْن أميرَي المؤمنين المخصوصَيْن من تمشية أَمره ، وصلة عضده ونصره ، بالمقامات العليّة النفائس ، المحبوَّيْن من الانتهاض بخلافته ، والقيام بعهوده وأَمانته ، بالكرامات الموقوفة عليهما الحبائس ، المظهرَيْن لكلمته العالية ، ودعوته المستمرّة إلى قيام الساعة الباقية ، في أَشرف الرُّؤَاء وأَفخر الملابِس .

وإنّا كتبناهُ إليكم ـ أَسمعكم الله من بشر هذا الامر العزيز ما يفعم أَرجاءكم طيبُه ، ويقوم بأَكنافكم خطيبُه ، ويتمهّد لكم في ظلاله غَضَر العيش الارغد وطيّبُه ـ من حضرة إشبيلية ـ حرسها الله تعالى ـ والذي

نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكُّل عليه، والتيقُّن بأنَّ لله تعالى في محاولات هذا الامر العزيز أسراراً يُسلم المؤمنون لها، وينتهج السُّعَداءُ الموفَّقون مناهجها اللاحبة وسُبُلَها، ويتحقَّق الصادقون الموقنون أنَّ الخيرة التامَّة، والمصلحة العامَّة، لا تعدو مجملها ومفصلَها، ثِقةً بما أَنَّسوه من أَنَّه سبحانه يوضح لاوليائه المسدَّدين مشكلَها، ويفتح مقفلَها، ويحملهم على ما يصفي للمسلمين موردَ الامنة ومَنْهَلَها، بحيث لا يمسُّهم نصبٌ ولا قَدْح، ولا ينالهم إكداءٌ ولا كَدْح، ولا يَنيهم نصرٌ ولا يتأخَّر عنهم فَتْح؛ واللهُ المحمود على ما أَولى من صنعه وآزَرِه عونٌ وظاهِرُه نُجْح؛ لا ربَّ غيره.

وكُنَّا ـ وفَّقكم الله ـ عزَمْنا في هذه الحركة السعيدة على غزو الكافر بهذه الجزيرة من جميع أَرجائه، واستعانته سبحانه على إبادته وإفنائه، واستنجاز وعده الكريم في إظهار حزبه وتأييد أَوليائه؛ فاستنفَرْنا الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ وإخوانهم العَرَب ـ وفَّقهم الله ـ وبعض القبائل من الرعيَّة ـ حاطهم الله ـ فبادَرَ كلُّهم بنيَّات صادقة، وعزائم إلى اغتنام الأُجور مسابقة، وضمائر لكلّ مشوب وريب مباينة مفارقة. واستعجَلْنا النهوضَ بِمَن حضر من جميعهم، ولم يَقْتَضِ البدارُ والانحفازُ التلوُّمَ لاستدعاء بعيدهم والاستكثار من جموعهم، على أَنَّا ـ وفَّقكم الله ـ لا نعتدُّ بالكثرة ولا نعتمد عليها، ولا نسكن إلى الاعداء ولا نركن إليها، ولا نقاتل إلَّا بالله وحده ولا نُعوِّل إلَّا علَيْه، ولا

نطلب النصر والعون إلّا من لدَنْه، ولا نستند في إظهار دينه وتمهيد أمره الحقّ وتمكينه إلّا إليه، نيّةً استحكمتْ فيه تعالى بصيرتُها، واستمرّتْ على إعلاء كلمته مريرتُها، واستوتْ في الثقة به سبحانه والاعتماد على عونه ـ جلّتْ قدرتُه ـ علانيتُها وسريرتُها؛ فكان ممّا أظهر الله تعالى في مبادىء هذه الحركة الميمونة، وعرّفه من محاولاتها الميسّرة وفتوحها المضمونة، أن قذف في قلوب الكَفَرة رعْبَها، وقدّم إليهم قبل الاطلال عليهم طعْنَها وضرْبَها، وأعمل فيهم والعواملُ لم تُسدَّد، والصوارمُ لم تُجرَّد، حدَّها وغرْبَها؛ فطارتْ نفوسُهم شعاعا، ونخبتْ أفئدتُهم ارتياعا، وصاروا بحمد الله فرقاً مشتّتةً وأوزاعا، وتفرّى أديم اجتماعهم وانتظامهم فلّا وتعيُّناً بغلب وانصياعا؛ فلاذوا بالخضوع، واستخبؤوا بالنخوع، وتيقّنوا أنّ أمر الله القاهر لا تعصم منه سابغات الدروع، ووافرات الجموع؛ فكلٌّ منهم داخَلَ مَنْ يليه من الطَّلَبة ـ أعزّهم الله ـ راغباً في أن يشفع له، وفي أن ينال من الاعتلاق بذمّة هذا الامر العزيز أملَه؛ ووصل بعضُ زعمائهم ورؤسائهم منتظماً في سلك من استخدَمَهُ الامرُ العليُّ واستعمَلَه.

وسارَعَ عظيمُهم صاحب قشتالّة إلى مخاطبتنا مستأذناً في إرسال رُسُله إلينا، ليؤدّوا عنه رغبته في التمسّك بحبل هذا الامر العظيم وذمّته، وحرصه على الانقطاع إلى جنابه والاستناد إلى هضبته، وأنّه يخدم الموحّدين ـ أعزّهم الله ـ بمحاربة أهل جلدته، ومقاطعة أهل ملّته؛ فراجعناه بالاذن له في ذلك لنرَى رأينا في حربه أو هدنته. وشرع الموحّدون ـ أعزّهم

الله - في حركتهم ، واستقبلوا سعيد وجهتهم ، محتسبين لغدوتهم في سبيل الله وروحتهم ، متوكّلين عليه سبحانه في إنجاح سعيهم وتأييد عزمتهم ، والمسرّات تتلقّاهم وفودُها ، والخيرات تتوالى عليهم ورودُها ، والبشائر يُربي على سالفها مستأنَفُها وجديدُها ؛ والحمدُ لله على ذلك حمداً يستدرُّ به تضاعُف النِّعَم ومزيدُها ؛ لا ربَّ غيره .

ولمَّا وُصِل إلى قَصْر المجَاز - يمّنه الله - وَصَل أرسالُه إلى إشبيلية - حاطها الله - ولقوا الموحّدين مع طَلَبتها - أكرمهم الله - وأوصلوا خطابه يفصح بأنّهم زُعَماء قومه ، الذين يعتمد عليهم في نقضه وإبرامه ، ويَثِق بهم في أَحكام ما يلزمونه وإحكامه ، وأنّه ألقى إليهم مقاليد تفويضه في كلّ ما يربطونه إليه واستسلامه ؛ فسُمِعَتْ مقالتُهم ، واستوعبَتْ رسالتُهم ؛ فأَنهوا ما حملهم صاحبُهم من الاعلام بما عندَه ، وقدَّروا غرضه في خدمة أَمر الله وقصْدَه ، وذكروا أَنّه متى استُدْعي إلى مُشاركة بنفسه أَو رجاله بادَرَ إلى اقتفاء ما رسمه الامرُ العزيز من ذلك وحدَّه ، فرأَينا بعد استخارة الله تعالى أَنّ من النظر العامّ المصلحة للمسلمين تشتُّت أَعدائهم ، وتفرُّق كلمتهم واختلاف آرائهم ، وأَنّ من أَعظم المعونة عليهم تقاطُعهم وتبايُن أَهوائهم . فأَمضَيْنا له السلم على ما فيه العزّة لله ولأمره ، وعلى وجهٍ يؤذّن بحول الله بوقم العدوّ وقهره ، والله المشكور على ما حوّل من تسهيله وعونه ويسره ، لا ربَّ غَيْره .

وكان ابنُ عمّه ومُناهِزُه في رتبته عند قومه صاحبُ لِيُون في مُهادنة ؛

فرغب في تجديدها ، وخاطب ضارعاً في تقريرها له وتمهيدها ؛ فأسعفناه برغبته وقوفاً عند شروط المُصالحة ووفاءً بعهودها . وتجرَّد العزمُ لغزو عدوّ الله ابن الرِّيق إذ هو أقربُ دارا ، وأصعبُ جوارا ؛ فصرفنا إلى بلاده أعنَّة القَصْد ، ولفَتنا إليها وجه الاعتزام والصَّدّ ، ورجَوْنا الله تعالى في استئصال جهَتِه بالاكتساح وشَوْكَتِه بالحَصْد ، والله المحمود على ما أولى من المعونة في ذلك والعَضْد ، لا ربَّ سواه .

واستمرَّ الموحّدون - أعزَّهم الله - على مسيرهم إلى قُرْطُبة - كلأَها الله - فحطُّوا بها أثقالهم وأخذوا منها أزوادَهم ، وجدَّدوا بها تأهُّبهم واستعدادَهم ، وأقاموا فيها أيَّاماً استوفوا فيها غرضهم من ذلك ومرادَهم ، ونهضوا منها على بركة الله وعونه ، وتوفيقه ويمنه ، والبشرى تُطالعهم بقسماتها الوسيمة ، ومقدّمات الفتوح تُؤْذِنهم بنتائجها الكريمة ، وتيسيرُه سبحانه يَمِدهم بما منحهم من منّه جمّة وعارفة جسيمة ، لا يقطعون وادياً إلَّا عظم به أجرُهم ، وربح عند الله تعالى تجرُهم ، وزكا لديه سبحانه عَمَلُهم وكرم ذخرُهم ، إلى أن أجازوا وادي تاجُو على بركة الله وتوفيقه وعونُه - جلَّتْ قدرتُه - لهم مصاحب ، وصنعُه الكريم مؤازر مواكب ؛ وقصدوا مزرعة شَنْتَرين - فتحها الله - فانتسفوا زروعَها ، واستأصلوا بالاخذ والتدمير جميعَها ، وتناولوا بالاحراق والتخريب مَنازلَها وربوعَها . ثمّ نهدوا إلى قَلْعةٍ للاعداء تُسمَّى طُرُّش على هضبة مُنيفة المراقب ، مُسامية للكواكب ، قد انقطعَتْ حافاتُها ، وبعدَتْ قذفاتُها ، من كلّ

الارجاء والجوانب ؛ ولعظمها ومكانها من نفوسهم أَشبوها بالبناء الشامخ وحصّنوها ، وأَلفوا بها جموعهم المؤتشبة ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأَموالهم وائتمنوها ، واعتدُّوا قفلَ بلادهم فخانَتْهم بحمد الله آمالُهم التي أَمَّلوها في استقصائه وكذَّبَتْهم ظنونُهم التي ظنُّوها . ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام ، ولا يُهتضم المتوقّل فيها ولا يُستضام ، ولا تَثْبت لمُحَاربها لوعورة مَراقِبها وجوانبها الأَقدام ، لولا سعود هذا الامر الذي تؤيّده الاقدار وتنجده الايّام ؛ والحمـدُ لله على ذلك حمـداً تُستنجز به المنن وتُستدام ، لا ربَّ سواه . فنازَلَها الموحّدون ـ أَعزّهم الله ـ أَصْدَقَ نزال ، وصالوا على كفرتها أَعْظَمَ مصال ، وصدقوهم القتال صدقاً أَزال من نفوسهم كلّ زور انخدعوا به في الامتناع وخيال .

وعند ما عضّتْهم الحربُ الضَّرُوس بها ، وجرَّعَتْهم أَكْؤُس مَقْرها وَصابها ، وأَذْنَتْهم بخلاف أَنفسهم الخبيثة وذهابها ، مدُّوا أَيديهم إلى رحمة هذا الامر الذي لا يتوقّف عن مستمطرها واكفُ سحابها ، ولا يَنْبهم لطالبها وسيعُ بابها ؛ ورغبوا في أَن يخرجوا بحشاشتهم ومن معهم من نسائهم وذرّيّاتهم ، ويُفرجوا للموحّدين ـ أَعزّهم الله ـ عن كلّ ما اشتمل عليه حصنُهم من أَموالهم وأَقواتهم ؛ فأَجَبْناهم إلى ذلك لما ظهر فيه من النظر ، وليكونوا لقومهم وأَهل ملّتهم من المثلات والعبر ، وليحدّثوا مَنْ وراءهم بما شاهدوه من عظيم الآيات والنذر ؛ فيزيدوهم ذعراً إلى ذعرهم ، ويصدّقوهم فيما عاينوه من أَمر الله شرّ نكرهم ، ويؤْذنوهم بخراب ديارهم

وذهاب أَمرهم . وأَلفى الموحّدون ـ أَعزَّهم الله ـ فيه عدداً من خيولهم وأَسْلحتهم ، وأَموالهم وأَمْتِعَتهم ، وفتحه اللهُ على هذا الوجه الكريم لاوليائه ، وقصم بقهره ظهور أَعدائه ؛ وأَشعر الكافر ابن الرّيق باستباحته من أَمامه ووراءه . ووجد الموحّدون ـ أَعزّهم الله ـ هذه المدينة المذكورة قد أَخذَتْ زخارفَها ، ولبسَتْ من النضرة حُلَلَها الرائقة ومطارفَها ، وتوشّحَتْ رُباها ووهادُها من غروسها وكرومها بما أَعجب مبصرَها وأَعجز واصِفَها ؛ فابتزُّوها بهجة تلك الملابس . وأَلحقوها بغربات المَهامِه ومفقرات البسابس ، وغادَرُوها بلاءً وعفاءً كأَن لم تغْن بالامس الدابر الدارس .

ثمَّ توجَّهوا منها إلى مدينة طُمار ، وهي من القواعد المنيعة ، والبلاد المخصبة المريعة ، ذات كروم وثمرات ، ومَحارث جمّة ومُزدرعات ، وبسائط وسيعة ومَناظِر رائقات . فأَعدَّتْها أُخْتُها للخراب كالحرباء ، وصارَتْ مثلها كالحرَّة السوداء ، واضطرمَتْ فيها نار الدمار والتبار من جميع الجوانب والارجاء . وفي خلال المقام عليها ، وأَثناء التَّعْفية لاثرها . كانَتْ سرايا الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ تخرج يميناً وشمالا ، وتجوس من بلاد أَعداء الله شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالا ، وتحلُّ بهم القوارع والفواقر إصغاراً لهم وإذلالا ، والكَفَرةُ منحجزون في حصونهم الاشيبة ، ومَعاقِلهم المستصعبة ، يحنون ضلوعهم على جحيم الحسرة المضطرمة الملتهبة ، لا يستطيعون دفاعا ، ولا يملكون ذبًّا عمّا نزل بهم ولا قراعا ، قد صَفِرَتْ من أَقواتهم أَيديهم ، واكتسحَتْ أَنعامهم ومواشيهم ، واستعرَتْ بنيران الخراب والتباب

أَرجاؤهم ونواحيهم ، وحلَّ بها من الدروس ، والعفاء والطموس ، ما يبعد معه استدراكُهم لعمارتها وتلافيهم ؛ ومَلِكُهم ابن الرّيق بشَنْتَرِين ـ أَعادها الله ـ ملازمٌ لانجحاره ، مستكنٌ في وِجاره ، مدّرع جلابيب خزيه الطويل وعاره ، لا يبرز لمُقارعة ، ولا يظهر لمُصاعة ، ولا يبدي من جموعه الذليلة ، وجنوده القليلة ، أَحداً لمُنازلة أَو مُدافعة ، قد أَلقى للحادثة بيده ، وطأْمَنَ أَحشاءه ذلًّا وصغاراً على كَمده ، وجعل الاستتار على قريته المحصَّنة والالتجاء إِلى جدره المنَّعة أَعظم معتمده ، في الابقاء على حشاشته التالفة وأَكبر مستنده ؛ وقد أَقصدَتْه جنودُ الحقّ وكتائبُه ، وانتشرَتْ بجهاته المستباحة جحافلُه ومقانبُه ، وتدَكدَكتْ بوطء العساكر المنصورة ، والجيوش الموفورة ، أَرجاؤُه وجوانبُه ؛ ولو أُصحَرَ الكافر لَنالَهُ إِدراكُها ، وعُلّقَتْ به حبائلُ الهلكة وأَشراكُها ، وغشيَهُ سيلُها وحطمهُ عِراكُها .

وأَقام الموحّدون أَيّاماً يدوسون بلادَه ، وينسفون رغدَهُ وثمادَه ، ويحملونه من أَوق المضرّة ، وثقل المَخزاة والمعرَّة ، ما لا يستطيع حَمْلَهُ وأَودَه . والحمدُ لله ربّ العالمين . وكُنَّا ـ وفَّقكم الله ـ بحُكْمِ انقطاع ما بَيْن المسلمين والكَفَرة من البلاد ، وحَمْل الموحّدين ـ أَعزَّهم الله ـ من قُرْطُبة ـ كلأَها الله ـ ما يصلحهم من العلف والازواد ، وأَخْذِهم في ذلك بواجب الحزم ومتعيَّن الاستعداد ، مَشَيْنا بهم على هيئَتهم ، ولم يتأَتَّ الاسراع بحركتهم ، وأَخذِ أَعداء الله على غِرَّتهم ، والانكماش في

المسير الموجب لفجأتهم وبغتتهم ؛ فطارت الانباء إليهم قبل أن يدهموا ، واتّصلت الاخبار بهم فأحكموا حذرهم وأبرموا ، واستعجلوا بضمّ ما أدرك من زروعهم ، وبادروا بالجلاء عن بسائطهم وربوعهم ، واستمدّوا في حصونهم المؤتشبة بأمدادهم وجموعهم ؛ فلم يتّسع للموحّدين ـ أعزّهم الله ـ ما أساروا من طعامهم ، ولم تمكّن مع قلّة العلف أسباب مقامهم ؛ فرأينا ـ وبالله التوفيق ـ أن ننقلهم بما نالوا من خيرات عميمة ، وأحرزوا من أجور غنيمة ، وحازوا من منالات جمّة ومفاخر كريمة ؛ فإنّ حركتهم السعيدة أشرقت ابن الرّيق بريقه ، وسدّت عليه مسالك نهجه وطريقه ، وأرته شجى نفسه ، وخزيَ يومه وأمسه ، في حزبه الذميم وفريقه ، وقذفت بأمره الداير ، وجمعه الخاسر ، في سعير الهلك وحريقه . فعُجْنا إلى بلاد المسلمين ـ مهّدها الله ـ صدورَ الركاب ، وثنينا إليها زمامَ الرجعة والاياب ، شاكرين الله تعالى على ما نوّلَ من نِعَمه الجمّة ومِنَنِه الرغاب ؛ وانقلب الموحّدون ـ أعزّهم الله ـ إلى هذه الحضرة ـ حرسها الله ـ بنعمة من الله وفضل أكْرَمَ انقلاب ، مستصحبين من عوارفه سبحانه كلّ نعمة دائمة السمح هاطلة التسكاب .

وعرّفناكم ـ وفّقكم الله ـ بهذه المسرّات الكُبَر ، والآيات الواضحة الحُجول والغُرَر ، لتأخذوا بحظّكم من سرورها ، وتفيضوا بقدحكم من حمدها وشكورها ، وتُشاركوا بشكرها ونشرها في جسيم حظوظها وكريم أجورها ؛ والله يجعلكم من المتحدّثين بنِعَمه ، الشاكرين لآلائه وقِسَمِهِ ،

المستدمين بحمده سبحانه درور جوده وكرمه ، بمنّه وفضله ، لا ربَّ غيره . والسلامُ الكريم عليكم ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه .

كُتب في السادس والعشرين من جمادى الاخرى سنة ستّ وثمانين وخمسمائة .

الرسالة الخامسة والثلاثون

وهي من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمّد بن عبد العزيز بن عيّاش :

من أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين بن أَمير المؤمنين ـ أَيّدهم الله بنصره ، وأَمدَّهم بمعونته ـ إلى الطَّلَبة والموحّدين والاشياخ والكافّة بفاس وعَمَلها ـ أَدام الله كرامتهم بتقواه ، ويسَّرهم من العمل والشكرْ لما يتقبّله ويرضاه ـ سلامٌ عليكمْ ورحمة الله وبركاتُه .

والحمدُ لله الفتّاح العليم ، المنزَّه بسلطان العقل عن التثليث والتجسيم ، حمداً يكون إلى العوارف سميرا ، الواحد الذي استحال عليه جواز العدَد ، واتّخاذ الصاحبة والولَد ، فتعالى عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرا ، القاذف بالحقّ على المبطّلين ، وبالصدق على المكذّبين ، ثمَّ لا يجدون وليًّا ولا نصيرا ، مُثيب مَنْ توجَّه إليه وتوكَّل عليه فتحاً قريباً ومَغانِمَ كثيرةً وكان ربُّك قديرا ، ومُنجده من السبع الطباق ، بمن يغنى عن السمر العوالي والبيض الرقاق ، وكفى بملائكة السماء ظهيرا ؛ والصلاة على سيّدنا محمّد نبيّه المرسل شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مُنيرا ،

مطلع الآيات الكُبَر ، على مَراقب السمع والبصر ، فطوبى لمن كان سميعاً بصيرا ، والمجاهد بجيش القرآن ، مَنْ دعاهم إلى السجود للرحمان ، فقالوا : « أَنسجد لما تأمرنا » وزادهم نفورا ، كاسر الصلب والاصنام ، ومُعجز فرسان المَنْطِق ورؤساء الكلام ، حيث لم تعدم البلاغة لساناً ولا الرمح مُديرا ؛ وعلى آله وصحبه الذين اتّبعوه قولاً وفعلا ، فكان حكمُهم فاصلا ، وسيفُهم قاصلا ، ولواؤُهم منشورا ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، مُعيد الحقّ وقد أَتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ، والمُنشر بنور هدايته ، وظهور رايته ، قلوباً سكَنَتْ من الجهل قبل القبور قبورا ، والمُحيي بخاصّيْ صفحه وبيانه ، نفوساً قابلةً والمُهلك بحادّيْ سيفه وسنانه ، قوماً بُورا ؛ وعن صاحبه وخليفته سيّدنا الامام أمير المؤمنين الذي اختاره الله سجيرا ، وللمؤمنين أَميرا ، متلقّي راية الامامة في مغرب الشمس والله قد أَعدّ له في مشرقها منبراً وسريرا ، والكاشف ما دجا من الفتَن المُدلهِمّة ، والخطوب المُصمّة ، وقد أَمسى جنح ليلها ذابلًا وأَصبح شرُّها مستطيرا ؛ وعن سيّدنا الامام أَمير المؤمنين بن سيّدنا الامام أَمير المؤمنين متقبّل آثاره ، وباسط أَنواره ، يَقْروها أَثراً أَثراً ويبسطها نوراً نورا ، والمُعطى من الكمال ، وشرف الخلال ، ما يردُّ الذهن كليلًا ويصرف الطرب حسيرا ، والمُعان بالنصر الذي لم يزل النهار مواكباً والليل سميرا .

وإنّا كتَبْناهُ إليكم ـ وأَلسنُ الاقلام ، تعجز عن حقيقة الاعلام ، لعلمها بأَنّ إلينا في صنع الله العظيم سبحاً طويلا ، وأَنّ لسان هذه الحال الشريفة

أَقوم قيلًا وأكبر تفصيلا ـ من حضرة إِشبيلية ـ حرسها الله ـ والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكُّل عليه، وأَن تعلموا أَنَّ الجيوشَ وإِن كثرَتْ جنودُها، وانتشرَتْ ذات اليمين والشمال بنودُها، فلا ثقةَ إِلَّا بالواحد الذي يغلب، والكتائبُ الباغية كثيرةُ الاعداد، والاستظهارُ إِلَّا بسيفه الذي يضرب، والسيوفُ في مضاجع الاغماد، وإِلَّا فما يؤْثر الخميس العَرَمْرَم إِذا لم يكن السعدُ من نفَره، وما تغني شجر القَنَى إِذا لم يكن العونُ من شَرَفه والفتحُ من ثَمَره، وما تفيد عيونُه الزرق إِذا كان صنع الله محجوباً عن بَصَره؛ وكلا ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إِلَّا بِمَنْ بيده مَلَكُوت كلّ شيء وإِليه تُرجعون، ولا نَيْلَ ولا نجمةَ إِلَّا من وعده لا يخلف الله وعدَه ولكنَّ أَكثر الناس لا يعلمون؛ والحمدُ لله عوداً بعد بدء على المواهب التي يتلاحق موحّدُها ومثنّاها، والعطايا التي لو خيّر الدين في كلّ أُمنيّة عدا لما تمدّاها، والمِنَح التي قد أَنبأَتْ بها الغيوب فلو تنكّرت لعُرِّفَتْ بسيماها.

وإِلى ذلكم ـ أَوزعكم الله شكر النعمة ـ فإِنَّ الله سبحانه لما كسر طاغية الروم الكسرة التي أَعزّت الحنيفيّة، وأَذلّت النصرانيّة، وفتح من مَعاقله الاشبة ما فتح، ومنح عباده من أَنفاله وأَسلابه ما منح، أَجفل ـ لعنه الله ـ إِلى قَشْتالّة ـ فتحها الله ـ إِجفال الظليم، وقد أَبقى منه سيفُ الله ما يُبقي الصباح من الصريم، والرياح من الهشيم. وفصل الموحّدون وشكرُ الله ملء حقائبهم، وصنعُه الكريم حسبُ رغائبهم، وشرعةُ العود متمأَّدُّ قَناهم

وقواضبهم ، لا بتمنٍّ للقاء العدوّ ، ولا بتصويب إلى مهواة الكبر والعلوّ ، بل بمجرّد الافتقار إلى الواحد الذي ينصر من ينصره ، ويزيد الاحسان من يشكره ، ومَحْضِ الثقة بقوله تعالى وهو أصدق القائلين : وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤمنين . ولم يزل الكافر يرغب في السلم رغبة منخوب الفؤاد ، موتور الامل ، مقطوع السبب ، وتكرَّرَت مخاطباتُه فرُدَّتْ بالخواتم على أدراجها ، مشعرةً بأَنَّ استخارة الواحد القهّار على غزوه بسبيل أَلجامها على الله وأَسراجها ، وما يُصنع بالرغبات المذحولة والحبال الرمائم ، وصنع الله الذي عود عباده مقرون بنواصي العزائم ، وجانب الظفر الذي من به سبحانه أَشدّ وأَوثق ، ونسب القتال في شرف الاسلام وأَهله أَكرم وأَعرق .

وعند ذلك تحرَّك الموحّدون على ما جاءت به السنّة الحنيفيَّة من الاعداد والارهاب ، عالمين بأَن لّا عدِة ولا عُدّة ولا قَول ولا صَوْل إلّا بما يفيض عليهم من خزائن رحمة ربّهم العزيز الوهّاب ، عائذين بالله من الاعجاب أَن يركبوا له طِرْفاً جامحا ، ويمدُّوا إليه طَرْفاً طامحا ، ويوطؤُوا عقبه نافلًا ورامحا ، بل هم القوم يستنجزون ما جاء به الوعد ، وينتظرون ما عوَّد الاقبال المتعارف والسعد ، ويسلمون في كلّ مكان وزمان لمن له الامر من قبل ومن بعد ؛ فأَوّل ما مرَرْنا به حِصْنُ مُنْت انتش وهو حصنٌ يتلفَّع بالعَنان ، ويقتضُّ الطائر بالسنان ، ويقذف السجاعة في روع الجَبان الهِدان ، على طودٍ قد سافر في الجوّ مُقْتَربا ، ولم يَرْضَ بالجبال أَكفاء ولا بالبسيطة مُنْتَسبا ؛ فقبل الخلوص إليه من العروج ، والنزول

عليه من السروج ، فَتَحَه الله فتحاً تَفاءَلَ التوحيد فيما يؤمّله ، وقال أَهلُه : اللّهمَّ اجعَلْه مفتاح كلّ باب نَستَقبِلُه .

ثمّ عمَدْنا إلى تَرْجالُه قاعدة الثغر الشماليّ ترضعه بدَرّها ، وتدربه على شرّها ، مدينة لم يخافوا عليها للحوادث ظِفْراً ولا نابا ، ولا توهّموا أَن سيغلقون لها في وجه مُنازل بابا ؛ فعند ما سمعوا بالمرور عليهم نادى فيهم مُنادي الجلاء في ساعة القتل والسبا ؛ فاتّبعهم من سرعان الجيوش من قتل مقاتلَهم وسبي حريمَهم ولم يَنْجُ منهم إلّا من تخطّاهُ جناحُ السيفِ أَو دخل في خفارة الليل .

واقتدى بهم في الفرار أَهلُ شَنْتَقْرُوس وهي القلعة الحسيبة في الامتناع ، المجلوّة على منَصَّة اليفاع ، أَوّل حصن بالجهة أُهينَتْ فيه شعائرُ الله واتُّخِذَ فيه المسيحُ وأُمّه إلاهَيْن من دون الله ، منه تفتّحَتْ أَبوابُها ، وتوزّعَتْ أَسلابُها ، واستُبيح بالغدر حماها ، ورماها الكفر إلى أَجل مسمّى بالداهية التي رماها . فشُحِنَتْ ثلاثتُها خيلًا ورَجْلا ، وأَترع لها الحزمُ غَرَباً من النظر الكريم وسَجْلا ، ونقل إليها من أَهلها كل من كان يستسق لمهدها هطّالاً من الدّيَم ، ويرى وجدانَ كلّ شيء بعدها كالعَدَم . وكان يجاورُها من مَعاقِل الكَفَرة ما لم يُلحق في المنعة بغايتها ، ولا نُصب في الحرب رايَةٌ مثل رايَتها ؛ فاقتدح فيها زندُ الاستخارة ، على الهدم والعمارة ؛ فأَخَذَها الرجفان أَخْذاً وَبيلا ، وصُيّرَتْ للفور بإِذن الله كثيباً مَهيلا .

ثمَّ أَجَزْنا وادي تاجو وهو سور الارض التي كان بالآذان عهدُها ، وزلزل بالناقوس غورُها ونجدُها ، بعد أَن قيل للموحّدين على شاطئه الاسلاميّ : ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنَّكم غالبون ، وعلى الله فتوكَّلوا إن كُنْتُمْ مؤمنين ، وعليكم بتجديد النيَّات ، واستنزال نصر الله تعالى على هذه الرايات . فبايعوا بيعةً سرَّتْ بها في دين الله المَشْرَفيَّة والقَنَى ، واستنَّتْ بها خيلُ الكلمة الاسلاميَّة في سرف المَنَى .

ثمَّ سِرْنا متغلْغلين في أَرض الرُّوم إلى مدينة إبْلَتانْسِية وكانت مدينة تَهالَكَ في إنشائها برهةً من السنين ، ونقل إليها من أَهل الشمال كلَّ من تلقّى راية الحرب باليمين ، وحدَّث فيها نفسه بآمال سبق إليها الفساد قبل الكيان ، وانعدام الخبر قبل العيان ؛ وإذا بأَهلها قد غزاهم من الرعب جيشٌ طارق ، وسيفٌ بارق ؛ فودعوها وداع من يحسب كلَّ صيحة عليه ، ويظنُّ البَلاقِع والبَراقِع جيشاً ناهداً إليه ، واغترَّ بقصبتها من كان يُدبّر حرْبَها ، ويشدُّ بزعمه دَرْبَها ، وهُمْ جملةٌ كبيرة من الرُّوم فيهم زُعماءُ مشهورون ما منهم إلَّا من كان ذا راية منشورة ، وكتيبة مستورة ، وفتكة في المسلمين مذكورة ؛ فاستولى الموحّدون على المدينة يُدمّرونها تدميرا ، ويُتبّرون ما علا منها تتبيرا ، ويزيحون أَهلها تتبيباً وتحسيرا ؛ وغلبَت القصبة على الكَفَرة فلاذوا ببُرْج أَصيل المنمة ، محكم الصنعة ، عريض الحافات ، باسق الشرفات ؛ فأَرسل الله عليهم سحاباً دَلُوحاً من النبال ، وقَذْفاً بصُمّ كالجبال ، وإذا أَراد الله بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ له وما لهم من

دونه من وال؛ فلم يلبثوا إلّا ليلةً وقد نزلوا على حكم الأَسْر، باضطرار منهم وباختيار من القهْر والقَسْر، وبدّلهم الله بالجُبْن والخَوَر من تصميمهم وإقدامهم، وصُيِّرَت السيوفُ التي كانت في أَيديهم أَغلالاً في أَعناقهم وقيوداً في أَقدامهم؛ ولَفقْدُهم على الكافر أَشَدُّ من ذهاب البلاد، فإنّهم كانوا عنده أَهل الآراء المسموعة والسيوف الحداد.

ثمّ عطفت الاعنّة على أَعمال طَلَبيرة فأَوسَعَ الله أَرضَها اعتسافا، وأَقواتَها انتسافا، وعمائرَها خرابا، يقول عنده الكافر: يا لَيْتَني كُنْتُ تُرابا، ثمّ جئْنا ظاهرَها وكانت جنّتَهم التي يتفيئُون ظلالها، ويعتمدون استقلالها، يفرحون بما أُوتوا منها، ولا يعرفون لبأْس الله حقيقة ولا كُنْها؛ فاستُؤْصلت أَشجارُها الملتفّة أَصْلًا وفَرْعا، وأُفنيَتْ حدائقُها الانيقة قَضْباً وقَطْعا، وتلاقَتْ عليها عواملُ الحديد، ببأْسه الشديد، إرغاماً لأَنف الكَفَرة وجَدْعا. فلمّا صفرَتْ من الخَير، وصارَتْ أَوحش من جوف العَير، وذبل روضُها الخضل، وخرق حجابُها المنسدل، وقالَتْ للكفّار بلسان الحال: وَدِّعوا في جنّاتي آمالكم، واندبوا في عرصاتي أَحوالكم، فَوّضَ عنها الموحّدون في رحال ثقيلة، ورجال طويلة، يمُرّون على البلاد مرّ السيل بالليل لا يُبقي ولا يَذَر، إلّا ما لم يمرّ بالخاطر ولا وقع عليه البَصَر، ينزلون على الزرع وقد شابَتْ بها نواصي الوهاد والنجاد، فلم يرحلوا عنها إلّا وقد عاد بياضُها إلى السواد، ويعمدون إلى القُرَى الظاهرة، والمدائن الباهرة، فيَجِدُونها بالأَقوات راجحة الميزان، كثيرة الحسان، خاوية على عروشها،

من قُطّانها وجيوشها ، قد أَسْلَموها لكلمة الاسلام ، وفارقوها قبل صهيل الخيل وخفق الاعلام ، وطُرّحوا يُريدون أَقاصي الرُّوم على غير طريق ، فتخطفهم الطير أَو تهوي بهم الريح في مكان سحيق ، فمنهم طريدُ خوف ، وحصيدُ سيف ، ومنهم من أَصابَته الرماح كَسْبا ، وأَخذَته السفاح ولكن يُسرٌ غصبا ، فإِذا نزل بساحتها نزلَتْ بعقرتها أُمُّ الخطوب السود ، وامّحى أَثَرُ نجمها وشجرها من ديوان الوجود ، هدماً خبيرا ، وحريقاً مستطيرا ، وقطعاً استأْصل معموراً ومغمورا ؛ والله يقدم إِلى ما يعمل الكافر من عمل فيجعله هبًّا منثورا .

ولم يُمْهَد لعمارة هذه المدائن المذكورة ، لما عرض لعمارة ما فتح الله في صدر الحركة المنصورة ؛ فإِنّ تلك وبلاد الاسلام كانَتْ مُتَرائية النارَين ، مُدانية الدارَين ، يتعارَف بينهما أَهلُ الملّتَيْن ،بالاسم والعَيْن ، فقصد بعمارتها طيُّ بساط الكافرين ونشرُ خطّة المؤمنين ومشيُ الناس في مناكب الارض وأَطرافها آمنين وادعين ؛ ولم يُلْحَحْ في بلاد الرُّوم إِلّا طلباً للكافر عَيْنه ، فيستوفي منه سيْفُ الله بقيّة دَيْنه ؛ ولو كره المفَرّ ، وجرّه رسنُ الاغترار كما جَرّ ، لورد من أَمر الله بحول الله ما أَحاط به عِلْما ، وانطبع في نفسه الخبيثة المردودة نقشاً ورقما ، ولكن تذكّر فتوارى في قَشْتالّة بالجبال ، ولفّ فيها رأْسه حياءً من الكفر والضلال ، وخلّى البلاد والسيفُ يحكم فيها كيف شاء ، ويبدع الاعدام والتدمير لا الايجاب ولا الانشاء ، وجهده العضُّ على يدَيه وكذلك يفعل الظالم ، ويروم

الاعتصام وكيف يعصم وليُّ الشيطان والله هو العاصم ؛ فكلُّ ما عرض لحزب الله في طريقه، ألحق بحزب الشيطان الذي أهلكه الله بالامس وفريقه.

فلمّا صارت البلاد كأن لم تغنَ، والمعاقل كأن لم تُبنَ، وعلم أنَّ مَنْ حِيلَ بينهم وبين المواطن والاموال والاقوات، أحياءٌ ولكن في عداد الاموات، صوَّبنا على طُلَيطُلة قاعدة الصُّفر، وأمّ بلاد الكُفر، وجئناها من جهات أبواب قشتالَّة وهي الجهات التي كانوا يأمنون من أفقها، ولا يسدُّون باباً يفضي إلى طريقها ؛ فأخذهم العذاب وهم لا يشعرون، وعرفوا التخاذُل من حيث كانوا يبصرون، واستقبلتهم العِبَر أفواجاً أفواجا، وجاءتهم النذر تأويباً وإدلاجا، إلى أن نزلنا بظاهرها الشماليّ ولمَّ بجيوش الاسلام لم تُوقعْ بصراً على حدودها، ولا جُرِّتْ صَنْدةٌ في صعيدها ؛ فردَّ ما كان يَليها منه نَفنَفا، وقاعاً صَفصَفا، بين هَدْمٍ يستأصل الشأفة، وحريق يلتهم الجهلة، وقطْع ينحت الاثلة، ويحصد الشوكة. ثمَّ تظاهَرَ الموحّدون ثاني يوم فيما أعطاهم الله تعالى من قوَّة المدد والمديد، وفاضوا على أعطافها في بحور الخيل وأمواج الحديد، كلُّ قبيلة في شعارها الموسوم، وعلى مدرجها المرسوم، كأنَّهم من البحر لجٌّ موجُه متراكب، وأسحابُ خريفٍ زعزعَتْه الجنائب، ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين، وللكفر وأهله الخسران المبين، والعذاب المهين ؛ فبرَّزوا عليها تبريزاً ثوَّب إن شاء الله لبقعتها بالرضوان، وقرّب الاوان، والانتصاف من الكفر الذي نجّسها بين أخواتها، وعطّلها من الايمان، الذي هو

حِلَى أَترابها وَلِداتها ، ونادى في المشركين بتقويض الرحال ، ورمي الاقصى فالاقصى من أَسياف البحار وجزائر الشمال ، وأَفصح لهم ذلك اليومَ بأَنَّ لله طالب مدركها وهو الحقُّ الذي قامت به السماوات والارضون ، والمنهاج المبين والدين القيّم الذي هُمْ عنه معروضون .

ثمَّ أَجَزْنا وادي تاجُو إلى جنابها الاسلاميّ ، وهو منشأُ دَوْحها المائس الاعطاف ، وحدائِقها الغُلْب ذات الالفاف ، وجنّاتها المعرَّشات وغير المعرَّشات ، وفوائدها التي هي عندهم من كمال الدين وقوام الحياة ؛ وفيه المُنْيَة التي كانت جنّة الكافر ومأْواه ، وحظّه من أَولاه وأَخراه ، فكرَّ على الجميع المؤمنون كرَّة ، فكان انجعافُه بإِذن الله مَرَّة ؛ فلم يكن بين رويتها في حُلَى الحسن والابتهاج ، وتضاؤُلها في شُعُر مسودَّة كالليل الداج ، إلّا بقدر ما غيَّر الله نِعَمها بالبوس ، وبدَّلها من الامن والحفظ بالخوف والجوع وهو شرٌّ لبوس . وهذا القطر كان عندهم مركز اللواء ، وكرسيّ الاستواء ، والحرم الذي يُنفر طيرُه ، ولا يبيد خيرُه . فالحمد لله الذي أَبادَه ، ويسَّر جهادَه ؛ فلا بُلْغة حال ، ولا مَسْحة جمال ، ولا أَمل يتعلّق الكفر بذيله ، ونيام ولو غِراراً في ليله ؛ وأَعرض عن قتالها ، وقتال ما تعلَّق به الكَفَرةُ من بعض أَعمالها ، وإن كان ذلك بالاضافة إلى ما استغرقه الدمار ، وأَتى عليه البوار ، قليلَ الحساب ، ضعيفَ الجزء في الانتساب ، ترفيهاً للموحّدين وإجماما ، مع العلم بأَنَّ الله سبحانه قد أَعطاهم جرأَة على كلّ عظيمة في ذاته وإقداما ؛ ولو أُشير عليهم في قتالها بلحظة ،

أَو أُكْدِرَتْ لهم بلفظة . لما تعذَّرَتْ عليهم بحول الله أَقفالُها ، ولا غربَتْ عن أَيديهم أَنفالُها . ولكن أَراد الله أَن يجمع لهم في هذه الغزاة الكريمة بين الفتوح الجليلة ، والغنائم الجزيلة ، والجهاد المبرور ، والانقلاب بالعدد الموفور ، وتَرْكَ سيفَ السطوة في العدوّ يضرب يميناً وشمالا ، ويتراءى يقظةً وخيالا ، ويبثُّ سرايا الجوع ، والرعب المانع من الهجوع ، ويُخرج عنها الاضعف ، فللاضعف ، حتّى يرجع المَلِيءُ عديما ، والمخدوم خديما ، وهنالك توجد إن شاء الله بفتحة الابواب ، ميسرة الاسباب ، في غير سيف يُسَلّ ، ولا دَمٍ لمؤمن بفضل الله يُطَلّ .

وخلال هذه المحاولات الكريمة كان صاحبُ لِيُون ، وهو ابنُ عَمّ هذا الكافر المغرور ، قد استجار من أَمر الله بذِمّة ، وتوسَّل إِلى المُسالمَة بخدمة ، وأَلقى الله بَينهما حَرْبا ، استدْعَت منها طعناً وضَرْبا ؛ فشغل بالرغبات ، أَفواه المخاطبات ، عسى أَن يُبعث إِلى أَرضه بجيش من المسلمين يغزون عدوَّهم وعدوَّه من جنابه ، ويدخلون إِلى سرارة أَرضه من بابه ، وهو بابٌ ما أَقدم عهد المسلمين ببابتَيْه ، وبإِرسال الأَعنَّة في جنبتَيْه ؛ فسبحان المغرب ، لكلّ شأوٍ مغرب ، والمنعم على أَهل هذا الزمان ، بما كان إِلى الاستحالة قبل أَقرب منه إِلى الامكان ؛ فبعث إِلى أَرضه جيشٌ من المسلمين هالَتْهُ شجاعتُهم ، وبهتَتْهُ إِنابتُهم لله وطاعتُهم ، وأَلهَتْهُ عن كلّ شيء قدرتُهم بالله على العدوّ واستطاعتهم ؛ فحكموا على بلاد الكافر بحكم الكلمة العُلْيا ، ونالوا فيها ما شاؤُوا من دين ودُنيا ، وتنوَّعَتْ في عدوْ

الله الرزايا ، وأخذَتْ عليه المكارمُ الانقاب والثنايا ، وصار لا يستطيع دفعا ، ولا يملك لمن اتّبعه ضرًّا ولا نفعا ؛ ولو يعلم الكافرون أنّ الكرّة عليهم تجوس الخِلال ، وتُهلك الحَيّ الحِلال ، وتمحق الكفرة مَحْقَ الوبأ ، وتذرو ما جُمع وما غُرس بين مهبّ الدَّبُور ومهبّ الصبا . لاعتاضوا من الاقليم الخامس والسادس بمنقطع التُّرْب ، ولم يقنعوا من السابع إلّا بمُسامَتة القُطْب .

ولمّا كُتب العمل الصالح ، وحصل المتجر الرابح ، واشتمل الغزو على فتوح كثيرة ، وأيّام على الكافرين عسيرة ، وتُركت البلاد عُرْضةً لاوّل طليعةٍ إن شاء الله تُطِلّ ، ورايةٍ بحول الله تُظِلّ ، فريسةً بين يدَيْ سيف الخوف والجوع ، والامل المقطوع ، وهو سيف الله الذي يدرك ما طلب ، ويجهز كلّما ضرب ، أخذ الموحّدون في القفول على ميعاد ، من أعمال مستغيثة بكلمة الاسلام وبلاد . ويا لَهُ من قفول ما أعزّ أنَاءه ، وأصدق أنباءه ، وأكرم حلّه ورحيلَه ، ومُعَرَّسَه ومقيلَه . وعرض في صدر الاياب مَعْقِلُ دار الغارة[1] على مرحلة من طُلَيْطُلة ، وكان بابُها الذي لا يُنام إلّا على سدّه ، وظِلُّها الذي لا يُسكن إلّا في مطارح مدّه ، والقلعةُ المسمّاة بِطَرَبونة ، وكانت ركاب الكفّار إلى الضَّرَر ، وموقد نارهم المتطايرة الشَّرَر ، وفيها جملةٌ كبيرةٌ من مُحاربة الكافرين ، وشجعانهم الافريرين ، بقيّة سيف الله المسلول ، ونسالة جيش الصليب المفلول ، وكلُّهم قد عقدوا

(١) اسم هذا الحصن تحت الشك لكونه غير مضبوط في الاصل المنقول عنه .

على الموت حُباهم ، ووثقوا حيث لا ثقَة بقلوبهم وأَسنَّتهم وظُباهم . فلمَّا سلقَتْهم أَلسنة القتال ، وكشف لهم الغطاء عن خيال الضَلال ، رضوا من الانتصار بالاسار ، ومن فائت الربح بحاصل الخسار ؛ فنزلوا مسرِعين ، ولبوا داعي الرِّقِّ مهطعين ، وحُشروا في زُمْرة أَهل دينهم السابقين إلى القيد ، المستضعفين ما جاؤُوا به قبلهم من الكيد . وعُمَّ المَعْقِلانِ برجال من المؤمنين يقيمون فرض الجهاد ، ويهجرون فيه النوم للسُّهاد ، ويرون الوقوف كلَّ حِين على طُلَيْطُلة وظيفةً دينيَّة ، وعزَّةً دنياويَّة . وطال ما كانت مَجْراً على النوائب ، سَلًّا على الجيوش الكثيفة والكتائب ؛ وها هي اليومَ ـ وخيلُ الله تسرح في شعابها آمنة ، ورماحُ المجاهدين تندقُّ في أَبوابها طاعنة ـ أَسيرةُ الركب ، وقعيدة الخطب ، ضعيفة الحَيل ، ونفيٌّ من أَرجُل الخَيل ، ليس على جادَّتها إلى بحر المجاز صليبٌ يُنصب ، ولا ناقوسٌ يُضرب ، لا إهلال لغير الله ، ولا نداءَ إلَّا بذكر الله حتَّى ينجز الله وعده في سنامها ، ويفيض نور الملَّة المحمَّديَّة على ظلامها ، بحوله وقوَّته .

فاشكروا الله على نصره الذي يفرح به المؤْمنون ، وروحه الذي ييأس منه القوم الكافرون ، واعلموا أَنَّ الله لم يَرْضَ لقوم بالكفر إلَّا ليجعلهم أَحاديث ويمزّقهم كلَّ ممزّق ويفتح عليهم باباً ذا عذاب شديد ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربّهم إلَّا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرُهم إلَّا خسارا ، ويستقرُّ في نفوسكم أَنَّ الاقلام لا تفي بالايضاح ، ولا تستقلُّ بالافصاح ، ولو ركبَتْ من الاحسان كلَّ سَنَن ، وجاءَت من البلاغة

بطريقة أَهل كلّ زَمَن ، فصنْعُ اللهُ أَكبر ، وآتيه أَشهر ، وفَعْلُه سبحانه أَيسر خَبَرا . وأَبقى على مِيسَم الايَّام أَثَرا . وقد حضر هذه الغزاة الكريمة رجالٌ من أَعيانكم ممَّن حرَّكه السعد ، ولم يقعد به البعد ؛ فلْتُؤْخَذ منهم الاخبار على نسقها ، والاحاديث من طرقها ، زيادةً في البيان ، واستنامةً إلى مشافهة أَهل العيان . اللّهمَّ اوزع شكرك هذه الامَّة على الزمان ، الذي استدار بالفتوح المتناسقة تناسُق الجمان ، والرعب الذي ينوب في أَعدائهم منابَ الخميس الارجوان ، ضارباً بغير سيف طاعناً بغير سنان ؛ إنَّك على كلّ شيء قدير ، وإنَّك نعم المولى ونعم النصير . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

كُتب في التاسع من شهر رمضان المعظَّم سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة .

الرسالة السادسة والثلاثون

وهي أَيضاً من إنشاء الكاتب أَبي عبد الله محمَّد بن عبد العزيز ابن عيَّاش المذكور :

الحمدُ لله فاتح الاغلاق ، ومانح الاعلاق ، مُمِدّ هذه الدعوة الاماميَّة من السبع الطباق ، وناصرها في البحار المرتجَّة الغوارب النازحة الآفاق ، الواحد الذي فطر هذه العصابة على التظافر في إعزاز دينه والاتّفاق ، وأَغناهم في كلّ مَوْطِن ومأْزق طعن وضرب عن السمر العوالي والبيض الرقاق ؛ والصلاة على سيّدنا محمَّد نبيّه ورسوله الناشيء في أَشرف المناسب وأَكرم الاعراق ،

المنبعث لتغيير السنّة الجاهليّة ولتتميم مكارم الاخلاق ، المصطفى على حين فترة من الرسالة ، وعموم من الجهالة والضلالة ، بالآيات الساطعة الوضوح النيّرة الاشراق ، الداعي إلى الله بالمواعظ المستولية على القلوب والسيوف المستعلية على الاعناق ؛ وصلّى الله عليه وعلى آله ما أَرسلَت السماء بالوابل الغَيْداق ، ووجبت الغوادي الغرُّ بالارعاد والابراق ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، الآتي زمانه والدين إليه بالاشواق ، المعتزّ مكانه بالاجتماع النبويّ والاصفاق ، متلافي الشريعة النبويّة من فَهْوة الابتداع والاختلاق ، ومُنقذها من أَيدي الرؤساء الجهال وهي تُأَخّر الارفاق ؛ وعن الخُلَفاء الراشدين المرشدين المحافظين على العهد الاماميّ والميثاق ، المستنزلين من أَسِرّة الطغيان ، وصُروح الظلم والعدوان ، أَهلَ التيجان والاطواق ، الظاهرين في كلّ محاولة يُصادمها وجهُ الباق ، الغالبين في كلّ حرب مُلتفّة الساق بالساق ؛ رضي الله عنهم أَجمعين ما جرب خير فضائلهم في السياق ، وأَشرقت الارض بنورهم إشراق العارض البرّاق .

وهذا كتابُنا إليكم ـ أَسمعكم الله من البشائر أَبعدها مطارح ، وأَبرعها سوارح ، وأَيمنها خواطر وسوانح ، وأَرواها قلوباً ظامِئَة وجوارح ـ من حضرة مرّاكش ـ حرسها الله ـ والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكّل عليه ، والعلم بأَنّ هذا الامر حجّةُ الله التي أَفصَحتْ مَقاولُها ، وأَظهرَتْ على كلّ من في قلبه زيغٌ قبائلُها المنصورة وقنابلُها ؛ أَطلع الله شمسه والدينُ غريب ، وأَفاض نوره والحقُّ

ليس له داعٍ ولا مُجيب ؛ فكوَّر شمس المحادّين ، وأَظلم ديجور المضادّين ، بتبليغ أَمر الله الذي اكتنفه البشيرُ النذير ، وصدع به الهدى والكتابُ المنير ، وتبيّنه كلٌّ من عقد الشيطانَ على قافية رأْسه ولم ينظر لنفسه ، بإِعمال فكره وحدسه ، معتزًّا على من اختصّه الله بالافاقة والعباد ، وأَمدّه بالجيوش للذكر النافعة والسيوف الحداد . ونصب له من القرآن علماً هاديا ، وجعل له من خوف المقام والوعيد سابقاً وخاديا ، ليمتاز فريق الجنّة من فريق السعير ، وليتعيَّن البصر الحديد من البصر الحسير ؛ فمن يتلَقَّ راية النجاة باليمين ، ولم يَرَ نفسه أَهلًا لأَن يكون مع الحقّ المبين ، فقد تعرَّض للعذاب الشديد والنكال العتيد ، وما ربُّك بظلّام للعبيد ، كما انَّ من نضا عنه أَثواب الجهالة ، وأَسلم من إشراك الغواية والضلالة ، فقد سبق له السعد في أمّ الكتاب ، وصار بمفازة من العذاب ، وعلى شرف من كرم المآب .

وإلى هذا ــ وفّقكم الله ، وأَوزعكم شكر نعماه ــ فقد علمتُمْ أَنَّ الله استأْصل شرّ الانام ، ورُعاء الابل الصُمّ البُكم أَهلَ اللّئام ، وطهّر منهم المَغرِبَيْن تطهيرا ، وكفَّر سَيّئات الارض التي أَقلَّتهم ، والسماء التي أَظلّتهم ، بحسنات هذه الدعوة الاماميّة تكفيرا ؛ ولم يُبْقِ منهم إلّا من كان بجزيرة مَيُورقة لجؤوا إلَيْها ، وتعلّقوا بيَابِسة ومَنُورْقة جناحَيْها ؛ فكانت في بساط المغرب نُكتَاً سودا ، وكان أَهلُها على ما انتشر في الدين من لطائف الحَسَنِيّين شهودا ، وما زال الخلفاء الراشدون يدعونهم بالذكر

الذي هم له غافلون ، وهُم ينهون عنه ويَنأَوْن عنه وإنْ يُهلكون إلّا أنفُسَهم وما يشعرون ، تقذف إليهم في كلّ حين دُرَرَ المواعظ أَمواجُ البحار ، وتطلع الآيات البيّنات عليهم طلوع النهار ، وهم لا يزدادون إلّا مريةً متقاذفة ، وعمايةً متكاثفة ، وضلالاً مازجا ، وعملًا عن الحكمة الربّانيّة والسنّة النبويّة خارجا ؛ وكلّما وعظَتْهم الايّام ، وخطبَتْهم السيوف والاقلام ، وظهرَتْ لهم الآيات في الآفاق وفي الانفُس ، واستمعَتْهم النذر من حصيد فروعهم الزاوية وأَطلالهم الدرُس ، أَتوا من العداوة بأَجمحها عنانا ، وأَصرمها حديثاً وعيانا ، وأَخزاها لهم سيفاً ناصلًا وسنانا .

ثمّ قصّ الله بيابِسة ومَنُورقة جناحَيْهم ، وقضى بأَخذها من الدائرة السَّوْء ما قضى به علَيْهم ، وظُنّ بأَن ستَكون لهم وعظاً ييسّرهم لليسرا ، ويليّن قلوبهم للذكرا ؛ فما أَفادهم الوعظُ إلّا عتوّا ، وما زادهم وهُمْ في الحضيض إلّا علوّا . ثمّ إنّهم قرعوا في وقتٍ بابَ الامان ، وجعلوا الاعتراف لهدمات سَيّئاتهم وسيلةً إلى الاحسان ؛ فبذّل الله لهم ما أَمّلوه ، وفتح لهم الباب الذي قرعوه ، وامتطوا من الابقاء صَهْوةً لا تنالها صروفُ الزمان ، ولا تخبُّ نحوها عواصفُ الحدثان ، والاقدارُ في ذلك تسوقهم إلى حَيْنهم ، وأَحكام الله بالمرصاد لزورهم ومَيْنهم ؛ فلم يمُرَّ إلّا قليل وقد بعثوا مَيُورقةَ بقيّةَ الخداع ، ونازلوها بأَشدّ الحصار والمصاع ، مُتقنّعين على غير حَياء ، جاهلين بأَنّ لله عادة في شفاء أَمره من كلّ داء عَياء ، غير عارفين بأَنّ العهد ما كفر به قومٌ إلّا جبّ الله عاديتهم وسلّط

عليهم طالبهم ، وحكم فيهم بالعذاب الهُون ، ورماهم بسهام الخطوب الجُون ؛ فلم يتنفّقوا منها جُؤادا ، ولا شربوا ماءها إلّا ثمادا ، وعادَتْ إلى الموحّدين على ما علمتُمْ كأَن لم تنلْها مضرّة ، ولا وطأَتْها من وطأَة الفجار معرّة .

وعند ذلك تلمّظَتْ إليهم حفائظُ الموحّدين تلمّظ المرود ، وركبتْ هِمَمُهم العالية ركوبَ هام في السروج قعود ، وعلموا أَنّ هذا الزمان هو المؤذن بحربهم ، وأَنّ حجّة الشرذمة البائسة داحضةٌ عند ربّهم . فجهّزْنا إليهم في أَثناء حركتها التي عرّفنا الله فيها عجائبَ من السعود ، وأَفانين من الامل المنقود والموعود ، جَيْشَيْ بَرٍّ وبَحْر ، وجَمْعَيْ معونةٍ من الله ونَفْر ، وأَمَرْناهم بالعزم الذي لا تُرجى دون الظفر غواضبُه ، ولا تكلّ دون الضلوع والهام قناهُ وقواضبُه ، وأَتبعْناهم من الدعاء ما تقتضيه النيّةُ للمؤمنين ، والطويّةُ في إعلاء الموحّدين ؛ فسار الجيشان في سَمْت ، وتكفّل الله بإقامة كلّ صعب من المستصعبات وأَمْت ، وركبوا إلى جند الشيطان ، بحراً سَلِسَ القياد والعِنان ، وجواري تسبق في الموج سبْقَ الجياد يوْمَ الرِّهان ، من الصاقبات ، إلّا أَنّ الرياح قوادمُها ، ومن الطير إلّا أَنّ السراع خوافيها الخافقةُ ومقادمُها ، قد جالَتْ بين السماء ، وبين بسيط الماء ، وأَقلّتْ من وجوه الجيوش رجالاً كالنجوم ، مُرْسَلين على السور الذميم ، وشيطانه الرجيم ، إلى أَن نزلوا بساحل مَيُورقة ، وأَعلامُ النصر خافقة ، وقلوبُ الموحّدين على التظافر متوافقة ، وشعارُ العدوّ المعرّة والهُون ، والهلاك الذي سبقَتْ به الكاف والنُّون ، ولسان الحال يتلو ما

يوقن به الموقنون ؛ فقد كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم فسَوْفَ يأْتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤُن . فلم يكن بين الحلول بالجزيرة والظفر بجهاتها الاربع ، والاستيلاء على شيطانها الرجيم ومَعْقِلها الامنع ، إلّا سبع ليالٍ ، سخر الله فيها على الاعداء سبع ليالٍ حسوما ، ثمّ هجم الموحّدون عليهم في عقر دارهم هجوما ؛ وكانت بين الفريقَيْن حرب ، ظنّ فيه الاشقياء أنّ الزمان كما عهدوه طعنٌ وضرب ، ولم يعلموا أنّ أمر الله في مزيد ، وأنّ سعده من جديد إلى جديد ، وأن ستأْتي الايّام بما لا يبقى معه من الباطل باق ، ولا يقوم به الضلال والمحال على ساق .

ثمّ أجلي ذلك الموطن عن قتل الشقيّ وأتباعه ، ومحو الباطل المموّه وأشياعه ، وحصول أسْرَته في قبضة الموحّدين ، ومغالبة أهل الجزيرة مآل الضالّين المُلحدين ؛ ورفعَتْ أعلامُ التوحيد في أعالي جدراته ، التي لم يكن لها عهدٌ بعزّ تلكم الاعمال ولا استظهار في قديم وحديث بالحرب المشمّر في خدمة الايمان والاسلام ؛ وأُقيمت الخطبة على منبر كان أشعث أغبر ، ثمّ عاد بالقول الصادق والاعتقاد الحقّ أزهر أنضر ، وعرفت الرعايا بأنّ الله أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأعتقهم من الجور والخوف إلى يوم النفخ في الصور . وإنّهم اليومَ في رُبابْ الرأْفة يرتعون ، وشرائع العدل والاحسان يكرعون ؛ وقد طهّر الله صقعهم من الارجاس ، وكفاهم حَيْف كلّ يد عادية وقلب قاس . وعُجل إلى حضرة الموحّدين برأس الشقيّ الداحض الحجاج ، وأعلامه المركوزة الاسنّة مواضع الزجاج ؛ فرأى

الناس من أَمرٍ انجلَتْ به السنون ، وتمنّتْهُ قديماً القلوب والعيون ، وأُعملَتْ فيه للخُلفاء ضروبٌ من التدبير ، وكلُّ شيء بمقدار عند اللطيف الخبير ؛ والله سبحانه قد قضى بأَن يكون وارث سعودهم ، والفائز بإنجاز وعودهم ، والمتقاضي ديون آمالهم ، واللاحق ما عجّل دونه ركاب ارتحالهم ، والمشرق بهذا الصنع الذي هو فوق أَمل الآملين ؛ فللّه الحمدُ ربِّ السموات والارض ربِّ العالمين .

فابشروا بهذا الفتح العظيم وتوابعه ، ولواحقه الجسيمة وجوامعه ؛ واعلموا أَنَّ هؤلاء الاشرار كانوا يجادلونكم القبلة وهم عنها مدبرون ، ويدعون معكم أَيماناً بكتب الله وهم عنها معرضون ، أُولئك شرٌّ مكاناً وأَضلُّ عن سواء السبيل ، أُولئك الذين راموا الشحنة العظمى بالتحريف والتبديل . ثمَّ إنَّ الفتح فيهم فتحٌ في النصرانيّة ، وظهورٌ على ممالكها الساحليّة ؛ ولأَخْذُ مَيُورقة على صاحب أَرَغُون وبَرْشلونة أَشدُّ من رشق النبل وأَهول من وقع السيف وأَوحش من القطع بحلول الممات ؛ فإنّها تحوجه إمّا إلى الصغار ، وإمّا إلى الخسار ، وتلجيئه إلى أَخذ الخطّتَين قسراً وقهراً بالرغم والاضطرار . وأَمّا شقيُّهم الذي هو بالاطراف الافريقيّة فقد نُصب له غُراب البَيْن ، وجاءته القاضية مجيء السيل بالليل ، ووتَرَتْه الفاقرة في أَهله الاعزّين علَيه ، وجزيرته التي كانت متى حربه حاربٌ نصْبَ عينَيه ؛ فأَخلق بشياطينه الجماع ، وأَعرابه الاوزاع ، أَن

يلفظوه لفظ النواة ويعدوه من سقط المتاع ، وما بقاء الابعد الأُصول ، وما اغتباط أَشياع بالاخسرين والرسوم الدارسة والطلول .

وخاطَبْناكم بهذه النعمى ، والمسرّة العظمى ، والبشائر الكبيرة الحسنى ، لتزدادوا علماً أَنَّ الله على كلّ شيء قدير ، وأَنَّه بعباده خبير بصير ، وأَنَّه سبحانه يُملي للظالم فإِذا أَخذه لم يفلته ، وأَنَّه - جلَّ جلالُه - تكفَّل بهذا الامر العزيز بنصر الراية ، وظهور الآية ، وتيسير العسير ، ونيل الكبير من الفتوح بالكبير . ونحن ندعوه بما يدعوه به المخلصون ، ونحمده بما يحمده به الشاكرون العارفون . اللّهمَّ إِنَّك قد قلّدْتَنا أَكبر قلادة ، وعوَّدْتَنا من نصرك ومعرفتك أَفضل عادة ، وأَسرجْتَ لنا في كلّ مشكلةٍ سراجاً وهّاجا ، وأَوضحْتَ لنا في كلّ معضلةٍ طريقاً لاحْباً ومنهاجا ؛ فاجعلْنا من الشاكرين في أَوّل رعيل ، وخُذْ بنا في دينك ودنياك على أَوضح سبيل ، وأَمدَّنا بموادّ نصرك التي لا تنقطع ، وآتِنا من العمل ما يَتقبَّل به الدعاء ويرتفع ، بمنّك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

الرسالة السابعة والثلاثون

وهي أَيضاً من إِنشاء الكاتب أَبي عبد الله محمَّد بن عبد العزيز ابن عيَّاش المذكور :

الحمدُ لله مُحقِّ الحقّ بكلماته ، ومُبطل الباطل برغم دُعاته ، وناصر هذا الحزب في حركاته وسكناته ، ومُظهره في كلّ مآمٍّ يؤمُّه ، وشعثٍ يلمُّه ،

على عُداته ، ومُنجده على كلّ منويّ ، قريب أَو قصيّ ، بصادق عِداته ، الواحدّ الذي قرن النصر المؤزّر ، والفتح الميسّر ، بعزماته ، وعرّفه في كلّ شأن يرأبه ، ومذهب يذهبه ، نزلات اللطف الالاهيّ وسكناته ، وأَيأس طوائف المُلحدين ، وجماهير المُفسدين ، من قرع صفاته ، وغمز قناته ، وجعل الليل والنهار ، والشمس والاقمار ، من بعض عتاده وأَداته ؛ والصلاة التامّة والبركة العامّة ، على سيّدنا محمّد نبيه المؤيّد بسواطع آياته ، وقواطع مُعجزاته ، ورسوله المظهر على الدين كلّه والناسُ بين أَزمة الضلال وحداته ، المُبتَعث بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ، بالبرهان ، العائد بالخسران ، على نُفاته ، والمُرسل إلى الاحمر والاسود ، والادنى والابعد ، من حُضَّر المعمور وبُداته ، صلّى الله عليه وسلّم ما أَرتل ركبٌ بفلاته ، واستقبل البيت العتيق من جميع جهاته ؛ والرضا عن الامام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، بخصائصه الكريمة وصفاته ، متلافي الشرع ، من تلاف الاصل والفرع ، والموتُ مصرصر فوق شواته ، المبشر به الاثر المتداول ، والخبر المتناقل ، على أَلسِنة رواته ، العائد وجه الايمان ، بصدعه في ذات الرحمان ، إلى أَحسن قسماته ، وآنق صفحاته ؛ وعلى الخلفاء الراشدين المرشدين ، والائمّة الهادين المهتدين ، ولاة أَمره النبويّ وهُداته ، ومُظهريه على كلّ جبّار عنيد وشيطان وحُماته ، والمقتدين به – رضي الله عنهم – من علمه وعمله وشدّاته وأَناته ، الموصولة أَيّامُهم ، المنصورة أَعلامُهم ، ببراهين الحقّ الواضح ودلالاته .

وهذا كتابُنا إليكم - أسمعكم الله من البشائر أقومها قيلا ، وأعظمها تقسيماً وتفصيلا ، وعرَّفكم من الفتوح أصدقها تأميلاً ، وأعرقها تأسيساً وتأصيلا ، وأطلع عليكم من نفائس الانباء ، وحبائس الآلاء ، أدلَّها دليلا ، وأقلَّها في السالف تشبيهاً وتمثيلا - من مَنْزِل الموحّدين - أعزّهم الله - بظاهر المهديّة - فتحها الله - والذي نوصّيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكُّل عليه ، وأن تعلموا أنّ دعوة الامام المهديّ - رضي الله عنه - منارٌ لا يضلُّ عليه بصرٌ سليم ، وشمارٌ لا يغبُّه فتحٌ مبين وصنعٌ كريم ، ونهارٌ كلا طرفَيْه إلى يوم القيامة وضّاحٌ وسيم ، بها جدَّد الله تعالى رَيْعان الحقّ وهو هَشيم ، وأنشر مَيْت الشرع وهو رَميم ، وأحياه كما أنشأه أوّل مرّة وهو بكلّ خلق عَليم ؛ فمن هُدي إلى طريقها ، وأسند إلى ذروة نيقها ، ولم يزل لدينه ودنياه فريقاً غير فريقها ، وقد عرف عدوّ الحقّ من صديقها ، وأشرف عقلًا وسمعاً على أخيذها من طليقها ، وكان لها مُناصبا ، ولحقّ من حقوقها عاصبا ، فقد استحقّ بالغدر السابق ، والوعد الصادق ، عذاباً واصبا ، واستنزل من سماء الكفاح ، وسحاب الاسنّة والصفاح ، سافياً وحاصبا . ومن الله النصرُ الذي لا تُطوى بنودُه ، ولا تُزوى عن قصد السبيل جنودُه ، ولا تُنوى بسرِّ كيد ، ولا بجهرِ أَيْد ، صعادُه وسعودُه ؛ وبه المعاذُ من عاقبة قوم قد ضلُّوا عن السواء ، وحملوا على العناد لامر الله والنواء ، وراموا الرقي بغير درَج ، ولا منهَج ، إلى السماء ؛ فكانوا جَزَر العَوّاء ، في البَيْداء والهَوَاء ، وخَبَر

اللسان المَشْرَفيّ والصَعْدة السمراء . والحمدُ لله قالبةً بعد ماضية ولاحقةً بعد سالفة على التوحيد الذي نصر أنصاره ، وأظهر على سائر العصور أَعصاره ، وطهّر من كلّ بهتان وعدوان مَنابره وأمصاره ، والتجسيم الذي أطفأ بحوله وقوّته ناره ، وأذهب بحكمته ونعمته عينه وآثاره ، وأنفذ فيه بعدله وفضله وعيدَه وإنذاره ؛ لا إله إلّا هو بيده الخير ، وهو على كلّ شيء قدير .

وإلى هذا أوزعكم الله شكر نعماه فإنّ خير الفتوح ما وفّى الآمال وأنصفَها ، وأعجز قدرة الفراعِنة وسادة البراهِمة أن يصِفَها ، وأراح صدور المَشْرَفيّة ، ومتون السَّمْهَريّة ، وقد شحذها العزمُ وأرْهَفَها ، وقضى مقصود هذه الطائفة وقد لواها اعتراض المَنون ، بما في ذمّة السعد من الديون ، وسوّفَها ، وأشرف الصنع الممنوح بما نحت اقلة الاشقياء نحتاً مستأصلا ، وحكّم فيهم ضروب الرزايا ، وأنواع المنايا ، فأبادَتْهم جبَاناً هِداناً وذمِراً باسِلا ، وبذّر هلالَ أيّامهم عن الابدار ، وقد كانوا يرونه بعمى البصائر والابصار ، بدراً كامِلا ، وطهّر منهم البلاد ، وكفى شرَّهم العباد ، فلا يرى الناسُ لهم قائلًا ولا فائلا .

وقد كُنّا قدّمنا الخطاب إليكم ، وأورَدْنا فيه من المسارّ ما أورَدْناه عليكم ، وأعلَمْناكم على التفصيل بما لقي الموحّدون في سفرهم من التيسير والتسهيل ، واسترجاع تونس والجَريد لاوّل إطلالهم الذي ارتجّ له ما وراء دِجْلة والنيل . وبثبات العساكر المنصورة لسُلَيم بن مَنصور وهِلال بن

غامِر في كلّ منزل وسبيل ، وبالاتّفاق ، وانعقاد الاصفاق ، على اتّباع الشقيّ حيث طرح به خاطرُ الهرب ، وترامَتْ به وبأَشياعه ذواتُ التضبُّر والخَبَب ، وهَوَتْ به الاجزاعُ التي يقطعها ، ويفاعُ الارض التي يفرعها ، من ثنيّة موطوؤَة أَو حَدَب ؛ وبلغ به الفرار من دَوّ وفُساح . وجَوّ تصافح الشمس براح ، وأَين الفرار وخيلُ الله في الطَّلَب . وكان حينئذٍ على باب القَيْرَوان وقد بقي معه من العجب ذباب ، ووشح بينه وبين الدعوى انتساب ، وحلَّ عليه صدىً من خيالاته المُضْمحلَّة وسراب ، وظنّ أَنّ له في تونس مَنْقَعاً لا يعدل عنه في ذلك الوقت ركاب ؛ وهيهات هيهات من علم ما يطلب لم يُطفْ به سورٌ ولا باب ، ولا هالَهُ أُجاج طَنْوق ولا قفر يَبَاب . فلمّا سمع بأَنّ العساكر قد طُوِيَتْ عليه كواسرُها ، وعُمِلَتْ على قصده ميامنُها المنصورة ومياسرُها ، وتساوى في الصمد إليه والإقدام عليه دارِعُها الكميُّ وحاسِرُها ، وتسابقَتْ إلى تكذيب مُحاله ، والبطش بمِحاله ، كتائبُها الخضر ومناسِرُها ، وَدَعَ إفريقية بغير سلام ، ومضى يستذمُّ ببلاد الجَريد مَنْ له منها أَو من غيرها بذمام ، وقال بأَنّ الجيوش لا تقتحم عليه الصحراء في هاجرة واحتدام ، واستقرّ بقَفْصة على طمأنينة بزعمه من هيبة الحسام ، ووطأَة الجيش اللهام ، وأَنى يلقى العصا ويستقربه النوى وسيفُ الامام المهديّ ـ رضي الله عنه ـ في أَعقاب أَهل اللثام ؛ فلم يرعه إلّا عطف الموحّدين أَعنّتهم على أَثره ، يسأَلون في كلّ حال وترحال عن مورده الوبيل ومصدره ، وتخفق أَلويتُهم المظفَّرة وتُمرع

خيولُهم المضمَّرة بين ضالّ القفر وسَمَره ، وتُظلُّهم السماءُ بظلّ سحابها وتسقيهم العينُ الغدقة من شرب مطرها . فعند ذلكم التقَتْ عليه حلقتا البطان ، وضاقَتْ به ظهور الرِّعان ، وبطون الطعان ، وعلم أنّه ولا بُدّ مضطرٌّ إلى الخروج عن الاوطان .

وبقي له بعض أهل بقابس ليطرّفها في البيداء ، ولِمَا بين الموحّدين وبينها من عدم الزاد والماء ، وطول المفاقد التي يهابها راكب الفرس الوجناء ، باطن بالفَيْلق الجأْواء ؛ فبينما هو يسوم الرعيَّة بها خسفا ، وينسف معايشها وأقواتها نسفا ، ويستدرُّ مكاسبها القديمة والحديثة ضَرْعاً فضَرْعاً وخِلْفاً فخِلْفاً ، إذا اقتحَمْنا عليه صحراءه ـ يسّر الله ركوبها ، وسهّل لحزبه الغالب حِرارَها ولُوبها ، وملأ من ميامنها سِجال المجاهدين وغُروبها ، وأوجدهم فيها من يمنه وكرمه صنوفَ الخيرات وضروبها ؛ فيومئذٍ لم يرَ في التماسُك طمَعا ، ولا وجد لعثرته القاصمة لَعا ، وقال لنفسه الخبيثة لو أطاعَتْه :

أيُّها النَّفسُ أَجْمِلي جَزَعَا ❀ إنَّ الذي تَحْذَرِينَ قَدْ وقَعَا

وما جبال دمَّرها الله كما فعل عليه وعلى أشياعه ، يرثى لحاله البائسة ولا شاباته وجُمّاعه ، ويصرم الحبال الواهية التي كانت بينه وبين أطماعه ، ويضرب للناس الامثال الشاردة في لعب الزمان به وأبداعه .

وجئْنا نحنُ قَابِس وأَقمْنا بها مدّةً نُصلح من أحوال أهلها ما فسَد ، ونُنفق من آمال قومها ما كَسَد ، ونُردُّ على باديتها وحاضرتها من كان شرَّده الخوفُ والجورُ فشَرَد ؛ والبائسُ أثناءَ هذا بين دَمَّر ونُفوسة

بشرّ حال ، يضطرب بين حلّ وترحال . ويمنّي فرقته الضالّة من الصبر والتجلّد بمُحال ، وكانت المسافة التي بيننا وبينه إذ ذلكم شعّةَ المفارق ، قشّةَ المرافق ، نائيةَ بمجرّ العوالي ومجرى السوابق . فجهّزنا إليه عسكراً من الموحّدين والاغزاز والعرب ، وأعلمناهم بأنّه رذيّةٌ من الرذايا ليس من الجنّة والناس في حسب ، وطال ما كان يتعاطى لقاء الجمهور ، ويعماه عن النور ، ويقطع لنفسه بالغلب ؛ فلمّا سمع بدنوّهم من جنابه ، واقتحامهم عليه من بابه ، فرّ فرار الظليم ، وحثّ النجاء خوفاً ممّا لحقه من العذاب الاليم ، وكان قد أعدّ بمدينة إطرابلس مُهمّاته ، واتّخذها ملجأً من طواريء الاغترار وآفاته ، والله قد نزّهها لأن تكون عصرةً لسيّئاته ، وعصمةً لهَنَواته . فبَيْنا نحن في أثناء هذه الحال بظاهر قابس إذا بوجوه قومها يرفعهم التيّارُ المتدافع ، ويقدمهم الموجُ الخافض الدافع ، ويلوح للهدى على أسارير كبيرهم وصغيرهم نورٌ ساطع ، ويجمع بيننا وبينهم الاهطاع إلى الحقّ وهو سببٌ جامع ؛ فأعلموا أنّ الطاعة لم تفارقها سرائرُهم ، وأنّ النور الذي فاض على إفريقية لم تحرمه أبصارُهم ولا بصائرُهم ، وأنّهم وإن بَعُد مزارُهم ، وكادَتْ تكون من ديارَ مِصْرَ دارُهم ، فما زالَتْ تمتدُّ إلى هذا اليوم آمالُهم ونواظرُهم ؛ وعرّفوا بأنّ الشقيّ الذي كان عندهم مذموماً مدحورا ، وأنّهم لم يفارقوا مدينتهم حتّى جعلوا بينهم وبينه خندقاً وسورا ، وحتّى أقاموا على منبرهم دعوة الحقّ التي وعدها الله في المشرق والمغرب علوّا وظهورا ؛ فكرمَتْ وفادتُهم ، وبانَتْ لهم

سعادتُهم ، وأعرب عن حال غائبهم وشاهدهم غيبُهم وشهادتُهم ، وأمروا بطالب من الموحّدين وقطعةٍ من الأسطول ، وأحسن إليهم بإحسان أهل القِرَى المبذول ، إلى الوافد المقبول ، وبُشّروا عن النزوح ، والهوى الطروح ، بالتهمُّم الموصول .

ثمّ عَيَّنّا عسكراً يقيم بقابس حافظاً لجنابها ، ومؤتمناً لشعابها ، ومانعاً للعدوّ من تولّجُ بابها . وعند ذلكم أنشأنا العزيمة ثانيا ، وروّأنا الصمد إلى المَهديّة لا بتردّد أوّلاً وانيا ، وسألنا الله — عزّ وجلّ — في تطهير بقعتها ، وتذليل منعتها ، أملًا صادقاً دانيا . ثمّ استقبلناها بسير يقصر عنه متطاولُ الرعاق ، ويعلم ذواتُ القرن والركاب ملاعبةَ الزمام والعنان ، ويشرق البيضُ والسمر إلى هبر الضراب ونثر الطعان ، إلى أن جئناها ونورُ بياضها قد غشاه الظلمُ ظلاما ، وأحكام أهل التجسيم قد أثقلتْ كاهلُها ، وحملتْ معالمُها ومجاهلُها ، خطوباً جساما . فبَيْنا نحن نشتغل بمحاولتها ، وننظر في قوام منازلتها ، ونعمل على تطهيرها بحول الله من رجس مقابلتها ، إذا بالشقيّ قد طال عليه في الضرّاء الأمَد ، وخانه الصبرُ الذي كان يدعيه والجَلَد ، وأعياهُ البؤس المدفع الذي كان به والكَمَد ، وتوهّم أنّ بلاد الجَريد متلافيةٌ لرَمَقه ، وعرضةٌ لتلصُّصه وسَرَقه ، وأنّه سيَجِد فيها بعض جيران لمنهج أمله وخَلَقه ؛ فجاءها مجيء الخائق المترقّب بين صقب النشاز وصَلَقه ؛ فرَمَتهُ كلُّ مارّة بسِجّيل ، وقاتلَتْه قتالَ من يرى أنّه من

أَخْبَثِ طائفةٍ وشرِّ جيل ، وأَنَّ كلَّ شرٍّ جرَّته إليه الأيّام فهو سببُ الجرّ ورأسُ التأجيل .

وعند ذلكم استخَرْنا الله تعالى الذي هو وليُّ الاستخارة ومُسعدُها ، وموثق الآراء المدارة ومُسَدِّدُها ، ومُنفذ العزائم المغارة ومُنجدُها ، وعَيَّنَّا لغَزْوه الشيخَ الأَجلَّ الأكرم أَبا محمَّد بن الشيخ الموقر أَبي حَفْص - أَدام الله كرامته - في جيش من الموحّدين والاغزاز والاعراب ؛ فساروا إليه بسيوف معوَّدة الضراب ، وخيول مُلْس البطون لواحق الاقراب ، متوكّلين على من عوَّدهم النصرَ في الهيجاء ، واليسْرَ الاراء ، والصبر في متلقّى الجيلَيْن وقتل الاعداء ، موقنين بأَن لّا عدد ولا عدَّة إلّا ما ينزل من السماء ، معتمدين على الله تعالى لا على الابيض المَشْرَفيّ والصَّعْدة السمراء . فلمّا نذر بهم عدوُّ الله ، وهو بحَمَّة مَطْماطة ، ركب الجبالَ وفارق الزهو والاختيال ، وحذر الامام والوراء واليمين والشمال ، وظنَّ أَنَّ الموحّدين لا يقدرون على اتّباعه وما زال يظنُّ المُحال ويتّبع الخيال.

وبلغ الموحّدون - أَعزَّهم الله - قابس فجدَّدوا زادَهم ، واستأنفوا جدَّهم وجهادَهم ، واعتقدوا التفويض إلى الله تعالى سلاحهم الاوفى وعتادَهم ، وصاروا في أَثره برأي عازم ، ونظر حازم ، ثقةً بأَنَّ الله لا يسلم الصابرين ولا يُضيع أَجر العاملين ، وعلماً بأَنَّه - جلَّ جلالُه - لا يُصلح عمل المفسدين ، ولا يُهدي كيد الخائنين ؛ واستمرُّوا على ذلك أَيّاما ، يمرُّون على العمائر والشعوب كراما ، وتُهدي إليهم البشرى في كلّ فجّ

تحيّةً وسلاما. وكان للشقيّ طمعٌ في زُغْبة والشّريد حَيَّيْنِ من سُلَيم، فمرَّ بهم مرورَ منافٍ غير هادٍ ومستنصر بمحجوبٍ غير بصير، ومستنجز بغير وليّ على الحقيقة ولا نصير؛ فأَجابه كلُّ من دنا أَجَلُه، وأَورده المصرع الوبيل أَمَلُه، وكان عليه لا لَهُ سعيُه الضالُّ وعَمَلُه. فلمّا التقوا عليه في جيش كأَنّه لجٌّ موجُه متراكب، أَو سحابُ خريف زَخْزَحَتْهُ الجنائب، كرَّ راجعاً نحو الموحّدين، ولسانُ الحال تالية: أُولئك لهم عذابٌ أَليم وما لهم من ناصرين؛ فلمّا نُذّر به الموحّدون وهُم في مَنْزِل يسمَّى بمنزل أُمّ العافية، زحفوا إليه، وأَقدموا إقدام الأُسود الطاريئات عليه. فكانت بينهم مضاربة نفق فيها سوق القتال، وازدحمَتْ فيها الرجال على الرجال، والنصال على النصال؛ وفي كلّ ذلك لا يمسُّ الموحّدين قدْح، ولا يتخطّى صفقتهم ربْح، ولا يعدو ليلَ هيجانهم صبْح. ثمَّ إنَّ الله فتح لهم باب ظهورهم وعلوّهم، ومكّنهم أَتمَّ تمكين من أَكتاف عدوّهم، وآواهم بين مستجرّ القنى عاقبة رواحهم في ذاتَ الله وغدوّهم؛ واستحرَّ القتلُ في أَهل بيت الشقيّ ورجاله، ووجوه زعمائه الضالّين وأَبطاله، وجميع من كان حشد من قبائل سُلَيم وشرار هِلاله، حتّى كادت الرماح تغنى بذاتها عن المعاصم، والصفاح لا يبقى منها في الايدي سوى القوائم. والخيول لا تدرس غير الترائب والجماجم، وهذا يومٌ كان فيه للموحّدين موقفُ الابرار، وأَفعالُ الاحرار، وقتالُ المُهاجرين والانصار، وظهورُ أَهل الجنّة على أَهل النار، وصولةُ أَهل الاقبال على أَهل الادبار.

فلمّا رأى عدوُّ الله ما هاله فرَّ جريحاً في جريدة من الخَيْل ، وفاض الموحّدون على الكراع والسلاح والاهلين والبنين فَيْضَ السيل باللَّيْل ، ونالَتْ في ذلك أَيديهم ورماحُهم فوق ما عهده السالف والخالف من العطاء المحسب والنَّيْل ، واستنقذوا الطَّلَبة والموحّدين الذين كانوا في إسار الشقيّ بحكم السيف الذي لا يصول به إلّا عزيز ، وحجّته التي فصلها في كلّ موطن وجيز ، ومن أَفْلَتَ من الحمام ، وتخطَّاه في المعترك جناح الحسام ، اعتلق ببعض من الموحّدين بذمام ، حتّى لم يَنْجُ الشقيُّ ولات حين نجاة إلّا برأس طِمِرّه ولجام . فالحمد لله الذي أَوهن كَيْدَه ، وأَضعف محاله وأَيْدَه ، وجعل رأيه الدبير أُحبولتَه وقَيْدَه ، والحمدُ لله الذي أَطمعه في صيد ما لا يُصاد فكان فريستَه وصَيْدَه . وكم ضَلَّ ضلالاً بعيدا ، وأَضلّ كافراً غويًّا وحديدا ، وأَذاق الجموع الحافلة لشحط المزار ، وبعد الامصار ، حرباً ضروساً وبأساً وما كان الله ليَذَر بهتانه وطغيانه انه كان به كفوراً ولآياته عنيدا .

وهذه إفريقية قد خلَتْ من الوسواس ، ونَقيَتْ من الادناس ، وصفَتْ من شوائب الارجاس ، وطهرَتْ من الدعوة المنسوخة دعوة بني العَبَّاس ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ولم يَبْقَ إلّا هذه المدينة وما بقاء الفروع بعد انتهاك الأُصول ، وأَيُّ جَدىً بعد تكسير النصول ، وأَيُّ أَمر يبقى لمن فيها من الاشقياء ، وقد رأَوا أَعلامهم منكوسة تنذرهم بالداهية الدهياء ، وتُناجيهم ذوائبها بانقطاع الامل من صاحبهم والرجاء .

فانتظروا بشارتها قاطعة بحول الله عرض البيداء ، مطلعة عليكم بحمد الله تمام النعماء والسرّاء . وأمّا الأعراب فقد دنا قصيّها ، ودان عَصيّها ، وألقيتْ بهذا الجناب رجالها وعُصيُّها . وفي هذا التأريخ قدم أبو سِرْحان مَسْعود بن سُلْطان بن زِمام يرسف في قيد هَرَمه ، ويطلب لمن وراءه من بنيه وأهل بيته ما يقدمون عليه من قبول هذا الامر العظيم وذممه ، وهُم الذين كانوا قد أوحشَتْهم سوالف الجرائم والله واسعٌ بابُ عفوه وفضله وكرمه .

فانشروا هذه المسرّات ، واشكروا الله تعالى على تواتُر الانباء المنشرات ، واحمدوه ـ جلّ جلالُه ـ على نفحات رحمته المنثرات . ونحنُ نقول : اللّهمَّ قد فتحْتَ لنا أبواب نصرك ، وأعَنْتَنا على ما استحفَظْتنا من أمرك ، وأرَيْتَنا في عدوّ الحقّ أحكام سطوك وقهرك ، وأرَيْتَنا من آلائك وعوارف نعمائك ما يوجب صلة حمدك وشكرك ؛ فتَمِّمْ علينا النعمة تميما ، وعَرِّفنا في كلّ محاولة نصراً عزيزاً وصنعاً كريما ، واجعلْ طريقتنا في خدمة الديانة ، وتحمُّل الامانة ، طريقاً مستقيما ، وضاعِفْ لهذه الطائفة من النِّعَم الواكفة ما أنعمْتَ به عليها حديثاً وقديما ، واكتبْ لنا لسان صدق في الشكر والثناء ، إنّك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يُخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء . والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .

الفهارس

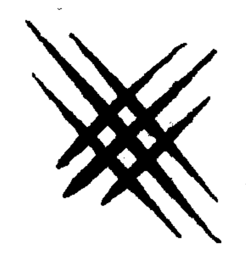
الفهرس الاول في تبيين الرسائل

الفهرس الثاني في أسماء الرجال

الفهرس الثالث

في أسماء القبائل والعشائر والاجناس

الفهرس الرابع
في أسماء المدن والاماكن والبلدان



تصويبات

ص ٣٩ س ١٨ : ويمزن ، وصوابها : ويمّزن

ص ١٠٣ س ١٧ : يسرُ ، وصوابها : سيرُ

ص ١١٦ س ٤ : المظمَّر ، وصوابها : المظفَّر

ص ١٩٠ س ٤ : للاغزار، وصوابها : للاغزاز

COLLECTION DE TEXTES ARABES
PUBLIÉE PAR L'INSTITUT DES HAUTES ÉTUDES MAROCAINES VOLUME X

TRENTE-SEPT LETTRES OFFICIELLES ALMOHADES

TEXTE ARABE

ÉTABLI ET PUBLIÉ

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL



RABAT 1941
IMPRIMERIE ÉCONOMIQUE — RUE DE POITIERS

TRENTE-SEPT LETTRES OFFICIELLES ALMOHADES